



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة القادسيّة – كلية الآداب

قسم اللغة العربيّة

الوظائفُ اللغويّة في شرح السّيرافيّ على كتابِ سيّويه (مقاربة في ضوء نظرية التّواصل)

أطروحة قدّمتها الطالبة

لينا جواد حمزة

إلى

مجلس كلية الآداب – جامعة القادسيّة

وهي من متطلّبات نيل شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربيّة
وآدابها / لغة

إشراف

أ.د. حيدر حبيب حمزة

٢٠٢٦ م

١٤٤٧ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا

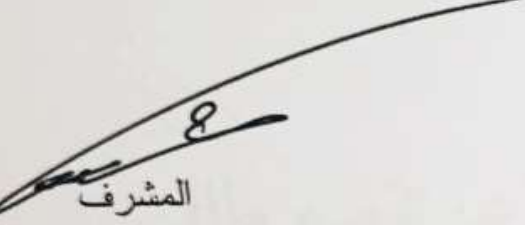
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

المجادلة: ١١

إقرار المشرف

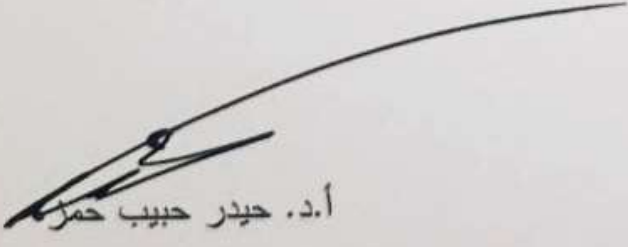
أشهدُ أنَّ إعداد هذه الأطروحة الموسومة بـ (الوظائف اللغوية في شرح السيرافي على كتاب سيبويه (مقاربة في ضوء نظرية التواصل)) قد جرت تحت إشرافي في كلية الآداب - جامعة القادسية ، وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الدكتوراه في فلسفة اللغة العربية وآدابها .


المشرف

أ.د. حيدر حبيب حمزة

٢٠٢٦ / ٧ / ٥

بناءً على التوصيات المتوافرة أُرشحُ هذه الأطروحة للمناقشة .


أ.د. حيدر حبيب حمزة

رئيس قسم اللغة العربية

٢٠٢٦ / ٧ / ٥

اقرار لجنة مناقشة رسالة الدكتوراه



القادسية/ كلية: الآداب
ات العليا

اعضاء لجنة مناقشة طالب الدكتوراه: ليسا جواد حمزة

المادة العربية

اطلعنا على التصحيحات والتعديلات التي تم اجرائها

تالبا والتي تم اقرارها في المناقشة من قبلنا فهي جديرة بدرجة جيد جدا

المادة العربية وآدابها

وعليه وقعنا

لجنة المناقشة:

الاسم	اللقب العلمي	التوقيع	الصفة
لهي عبد القادر خنياب	أستاذ دكتور		رئيسا
همود عبد حمد الالامي	أستاذ مساعد		عضوا
فضيلة حبيب نومان	أستاذ مساعد		عضوا
عايد حمد عبد الله	أستاذ مساعد		عضوا
شيماء هي رباب	أستاذ مساعد		عضوا
حيدر حبيب حمزة	أستاذ دكتور		عضوا ومشرقا

مجلس كلية الآداب / جامعة القادسية على قرار اللجنة

أ.د. نبيل عمران موسى

العميد

٢٠٢٦ / ٩ / ٩

الإهداء

إلى كوكبين درّين أضواء عُتمةٍ حالكة
لعلَّ هذا الجهد يكون اعتذاراً عن تقصيرٍ طال
أمدُّه ...

حُسَيْن و رَحْمَن

شكر و عرفان

الحمد لله على ما أعطى , والحمد لله على ما أنعم به من توفيقٍ ومعونة
لإتمام هذا الأطروحة .

أمّا بعد , أتقدم بجزيل الشكر والتقدير إلى أستاذي المشرف (أ.د.
حيدر حبيب حمزة) لما أحاطني به من رعاية علميّة وتوجيه سديد وصبرٍ
كثير , لم ينادني يوماً بغير (ابنتي) , فجزاه الله عني خير الجزاء .

ولا أنسى فضل أساتيدي في قسم اللغة العربيّة الذين تتلمذت على
يدهم في المرحلة التحضيريّة أ.د. لمى عبد القادر , وأ.م.د. حسام عدنان, و
أ.م.د. نبأ عبد الأمير , و أ.م.د. تراث حاكم , و أ.م.د. أسيل سامي , و
أ.م.د. شكران حمد ؛ وأ.م.د. فضيلة صبيح لما أفاضوا به علينا من علمٍ
غزير وخلقٍ رفيع , فكانوا مربين ومرشدين قبل أن يكونوا أساتذةً وموجهين
لكم مني خالص الوفاء وعظيم الامتنان.

كما اتقدّم بالشكر والامتنان لكلّ من مدّ لي يد العون بمشورة أو
نصيحة , ومساهمة ليخرج هذا المُنجز على ما هو عليه الآن .

الصفحة	الموضوع	
أ-ث		المقدمة
١٨-١	الوظائف اللغوية والتواصلية : أسس ومنطلقات	التمهيد
٦٥-١٩	الوظائف اللغوية والأسس البنائية	الفصل الأول
٢٢-٢٠	توطئة	
٤١-٢٣	الكلام وما يتألف منه	المبحث الأول
٢٨-٢٥	أولاً : المكوّن المعجمي	
٣٢-٢٨	ثانياً : المكوّن الإسنادي	
٣٤-٣٢	ثالثاً : المكوّن الدلالي	
٤١-٣٤	رابعاً : المكوّن التواصلية	
٥٦-٤٢	العدول النحوي	المبحث الثاني
٤٧-٤٣	أولاً : التقديم والتأخير	
٥٢-٤٧	ثانياً : الإبهام في حرف العطف (أو)	
٥٧-٥٢	ثالثاً : الإخبار بالمعرفة	
٦٥-٥٨	رابعاً : الحذف لعلم المخاطب	
١٤٨-٦٦	الوظائف اللغوية وبناء القاعدة النحوية	الفصل الثاني
٦٧	توطئة	
٩٦-٦٨	الوظائف التواصلية للإشاريات	المبحث الأول
٨٥-٧٠	أولاً : الضمائر	
٩١-٨٥	ثانياً : أسماء الإشارة	
٩٦-٩٢	ثالثاً : الإخبار بظرف الزمان	
١٣٣-٩٧	الوظائف التواصلية للأساليب الإنشائية	المبحث الثاني
١١١-١٠٠	أولاً : أسلوب الاستفهام	
١٢١-١١١	ثانياً : أسلوب الأمر والنهي	

١٢٧-١٢١	ثالثًا : أسلوب النداء	
١٦٥-١٢٨	الوظائف التواصلية لعناصر العملية الخطابية	المبحث الثالث
١٣٦-١٢٩	أولًا : المتكلم	
١٤٠-١٣٦	ثانيًا : المخاطب	
١٤٨_١٤٠	ثالثًا : المقام التخاطبي	
٢٠٧-١٤٩	الحجاج والتواصل	الفصل الثالث
١٥١-١٥٠	توطئة	
١٧٠-١٥١	حاجية السماع في توجه الحكم النحوي	المبحث الأول
١٥٨-١٥٣	أولًا : التراكيب التبيهية ودلالاتها في الكلام	
١٦٢-١٥٨	ثانيًا : منع الإضمار مع حروف الجر	
١٦٥-١٦٢	ثالثًا : منع تقديم الاستثناء في الكلام	
١٧٠-١٦٥	رابعًا : علة عقد باب اللفظ للمعنى	
١٨٦-١٧١	الخلاف النحوي في مسائل الخبر	المبحث الثاني
١٧٥-١٧٢	أولًا : ناصب الظرف الواقع خبرا	
١٨٣-١٧٥	ثانيًا : رافع الخبر	
١٨٦-١٨٣	ثالثًا : رافع الاسم الواقع بعد شبه الجملة	
٢٠٧-١٨٧	البنية الشرطية وأثرها في توجيه المعنى التواصلية	المبحث الثالث
١٩٢-١٨٩	أولًا : أثر لحاق (ما) بأدوات الشرط	
١٩٧-١٩٢	ثانيًا : الاستفهام والجزاء بين الأصل والاستعمال	
٢٠٢-١٩٧	ثالثًا : (إن) أم حروف الجزاء	
٢٠٧-٢٠٢	رابعًا : علة اقتران جواب الشرط بالفاء	
٢١٣-٢٠٨		الخاتمة
٢٣٧-٢١٤	قائمة المصادر والمراجع	
a-d	الخلاصة باللغة الإنكليزية	

المقدمة

الحمد لله الذي علّم بالبيان ، وجعل اللسان العربيّ غايةً في التبليغ والإفهام ، وأودع في نظمه سرّ الحجّة والبرهان ، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأفصح بيان محمد و آله الطيبين الأطهار .

أمّا بعد فالبحت مقاربة تواصلية للوظائف اللغوية في شرح السيرافي على كتاب سيبويه ، وقد أغرى به جملة أمور ، منها : إنّ الإنسان بطبعه كائن اجتماعي لا تستقيم حياته إلّا في إطار التفاعل مع الآخرين ، الأمر الذي يقتضي وجود وسيلة تمكّنه من التفاهم ونقل المعارف والأفكار والخبرات ، وكانت اللغة أوّل تلك الوسائل وأنجحها على أداء هذه الوظيفة ؛ فهي الأداة الرئيسة للتخاطب والتواصل، وبها تتحقق عملية الإبلاغ ، وتنظم العلاقات الانسانية ، ولأهميّة الظاهرة اللغوية ظلّت محلّ عناية الباحثين على مرّ الأزمنة محاولين الإحاطة بمكانها ، بوصفها واحدة من النعم التي خصّ الله بها الإنسان دونًا عمّا سواه ، وجعلها وسيلة للتفكير والتواصل وبناء الحضارات .

والأمر الثاني : يتّصل بما عُرف عن السيرافي (ت ٣٦٨هـ) من التحقيق وحسن التعليق ، قال ابن الأنباري(٣٢٨هـ) : ((ولم يشرح كتاب سيبويه أحد أحسن منه ؛ ولو لم يكن له غيره لكفاه ذلك فضلًا))^(١) ، ولا يخفى ما ينطوي عليه شرحه من معالجة علميّة دقيقة لأبواب كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـ) ، إذ تتبّع مسأله، وأوضح ما استغلق من عباراته ، و ناقش آراء مخالفيه مستندًا إلى الحجّة والبرهان ، الأمر الذي جعل شرحه موضع عناية الباحثين ، فأُفردَ بالدراسة من جوانب متعدّدة^(٢) ، وإلى جانب ذلك برزت في توجيهاته النحويّة سمات ذات طابع تواصلّي ، تمثّلت في عنايته بالمعنى، ومراعاة

(نزهة الألباء في طبقات الأدباء ، أبو البركات الأنباري ، تحقيق : إبراهيم السامرائي : ٢٢٨ .^١

ينظر : نهج السيرافي في شرحه لكتاب سيبويه ، عبد الحميد علي الفلاح السالم .^(٢)

الفائدة المتوخاة من الخطاب , والعناية بمقاصد المتخاطبين , وهو ما جعل شرحه مادة علمية ثرية تصلح لدراسة الوظائف اللغوية في ضوء المقاربة التواصلية .

والأمر الثالث : أنَّ محاولة الكشف عن الفكر التواصلية في شرح السيرافي على وجه الخصوص , دراسة قد تكون جديدة على قسم اللغة العربية في كليتنا , فلم يسبق لي في حدود ما اطلعت على دراسة مقارنة سبقت هذه الدراسة في هذا المتن , فكانت جدّة الموضوع دافعاً لمحاولة الجمع بين الأصالة والحداثة , ولتأكيد فكرة أنَّ النحو ليس قوالب جامدة ؛ بل هو وسيلة لضبط الفهم ومن ثمَّ ضبط القول وبالتالي تحقيق التواصل في صورته المثلى .

ومن هنا تبرز إشكالية هذه الدراسة فهي تحاول الإجابة عن سؤال معرفي مفاده كيفية تجلّي الوظائف التواصلية في فكر السيرافي ؟ وإلى أي مدى تتقاطع مع ما انتهت إليه اللسانيات الوظيفية الحديثة ؟ وستسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن هذا التساؤل من خلال تحليل النصوص في ضوء نظرية التواصل

ولم يحاول هذا البحث إسقاط المفاهيم الحديثة إسقاطاً حرفياً على النصّ القديم أو إقحامها إقحاماً تعسفياً ؛ وذلك لما بينهما من فوارق زمنية وسياقية تجعل هذا النوع من الدراسات تبدو غافلة عن التباعد الزمني والمعرفي بين المتناظرين , لذا سعى هذا البحث إلى تلمس المشتركات المعرفية والأفكار المتقاربة دون ادّعاء التطابق التام أو التماهي بينهما , على الرغم من اعتراف المحدثين بتأثرهم بمباحث القدماء , فقد ذكر تشومسكي في أحد حواراته التلفزيونية : ((كنتُ أشتغل ببعض البحوث المتعلقة باللسانيات السامية وما زلت أذكر دراستي للأجرومية منذ عدّة سنوات خلتُ أظنُّ أكثر

من ثلاثين سنة ... وكنت مهتمًا بالتراث النحوي العربي والعبري ... ولكنني لا أشعر أنني كفاً للحديث عن البحوث اللسانية التي كان العرب قد أسهموا بها لبناء علم اللسان الحديث ((¹) وقد عرضت لي بعض الدراسات التي غُيّت بالتواصل وبالوظيفية , على متونٍ مختلفة كلٌ منها عالج النصّ من زاوية نظر قد تكون مغايرة وأقربها إلى عنوان البحث هي (أطروحة تقدّم بها الباحث علي جواد الذبحاوي الموسومة ب : (التّواصل اللساني في شرح كتاب سيبويه للسيرافي (٣٦٨هـ) , كان لها الفضل في تمهيد الطريق للفكر التواصلي عند السيرافي على اختلاف المنهج والمعالجة , وكذلك الكتاب الموسوم ب (الوظيفة في كتاب سيبويه) كان بمثابة الباب الذي اطلّعت من خلاله على تجليات الأفكار الوظيفية عند سيبويه ومن ثمّ عند السيرافي .

واقتضت طبيعة البحث ومادّته أن يقسّم إلى ثلاثة فصول تسبقها مقدّمة وتمهيد و تتخلّلها مباحث وتعقبها خاتمة تضمّنت أهم النتائج التي توصّلت إليها الباحثة .

عني التمهيد ببيان المفاهيم النظرية للوظائف اللغوية والتواصلية وتتبع إرهابات ظهورها في الفكر اللساني الحديث , مع الوقوف على بعض تجليات الفكر الوظيفي عند السيرافي .

وجاء الفصل الأوّل بعنوان (الوظائف اللغوية والأسس البنائية) فتناول مكونات الكلام وعلاقاتها الوظيفية , ثمّ بحث في العدول النحوي بوصفه وسيلة لتحقيق أغراض التواصل والإبلاغ.

() يجيب تشومسكي هذه الإجابة في حوار مع د. مازن الوعر في لقاء أجراه معه في ٣١ كانون الثاني ١٩٨٠م ¹ في كامبردج) ينظر : المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور : ١١ , و الوظيفة في كتاب سيبويه , أ.د. رجا عجيل الحساوي : ١٤ .

وأما الفصل الثاني فجاء بعنوان (الوظائف التواصلية وبناء القاعدة النحوية)
فاختص بدراسة الوظائف التواصلية للإشاريات والأساليب الإنشائية وعناصر العملية
التخاطبية وأثر مقاصد المتحاورين في توجه الحكم النحوي .

وجاء الفصل الثالث بعنوان (الحجاج والتواصل) فتناول الحجاج بوصفه وسيلة
لتنشيط الأحكام النحوية من خلال ثلاثة مباحث , خصص الأول لحجاجية السماع في
توجيه الحكم النحوي , والثاني للخلاف النحوي في مسائل الخبر , أما الثالث فدرس
(البنية الشرطية وأثرها في توجيه المعنى التواصلية) , وانتهت الدراسة بخاتمة أودعت
فيها الباحثة أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وحرصت الدراسة على التزام منهج واحد في عرض المسائل النحوية , من خلال
إفراد كل مسألة بعنوان مناسب لمحتواها مع التقديم بتوطئة توضح أبعادها وتشير إلى
المشكل المراد معالجته , مع الاستعانة بنصوص سيبيويه متى ما اقتضى السياق ذلك ,
واعتمدت في بعض المواضع على تحليل نصوص السيرافي نفسها من دون الرجوع إلى
مصادر أخرى حين لم تسعف المصادر والمراجع في الكشف عن البعد الوظيفي للمسألة .

فما كان في هذا البحث من صواب فهو من توفيق الله تعالى ومن توجيهات
المشرف ونصحه , وما فيه من قصور أو خلل فهو من عنديّات الباحثة وحدها .

التمهيد

الوظائف اللغوية والتواصلية : أسس ومنطلقات

أولاً : الأبعاد الوظيفية في اللسانيات الحديثة

ثانياً : الأبعاد الوظيفية في النحو العربي شرح

السيرافي -إنموذجاً-

الوظائف اللغوية والتواصلية : أسس ومنطلقات :

ينطلق الاتجاه الوظيفي من أنَّ التواصل هو الغاية الأساسية للغة ، ومن ثمَّ تُفسَّر البنى اللغوية في ضوء ماتوِّديه من وظائف تواصلية بين المتخاطبين ، إذ لا تكمن قيمة العناصر اللغوية في ذاتها وإنَّما في الوظيفة التي تؤدِّيها داخل الخطاب، ولمَّا كانت اللغة ذات وجهين متلازمين ، هما : التركيب والمفهوم غدا من المتعذّر دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر ، لأنَّ عناصر البنية لا تؤدّي قيمتها إلا من خلال العلاقات التي تنشأ فيما بينها لتؤدّي مفهوماً متكاملًا^(١) ، ومن هذا المنظار يكون للوظيفة اللغوية مستويان^(٢) ، الأوّل المستوى التواصلية : المتمثّل في الوظيفة التي تؤدّيها بوصفها ظاهرة اجتماعية ، والآخر المستوى النحويّ : المتمثّل بالعلاقات التي تقوم بين عناصر الجملة كالإسناد على سبيل المثال ، وما تؤدّيه هذه العلاقات من دور في بناء المعنى ؛ فاللغة ليست وسيلة لنقل أفكار المتكلّم إلى المخاطب فحسب ؛ بل وجود مفهوم معين مقصود إيصاله ، وهذا المقصود يحقق استجابة من قبل المخاطب .

(١) ينظر : مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي ، أحمد المتوكّل : ٨ ، و النحو الوظيفي والدرس اللغوي ، دراسة في نحو الجملة ، الزايري بو درامة : ٣٤ .

(٢) ينظر : الوظائف النحوية المتعددة لعناصر التركيب في ضوء تنوّع الاستعمال اللغوي ، د. شيماء رشيد محمد زنكنة ، بحث منشور : ٨٣٩ .

فتجاوزت الدراسات الوظيفية النظر إلى اللغة بوصفها بنية شكلية مغلقة^(١)،
للتعامل معها بوصفها نشاطاً وظيفياً مرتبطاً بأغراض الاستعمال ومقتضيات التواصل،
الأمر الذي أدى إلى بروز تصوّرات لسانية جعلت من الوظيفة محوراً في تفسير
الظواهر اللغوية وتحليلها .

وقد بدأت إرهابات الوظيفية بظهور مدرسة (براغ) على يد العالم
اللغوي (ما نيزيوس) عام (١٩٢٦ م) ، هو ومجموعة من الباحثين مثل :
(كارل بوهلر ، و جاكسون) اللذين كان لهما الفضل لاحقاً في تطوير ما
عرف بالنظرية التواصلية للغة ، حيث وصفوا اللغة: بأنها نشاط اجتماعي،
ذو طابع وظيفي غائي ؛ لأنها وسيلة لتحقيق غاية مستعمل اللغة فيما يروم
إيصاله والتعبير عنه ، ففي الوقت الذي كان يرى فيه ديسوسير أنّ اللغة
نظاماً من العلامات ، جاءت المدرسة الوظيفية لترى اللغة نظاماً من
الوظائف، ولكلّ وظيفة نظام من العلامات^(٢) ، فكانت الوظيفية بمثابة ردّ
فعل على البنيوية ، إلا أنّ هناك من يرى أنّها فرع من فروعها ولولا مباحث
البنيوية لما ظهرت الوظيفية ، وذلك لأنّ من غير الممكن معالجة

(١) (اكتفى المنهج البنيوي بدراسة اللغة بنظام وبنية بعيدا عن السياقات الخارجية ، حيث تُشكّل اللغة
نسقاً لغوياً متكاملاً ، فترى البنيوية أنّ الوصف الموضوعي للغة لا يتم اثره إلا من خلال اغلاق المدونة
وجعلها المادّة الوحيدة التي يرجع إليها الباحث في تحليله اللغوي فيكون المذهب الوصفي ، هو المذهب
العلمي الوحيد - في منظورهم - القادر على معالجة اللغة معالجة علمية بعيدا عن المعيارية) ينظر:
بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، عبد الرحمن الحاج صالح: ٢ / ٦٢٣ .

(٢) ينظر : اللسانيات النشأة والتطور ، الأستاذ أحمد مؤمن : ١٣٦

المستويات التركيبية والدلالية والصوتية بمعزلٍ عن البنية^(١) ، إلا أنّ الوظيفية ترى أنّ اللغة انعكاس للانفعالات النفسية والذهنية للإنسان فهي : ((عبارة عن محرّك وعلى اللسانين أن يدركوا ما هي الأعمال التي تقوم بها المكونات لهذا المحرّك ، وكيف أنّ طبيعة المكوّن الواحد تحدّد طبيعة المكونات الأخرى))^(٢).

أولاً : الأبعاد الوظيفية في اللسانيات الحديثة:

يصرّح اللسانيون المحدثون صراحةً بتأثرهم بالكتب النحوية القديمة، فيقول مارتينييه : بأنّ كثيراً من البحوث العربية ساعدت بل ساهمت في بناء مايسمّى علم اللسانيات الحديث^(٣) تتعدد وظائف اللغة بتعدد أغراضها ، ولعلّ سؤالاً يطرح ، ما المقصود بالوظائف اللغوية ؟

إنّ الوظائف اللغوية في أبسط صورها مرادفة (للاستعمال) لذا حين يتحدث باحث عن وظائف اللغة لا يكون في باله سوى الآلية التي يستعمل بها المتخاطبون لغتهم ، ومع بداية النظر الوظيفي للغة أخذ اللغويون يصنّفون وظائف اللغة على حسب مقاصد وأغراض المتكلمين التي كانت

(١) ينظر: مدخل إلى اللسانيات ، الدكتور محمد محمد بونس : ٦٩ - ٧١ .

(٢) اللسانيات النشأة والتطور : ١٣٦ .

(٣) ينظر : المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ، الطاهر شارف ، رسالة ماجستير : ١١ .

متعلقة بالجانب النفسي لهم ، والجانب الاجتماعي ، هذه الأغراض التي تفرض تغيرات عبر الزمن كانت واحدة من أسباب تطوّر اللغة ، ومعظم الدراسات التي حاولت تصنيف اللغة كانت تدور حول محاور ثلاثة هي : المتكلم ، والمخاطب ، و الغائب - الذي مثل في اغلب الأحيان كلّ ما سوى المتكلم والمخاطب - فكانت هذه الأقطاب الثلاثة محطّ اهتمام الوظيفيين على اختلاف معالجاتهم^(١).

فيمكن القول : إنّ الوظائف اللغوية هي الغاية التي تحققها العناصر اللغوية داخل الخطاب ، سواء أكان ذلك في بناء المعنى ، أم في توجيه الدلالة ، أم في تحقيق غايات التواصل بين المتكلم والمخاطب ، ومن ثمّ فإنّ وظيفة اللغة لا تقتصر على الجانب البنيوي للكلام ، بل تمتد إلى ما تؤدّيه التراكيب والأساليب من أدوار تداولية واستعملية داخل السياق .

وفي سياق التطوّر الوظيفي للغة ، برز رومان جاكسون بوصفه واحداً من أبرز اللسانيين الذين نظروا إلى اللغة بوصفها فعلاً تواصلياً تتعدّد وظائفه بتعدد عناصر العملية التواصلية ، وعُرف التواصل بأنّه: ((تبادل كلامي بين المتكلم الذي يُنتج ملفوظاً ، أو قولاً موجّهاً نحو متكلم آخر يرغب في السماع ، أو إجابة واضحة أو ضمنية ، والتواصل حدث ونبأ ينتقل من نقطة إلى أخرى ونقل هذا النبأ يكون بواسطة مرسلة استقبلت عدداً من الرسائل

(١) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، الدكتور محمود احمد نحلة : ٢٦٨.

المفكوكة ((^(١) ، أو ((هو نقل أو توصيل أو تبادل المعلومات أو الأفكار بالكلام أو الكتابة أو بالإشارات))^(٢) ، فحاول جاكبسون الإفادة من النموذج السوسيري إضافة إلى نموذج الاتصال الأول الذي أسس له (كلود شانون و وارن ويفر) الذي يقوم على وجود مصدر للمعلومات تخرج منه رسالة مفيدة من مجموعة كبيرة من الرسائل الممكنة، وتُحمَل إلى المتلقي من خلال قناة اتصال مُعَيَّنة ، فتكون عملية قائمة على ترميز ونقل وفك^(٣) .

من هذا الأساس انطلقت إرهابسات الفكر التواصلية اللغوية عند جاكبسون ومن قبله كارل بوهلر الذي حصر وظائف اللغة في ثلاثة أنواع فذكر جاكبسون : ((أن النموذج التقليدي للغة : كما أوضحه بوهلر (Buhler) يقتصر على ثلاثة وظائف - إنفعالية و إفهامية ومرجعية - وتناسب القمع الثلاث لهذا النموذج المثلث ضمير المتكلم أي المرسل ، وضمير المخاطب أي المرسل إليه ، وضمير الغائب بأصحّ تعبير أي شخصا ما أو شيئا ما تتحدث عنهما))^(٤) .

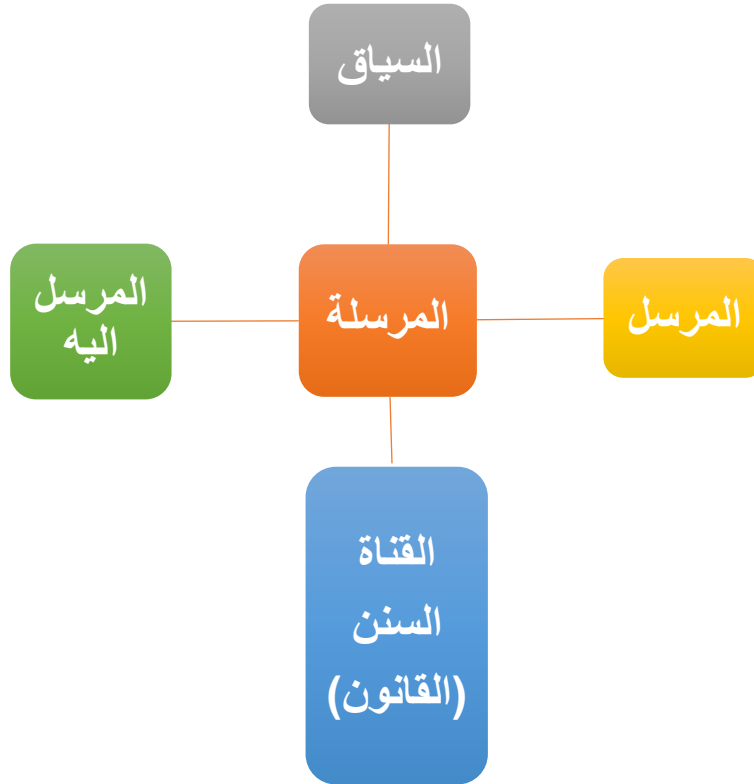
(١) نقلا عن معجم اللسانيات بإشراف جون ديويوا (ينظر ، كفاءة معلم اللغة العربية بين التواصل اللغوي والسياق الثقافي ، الدكتوراة فاطمة داوود ، بحث منشور ضمن مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري : ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٢) الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي ، إبراهيم أبو يعقوب ، بحث منشور : ١٧ .

(٣) ينظر : اللسانيات ونظرية التواصل رومان جاكبسون نموذجا ، د. عبد القادر الغزالي ، ٢٣-٢٤ .

(٤) قضايا الشعرية ، رومان جاكبسون : ٢٧

فيكون بذلك نموذج بوهلر هو الأساس الذي وسّعه وعمل عليه جاكبسون محاولاً الإلمام بجميع سبل الاتصال الفعّال ، فكان النموذج الاتصالي الممثل بالمخطط الآتي :



هو النموذج الأوضح والأكثر شمولاً ، حيث اعتبر أنّ وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل ، فقال : ((إنّ اللغة يجب أن تُدرس في كلّ تنوع وظائفها ... ولنُقَدِّم فكرة عن هذه الوظائف من الضروري تقديم صورة مختصرة عن

العوامل المكوّنة لكلّ سيرورة لسانية لكلّ فعل تواصلية^(١)، و قد فصّل جاكبسون القول فيها ليبيّن أنّ ((المرسل يوجّه رسالة إلى المرسل إليه ؛ ولكي تكون الرسالة فاعلة ، فإنّها تقتضي ، بادئ ذي بدء، سياقاً تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضاً "المرجع" باصطلاح غامض نسبياً)، سياقاً قابلاً لأن يُدرّكه المرسل إليه، وهو إما أن يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون كذلك ؛ وتقتضي الرسالة بعد ذلك سنناً^(٢) مشتركة كلياً أو جزئياً ، بين المرسل والمرسل إليه ، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه^(٣) .

فكان كلّ عامل من هذه العوامل يؤدّي وظيفة لسانية مختلفة ، وهذه الوظائف هي :

(١) الوظيفة التعبيرية (الانفعالية) : وهي الوظيفة التي تمثّل المرسل ، لأنّها ((تعبّر بصفة مباشرة عن موقف المتكلّم تجاه ما يحدث عنه ، وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معين صادق أو خادع ... وتُمثّل صيغ التعجب في اللغة الطبقة الانفعالية الخالصة))^(٤)

(١) قضايا الشعرية : ٣٠ .

(٢) السنن : وهي الأنساق المتزامنة والتي تعد لغة مشتركة يتكلمها المتخاطبون مما يُساعد على فهم الرسالة وتُسهّل عملية التواصل لأنّها تمثّل القاعدة المشتركة بين المتكلّم والمخاطب ، قضايا الشعرية: ٢٧ ، واللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل ، الدكتور نور الدين رايس: ٢٣٢ .

(٣) ينظر : قضايا الشعرية : ٢٧ .

(٤) نفسه : ٢٨ .

(٢) الوظيفة الإفهامية (التأثيرية) : وهي المتعلقة بالمرسل إليه وتسعى إلى تحديد العلائق بين الرسالة والمرسل إليه حتى تُظفي طابع الإبلاغ الموجه إلى المخاطب على اللغة ، ونجد تمثيلها الأكثر خلوصاً في النداء والأمر اللذين ينحرفان من وجهة نظر تركيبية وصرفية وحتى فونولوجية^(١).

(٣) الوظيفة المرجعية (المقامية) : وهي الوظيفة التي توجّه اهتمامها إلى السياق ، وظروف إنتاج الخطاب وتوجّه إلى كلّ ما هو مشترك ومتفق عليه من قبل طرفي الحوار ؛ لأنّنا نتكلّم بهدف الإشارة إلى محتوى مُعيّن نرغب بإيصاله إلى الآخرين وتبادل الآراء معهم ، وتتميّز هذه الوظيفة بكثرة استعمالها مع ضمائر الغائب ، وتتعدّد المرجعيّات الكلامية بحسب موضوعات لغة الحوار فتتباين بين الثقافة والفلسفة أو التاريخ فيكون الحديث محيلاً إلى ما يلائمه^(٢) .

(٤) الوظيفة الميتالغوية: وهي من الوظائف واسعة النطاق ، تفيد المرسل في شرح المصطلحات والمفاهيم الصعبة والشفرة المستعملة ، مثل تفسير اللغة باللغة وأكثر ما تكون في الكتب الشارحة ، وسنرى تجلياتها واضحة في شرح السيرافي عن طريق توضيح النص. والإجابة عن الاعتراضات والتساؤلات المطروحة^(٣) ، وهي ما أطلق عليها جاكبسون اللغة الواصفة ، ولا تخدم هذه الوظيفة المناطق أو اللسانيين فحسب ، بل كثيراً ما

(١) ينظر : اللسانيات ونظرية التواصل رومان جاكبسون نموذجاً : ٤٩ .

(٢) ينظر : التواصل اللساني مفهومه و نماذجه ، بوزري فاتح ، بحث منشور : ٧٥٦ .

(٣) ينظر : نفسه : ٧٥٧ .

يستعملها الفرد في حياته اليومية دون الانتباه إلى هذه الممارسة المخصصة^(١).

٥- الوظيفة الشعرية : توحى للوهلة الأولى أنها متعلقة بالشعر وكل ما يختص به ، لكن الواقع هي الوظيفة التي يقصد بها الإشارة إلى كل استعمال خلاقٍ للغة^(٢) ، ويُميزها جاكسون عن غيرها^(٣) ، فيرى أنها فريدة من نوعها ، ولا يمكن اختزالها إلى عناصر جزئية ، وجاء هذا التميز من البنية المركبة لها ، وذلك لأنّ هذه الوظيفة تُحدّد سلوك المجتمع من خلالها فهي تتجلى في ((التكرار والتوازيات الصوتية والدلالية))^(٤).

٦- الوظيفة اللغوية أو اللسانية : وهي الوظيفة التي توجّه اهتمامها نحو إثارة انتباه المتلقّي مع التماهي في هذا الانتباه^(٥) ، فيتّضح أنّ هذه الوظيفة تؤدّي أمرين ، أحدهما : التأكّد من أنّ المخاطب متفاعلٌ مع المتكلّم ومنصّتٌ إليه ، والآخر : العمل على إطالة الخطاب والتأكّد من ديمومته كما في حلقات الاتصال الهاتفية^(٦).

(١) ينظر : قضايا الشعرية : ٣١ .

(٢) ينظر : أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر : ٢/٣ ،

(٣) ينظر : قضايا الشعرية : ٣٤ - ٣٥ .

(٤) معجم السيميائيات ، فيصل الأحمر : ٢٩٨ .

(٥) ينظر : اللسانيات النشأة والتطور : ١٤٨ ، ونموذج الاتصال عند رومان جاكسون ، د. خنضالي سعيدة ، بحث منشور : ٢٤٦ .

(٦) ينظر : قضايا الشعرية : ٣٠ ، والتواصل اللساني في شرح كتاب سيبويه للسيرافي (٣٨٦هـ) ، علي جواد كاظم ، أطروحة دكتوراه : ٢١-٢٢ .

ممّا تقدم يمكن القول : إنّ اللغة هذا النظام التواصلّي لا يمكن لها في واقع الاستعمال أن تقوم على وظيفة واحدة فقط دون سواها من باقي الوظائف ، فكما أن العملية التواصلية المثلى لا تقوم إلا بالعناصر الستة مجتمعة - بحسب نموذج جاكسون - حتّى تحقّق الغرض الإبلاغي المرجوّ منها ، كذلك الأمر مع وظائف اللغة لابدّ من تداخل وتشارك بينها، وقد يكون تفصيل جاكسون لها بناءً على مبدأ الأهميّة ، فإذا كان الكلام يُفضّل فيه المتكلّم ويُعنى به دوناً عمّا سواه كانت اللغة تؤدي وظيفتها التعبيريّة ، و إذا كان الكلام موجّهاً نحو إفهام المخاطب أمراً ما، و شرحها له ، يمكن القول إنّ وظيفة الكلام ههنا (ميتالغوية) ، وهكذا الأمر مع سائر موضوعات الكلام، إلا أنّ هذه الوظائف جميعاً تكتنف تحت ظل الوظيفة الإبلاغيّة للغة .

وذكر أحمد المتوكل : ((أنّ الوظيفة الأصل و الأساس للغة هي إقامة التواصل داخل المجتمعات وأنّ ما عداها فرع عنها أو انزياح))^(١)، فقد اتجهت الدراسات الوظيفية إلى ربط اللغة بوظيفتها التواصلية ، من خلال النظر إليها بوصفها أداة لتحقيق الفهم والإفهام داخل العملية التخاطبية ، وإذا كان هذا التصور قد تبلور في اللسانيات الحديثة ، فإن ملامح البعد الوظيفي لم تكن غائبة عن الدرس النحويّ القديم .

(١) اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التتميط والتطور ، أحمد المتوكل : ١١٨ .

ثانياً : الأبعاد الوظيفية في شرح السيرافي :

ينظر الاتجاه الوظيفي إلى اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية تتجاوز حدود البنية الشكلية إلى الوظائف التي تؤديها في التواصل ، ولم يكن النحاة بمنأى عن هذا التصور ؛ إذ شكّلت اعتبارات الفهم والافهام ركيزة أساسية في بناء كثير من الأحكام النحوية وتوجيهها ، ويظهر ذلك بوضوح فيما قرره ابن السراج من أنّ صحّة بعض التراكيب النحوية مرهونة بما تحقّقه من فائدة في الخطاب وإلا كانت غير مقبولة دلاليًا ، قال : ((فهذا فرق ما بين الصفة والحال ، وهو أنّ الصفة لا تكون إلّا لاسم مشترك لمعنيين أو لمعان ، والحال قد تكون للاسم المشترك والاسم المفرد ، وكذلك الأمر في النكرة إذا قلت : جاءني رجل من أصحابك ركبًا إذا أردت الزيادة في الفائدة والخبر ... وقبيح أن تكون الحال من نكرة ، لأنّه كالخبر عن النكرة والإخبار عن النكرات لا فائدة فيه ... فمتى ما كان في الكلام فائدة فهو جائز في الحال كما جاز في الخبر))^(١) .

وكذلك تكشف كتب النحو والبلاغة عن تصوّر مبكّر لعلاقة البنية النحوية بالمعنى و وظيفة العناصر داخل التركيب ، وقد أشار عبد القاهر الجرجاني إلى أنّ معاني النحو تتحدّد من خلال العلاقات التي تربط أجزاء الكلام ، بحيث يؤدي كل عنصر دورًا دلاليًا داخل السياق ففاعل الفعل يدلّ على من أسند إليه الحدث ،

(١) الأصول في النحو ، ابن السراج ، تحقيق : عبد الحسين الفتلي : ٢١٤/١ .

والمفعول به يدلُّ على من وقع عليه الفعل ، وسائر العلاقات النحوية إنما تتحدّد بحسب موقعها في التركيب وما تؤدّيه من معنى داخل الخطاب^(١) .

وتتمثّل أبرز الأبعاد الوظيفية في شرح السيرافي في جملة من المحدّدات التواصلية ، في مقدّماتها قصد المتكلّم ، وحال المخاطب ، والسياق .

١- مراعاة قصد المتكلم : من حيث أن القصد ((هو الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من خطابه))^(٢) ، قال أبو سعيد في باب التعظيم والمدح : ((والذي يُصيرُه مدحًا وثناءً أو شتمًا وتقبيحًا ، قصد المتكلم به إلى ذلك))^(٣) ، يريد أنّ السامع ملزم بفهم قصد المتكلم حتّى يبتعد عن الخطأ في تأويل الكلام ؛ لأنّه ((ربما قصد الإنسان بقوله : فلان فاضل شجاع إلى الهزء به ، ويتبين ذلك في لفظه من محاوره ، وهذا معروف في عادات كلام الناس))^(٤) وفي هذا النص إشارة إلى أشكال التّواصل غير اللفظي بواسطة النبر والتنغيم ، وكذلك في مسائل التّعريف والتّكثير ، قال : ((وإنّما يكون التّكثير والتّعريف فيهما على قصد المتكلم ، وذلك في الأسماء الأعلام التي لا ألف ولا لامًا فيها))^(٥) إذ جعل السيرافي قصد المتكلم قرينة لفظية تساعد على بيان الوظيفة النحوية للكلام .

(١) ينظر : دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر : ٥٥ .

(٢) الوظيفة في كتاب سيبويه ، أ.د. رجاء عجيل الحسناوي : ١٩ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي ، تحقيق : أحمد حسن مهدي ، و علي السيّد علي : ٣٩٥ / ٢ .

(٤) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٠٤ / ١ .

(٥) نفسه : ٣١٨ / ٢ .

٢- مراعاة حال المخاطب : حرص النحاة على ضرورة نظم الكلام بما يتناسب مع علم المخاطب بالشيء أو جهله ، وذلك لأن من خصائص الخطاب الناجح أن يؤدي رسالة مفهومة من قبل المخاطب ، متمحورين على فكرة الفائدة المتحصلة من الكلام وذلك لأنها علة من علل التواصل بين المتكلمين ، وقد أكد السيرافي على مراعاة فهم المخاطب في مواضع كثيرة فبيّن أن ((حكم الخطاب المفهوم أن يُساوي المخاطب المتكلم في معرفة ما خبره به ... وإذا قال : " كان عالم زيدا فعالم منكور لا يعرفه المخاطب ، ولم يجعله خبراً فيفيدة ، وقد قدّمنا أن الأسماء لا تستفاد))^(١).

إن مصطلح الإفادة يتبلور فيما يحصل من الكلام عند السامع من معنى لم يكن عنده^(٢) ، فتلتقي هذه المحدّدات التواصلية في كونها آليات إجرائية تُسهّم في تحقيق الفائدة ، وضمان تحقّق الفهم والإفهام ، وتلتقي هذه الرؤية الوظيفية مع ماقرّره النحاة في تحديد مفهوم الجملة ، إذ يعرفها ابن يعيش (٦٤٣هـ) بأنها : ((كل لفظ مستقل بنفسه مفيد لمعناه ، ويُسمّى الجملة))^(٣) ؛ أي أنّ النحاة حرصوا على حصول الفائدة عند المخاطب حتى يؤدي التركيب النحوي وظيفته.

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٠٤/١ .

(٢) ينظر : المقاصد الشافية ، أبو إسحاق الشاطبي ، تحقيق ج ١ : د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين (ت ١٤٣٦هـ) : ٥٣/١ .

(٣) شرح المفصل ، ابن يعيش ، تحقيق : الدكتور إميل بديع يعقوب : ٧٢ / ١ .

٣- السياق : كثيرا ما يستعين النحاة بالسياق لغرض توضيح معنى الكلام ، وذلك عن طريق وصف الظروف المحيطة بالنص ، أو ذكر مسببات الحدث ، قال أبو سعيد : ((اختار سيبويه قول يونس لما ذكره ، وبعض أصحابنا يختار قول الخليل رأيت ذلك في سياق كلام نُسب أوله إلى أبي العباس المبرد فيما حكاه محمد بن علي مبرمان ، والحجة في ذلك أن المنادى المعرفة لا يدخله تنوين))^(١).

فنلاحظ أن السيرافي لم يكتفِ بإصدار الحكم - عدم جوار تنوين المنادى المعرفة - وإنما أفاض في ذكر أسماء الشخصيات وسبل سير الحوار وانتقال المعلومة بينهم عن طريق المحاوراة والسؤال والجواب .

٤- الإعراب : يعد الإعراب من أهم القرائن النحوية الدالة على المعنى ، إذ ارتبط البحث الدلالي عند النحاة بالبحث عن المعاني داخل التراكيب ، و يُنظر إليه بوصفه أداة لإبانة المقاصد وتوضيح العلاقات بين عناصر الجملة وهو ما عبّر عنه ابن جني (ت ٣٩٢هـ) بقوله : ((الإبانة عن المعاني بالألفاظ))^(٢) ، وقال أبو القاسم الزجاجي (٣٤٠هـ) : ((الإعراب هو الحركات المبينة عن معاني اللغة))^(٣) ، وذكر السيرافي في باب ما أُجرى مجرى ليس : ((ألا ترى أنك إذا قلت : "ما زيد ذاهبا" ، فإنما تنفي ذهابه في حال حديثك فإذا قلت : " ولا عمر و منطلقا " ، فإنما تنفي

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٥٦/٥ .

(٢) الخصائص ، ابن جني ، (باب القول على الإعراب) ، تحقيق : محمد علي النجار : ١/٣٦ .

(٣) الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي ، تحقيق : مازن المبارك : ٩١ .

انطلاقه في حال حديثك ... و إذا رفعت أيضا، فأنت تنفيه في حاله حديثك ... ويختلف المعنى في "كان". وهذا معنى قوله : (وكان في " كان " أوضح ، لأنَّ المعنى يكون على ما مضى وعلى ما هو الآن) يعني : في النصب على ما يمضي ، وفي الرفع على ما هو الآن))^(١) .

فبين السيرافي أنَّ اختلاف البنية الإعرابية لا يقتصر على الشكل فحسب، بل يُغيّر المعنى ويمكن أن يكون دلالة عليه (النصب على ما يمضي ، والرفع على ما هو الآن) مما يكشف عن الوظيفة الدلالية للإعراب في الكشف عن المعنى.

٥- التعليل النحوي : يعد التعليل النحوي من أبرز المظاهر الوظيفية في الدرس النحوي العربي ، إذ لم يقتصر النحاة على وصف الظواهر اللغوية ووصف أحكامها ، بل سعوا إلى الكشف عن العلل الكامنة وراء تلك الأحكام وربطها بما تؤدّيه من وظائف دلالية وتواصلية ، والتعليل في العموم هو : ((بيان علة الشيء ، وتقرير ثبوت المؤثر لإثبات الأثر ، ويُطلق على ما يستدلّ فيه من العلة على المعلول والتعليل في النحو : تفسير اقتراني يُبيّن علة الإعراب أو البناء على الإطلاق وعلى الخصوص وفق أصوله العامة))^(٢).

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٣٢ / ١ .

(٢) نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين ، حسن خميس سعيد الملخ : ٢٩ .

ومنهج العلة والتعليل من الآليات التفسيرية البارزة في شرح السيرافي؛ إذ يوظفه في بيان أسباب الأحكام النحوية وتقويتها، وإقامة الحجة عليها ، فلا يقتصر على تقرير الحكم ؛ بل يتجاوز ذلك إلى تعليل الحكم بأسبابه ومقاصده ، الأمر الذي يبرز البعد الوظيفي للتعليل في بناء الحجة النحوية وتوجيه المتلقي إلى الوجه المقصود ، و من ذلك قوله في (باب مجاري أواخر الكلم) : ((وظاهر أن تركهم الألف في تثنية المنصوب علة أن يكون مثله في الجمع ، وليس كذلك ؛ لأنهم ما تركوه في التثنية ليشبوه في الجمع كما أن الله تعالى ما بين لهم ليضلوا^(١) ، وهذه اللام هي لام المفعول له ، و تكون داخلة على علة وقوع الفعل والسبب الفعل فكان هذا أغلب وأقوى^(٢))).

يلاحظ أن السيرافي قد ذكر علتين ، الأولى : علة ترك الألف في المثني المنصوب ، والأخرى : علة دخول اللام في " ليكون " حيث يوظف التعليل هنا لزيادة الفهم فيكون في منع استعمال الألف غاية ، وفي دخول اللام على الفعل غاية ، يختل المعنى بإثبات غيرهما ، الأمر الذي يبرز البعد الوظيفي للتعليل في بناء الحجة النحوية .

ونخلص مما تقدم أن البعد الوظيفي لم يكن غائباً عن التفكير النحوي العربي ، إذ تجلّى في بناء الكثير من المصطلحات والحدود النحوية التي نظرت إلى الظواهر

(١) قال تعالى : ﴿يُنِيبُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ أي كراهة أن تضلوا ، (النساء : ١٧٦)

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٣٧ .

اللغوية من خلال وظائفها وأدوارها داخل التركيب^(١) , كما تجلّى في تفسير الأحكام النحوية وتفعيدها وتوجيهها , ويأتي شرح السيرافي لكتاب سيبويه شاهداً واضحاً على هذا التوجّه , فقد راعى في كثير من توجيهاته قصد المتكلّم , وحال المخاطب والسياق والإعراب والتعليل بوصفها , عناصر مؤثّرة في بناء المعنى وتحقيق الفائدة , ويكشف هذا عن تقاطع واضح بين هذه المعالجات النحوية وما تذهب إليه النظريّات في تحليل الخطاب , من حيث اعتمادها على الآليّات الإجرائيّة في فهم اللغة داخل سياقها الاستعماليّ , ومن ثمّ فإنّ اختيار هذا المصّمار (شرح السيرافي على كتاب سيبويه) مدخلاً مناسباً لدراسة هذه الأبعاد , وهو ما ستبيّنه الفصول اللاحقة إن شاء الله .

(١) ينظر : الحدود الوظيفيّة في شروح التسهيل لابن مالك - وظيفة الاسناد انموذجاً - , أ.د. لمى عبد القادر الابراهيميّ , و فاضل هادي شناوة , بحث منشور : ١٠٣-١٠٤ .

الفصل الأول

الوظائف اللغوية والأسس البنائية

توطئة

المبحث الأول : الكلام وما يتألف منه

المبحث الثاني : العدول النحوي

توطئة :

إنَّ الأسس البنائية التي نسعى إلى مقاربتها في الفكر النحوي عند السيرافي تتطلق من اعتمادٍ أساسه البحث في الركائز المشكلة للمسئمة النحوية العامة عنده , بوصفها أساساً بنائياً لنظره النحوي لحظة التعاطي مع الظاهرة الكلامية من جهة , وشرحه لكتاب سيبويه من جهة أخرى ؛ الأمر الذي يفضي إلى السؤال عن موقع الوظائف اللغوية في الأسس البنائية المشكلة للمسئمة العامة التي اتخذها أساساً نظرياً وإجرائياً في فكره النحوي ؛ ومن ثمَّ محاولته ضبط القيمة الحقيقية لموقع الوظائف اللغوية وتجلياتها عند السيرافي .

وقد لا أذيع سرّاً إن قُلْتُ بصعوبة الإلمام بالأسس المشكلة للنظر النحوي عند السيرافي^(١) , ولكن ما يمكن الإمساك به - على الأقل - مناظرته الشهيرة مع أبي بشر متى بن يونس (ت٣٢٨هـ) ؛ فهي تُظهر جانباً كبيراً من فكره النحوي بقوله : ((معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته , وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها , وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك , وإن زاغ شيء عن هذا النعت , فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد , أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم

(١) يشيء السيرافي بانتمائه إلى تخصصات وعلوم معرفية أخرى يصعب معها الحزم بركائز فكرها النحوي ؛ قال ياقوت الحموي عنه : ((السيرافي شيخُ الشيوخ , وإمام الأئمة معرفةً بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والحديث والكلام والحساب والهندسة)) , معجم الأدباء : ٨٧٨/٢ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الجارية على فطرتهم))^(١).

يكشف لنا هذا النص عن جانب مهم في المسلّمة النحويّة المؤسّسة للنظر النحوي عند السيرافي ؛ فمع إقراره بحاكميّة القاعدة النحويّة إلا أنّها -أي القاعدة- تبقى متصلة بوظيفتها اللغويّة المرتبطة بما جرت عليه عادة القوم عند استعمالهم للغة ؛ بل إنّ الخروج على القاعدة النحويّة عند السيرافي إمّا أن يكون سائغاً في التّواصل الاجتماعي الذي جرت عليه أعراف الجماعة اللغويّة ، أو مردوداً لخروجه عنها .

تأسيّاً على هذا يمكن القول إنّ المسلّمة النحويّة لنظر السيرافي قد اعتمدت على أساسين بنائيين ، الأوّل : حاكميّة القاعدة النحويّة ، وهدفها : ((توحيّ الصواب من ذلك وتجنّب الخطأ من ذلك))^(٢) ، والثانية حاكميّة الوظائف اللغويّة في بعدها التواصليّ كما تجري بين المجتمعات اللغويّة وفقاً لأعرافهم في استعمال اللغة ، وهدفها : ردّ ما خرج ((عن عادة القوم الجارية على فطرتهم))^(٣) .

ومن ثمّ سيسعى هذا الفصل إلى الكشف عن أثر الوظائف اللغويّة في الأساس البنائي الثاني المشكّل لنظر السيرافيّ البنائي النحويّ من زاويتين اثنتين ، هما :

أولاً : الزاوية النظرية للكلام بوصفه مُعطى مُدرّكاً بالعقل التحليلي ، المقتضي للبحث في المكوّنات المؤلّفة له عند السيرافيّ بما رقّنه فهماً عن سيّوبه .

(١) في التّدوّق الجمالي لمناظرة أبي سعيد السيرافيّ وأبي بشر متى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفضل بن جعفر بن فرات سنة ٣٢٦ هـ ، محمد علي أبو حمرة : ٦٢ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ثانيًا : الزاوية العملية للكلام بوصفه معطًى مُدرِّكًا بالحس لملايسات الكلام التَّواصلية ، بما تقتضيه هذه الملايسات من استعمالات تُعدل بالكلام المنجز عن صورته النظرية .

المبحث الأول : الكلام وما يتألف منه

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

تتوّعت آراء النُّحاة المتأخّرين في تعريفهم مصطلح الكلام ، إلا أنّهم أجمعوا على جعل مفهوم الفائدة التي يحسن السكوت عليها فصلاً أساسياً لحدّه ذهنيّاً بوصفه مفهوماً، وواقعاً بوصفه مصداقاً ؛ ومن ثمّ جمعه ومنعه احترازاً له من التّدخل مع مصطلحي الجملة والقول ، حتّى أصبحت الفائدة هويّةً للكلام ؛ إذ لا كلام بلا فائدة، كما لا فائدة بلا كلام^(١) .

إنّ توثيق العلاقة بين الكلام والفائدة عند النُّحاة المتأخّرين لم تكن من عندهم، فقد سبقهم إلى ذلك سيبويه ، بل إنّ هذه العلاقة من المفاهيم الأساسية الأصلية في كتابه ؛ إذ قال: ((واعلم أنّ قلّت)) إنّما وقعت في كلام العرب على أنّ يُحكى بها ، وإنّما تحكي بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً))^(٢) فالكلام يختلف عند سيبويه عن القول في أنّه لا يطلق إلا على الخبر المحكي المفيد ، خلافاً للقول الذي يشمل ما يُحكى وما لا يُحكى ، ومن ذلك أيضاً تفريق سيبويه بين الاسم والفعل ، وفي أنّه لا يجوز أن يحلّ أحدهما محلّ الآخر ، محتجاً لذلك بقوله : ((ألا ترى أنّك لو قلّت : أنّ يضرب يأتينا ، وأشباه هذا ، لم يكن كلاماً))^(٣) ؛ هكذا أصل النُّحاة بعد سيبويه

(١) ينظر : شرح الرُّضيّ على كافية ابن الحاجب ، تحقيق : يوسف حسن عمر : ٨/١ ، و الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، د. فاضل صالح السامرائي : ١٠-١١ .

(٢) كتاب سيبويه : ١٢٢/١ .

(٣) كتاب سيبويه : ١٤/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الكلام في أصل وضعه بمقولة ابن السراج (٣١٦هـ) : ((وأصل الكلام موضوعٌ لفائدة))^(١) .

ولمّا صار الكلام موضوعاً لعلم النحو فالنتيجة تقتضي - بالضرورة - أنّ خلوه من فائدة المخاطب تعني عدم صلاحه ليكون موضوعاً , بل يعدم وجود النحو أساساً؛ فهو سالبٌ بانتفاء الموضوع كما يعبر عن ذلك في علم المنطق^(٢), وهذا ما فهمه سيبويه , والنُّحاة من بعده وعلى رأسهم السيرافي , بل إنّ سيبويه ومن بعده السيرافي قد كوّنوا الكلام من أربعة مكوّنات تهدف إلى خروج الكلام من صورته النظرية إلى صورته المنجزة في العملية التخاطبية بحيث يتركّب الكلام من هذه المكوّنات الأربعة لتحقيق فائدة المخاطب , وهذه المكوّنات هي : المكوّن المعجمي, والمكوّن الاسنادي, والمكوّن الدلالي, والمكوّن التواصلي , فأما المكوّن المعجمي ففي ((باب علم ما الكلم من العربية))^(٣) , ثمّ المكوّن الاسنادي في ((باب المسند والمسند إليه))^(٤) , ثمّ المكوّن الدلالي في ((باب اللفظ للمعاني))^(٥) , انتهاءً بالمكوّن التواصلي في ((باب الاستقامة من الكلام والإحالة))^(٦) , والمتأمل لترتيب الأبواب في كتاب سيبويه يلحظ أنّ المكوّن التواصلي يمثّل معياراً لما أنجزته المكوّنات الثلاثة السابقة .

(١) الأصول في النحو : ٦٦/١ .

(٢) ينظر : نظرية الفائدة في الفكر النحوي العربي , د. سعيد عبد الحسين فرج الله , بحث منشور : ١٣٩ .

(٣) كتاب سيبويه : ١٢/١ .

(٤) نفسه : ٢٣/١ .

(٥) نفسه : ٢٤/١ .

(٦) نفسه : ٢٥/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

إنَّ اللافت للنظر أنَّ سيبويه قد ذكرَ هذه المكوّنات الأربعة في مقدّمة الكتاب , هذه المقدّمة التي وصفها الدكتور خالد ميلاد في كتابه (الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة) بأنّها تمثّل المفاهيم النظرية الأساسية والمقولات المجردة التي سيتناولها سيبويه في بقية أبواب الكتاب^(١) , وفيما نزعُ من هذا المبحث أنَّ السّيرافيّ هو الشّارح الوحيد الذي نظرَ إلى مقدّمة الكتاب نظرةً وظيفيّة , تنظرُ إلى بناء الكلام وفقًا لوظائف اللغة, وعلى رأسها الوظيفة الإبلagiّة القائمة على أساس فائدة المخاطب, ونستدلُّ على ذلك من فهم السّيرافيّ لنصّ سيبويه من جهة , ومن ردّه اعتراضات المعترض من جهة أخرى كون هذه الأبواب قد دبّ فيها أمران , الأوّل : عدم تحرّي الدقّة في النّقل والفهم عن سيبويه , والآخر : الخلاف بين النّحاة الذين جاؤوا بعد سيبويه.

أولاً : المكوّن المعجمي :

ذكرَ سيبويه المكوّن المعجميّ في حدّّ الكلم في ((باب علم ما الكلم من العربية فالكلم : اسمٌ , وفعلٌ , وحرفٌ جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل))^(٢) , ثمّ شرع سيبويه بتعريف كلّ قسم من أقسام الكلم على حدة , ف ((الاسم : رجلٌ , وفرسٌ , وحائط . وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء , وبُنيت لما مضى , ولما يكون ولم يقع , وما هو كائنٌ لم ينقطع ... وأمّا ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل فنحو : ثمّ ,

(١) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة , خالد ميلاد : ٥٢ .

(٢) كتاب سيبويه : ١٢/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

وسوفَ , و واو القسم ولام الإضافة , ونحوهما ((^(١)) , والمتأمل في هذا الباب يلحظ الآتي :

(١) أن سيبويه قد عرّف الكلم بذكر أقسامه^(٢) , وهي : الاسم , والفعل , والحرف , ثم عرّف كل قسم من هذه الأقسام مرةً بالمثل^(٣) كما عرّف الاسم , ومرةً بالخاصة , والمثال كما عرّف الفعل والاسم^(٤) .

(٢) ذكر سيبويه أقسام الكلم بوصفها وحدات معجمية قبل دخولها في علاقات تركيبية بشكل يومي إلى تجريد كل قسم منها على حدة^(٥) , أي قبل أن تتألف فيما بينها بعلاقات عضوية لتشكّل التراكيب اللغوية المنتجة للكلام .

إنّ حدّ سيبويه لمصطلح الكلم على أنّه : اسمٌ , وفعل , وحرف وضعه النّحاة من بعده حدًّا لمصطلح الكلام ؛ قال المبرّد (ت ٢٨٥هـ) : ((فالكلام كلّ : اسم , وفعل , وحرف جاء لمعنى))^(٦) .

(١) كتاب سيبويه : ١٢/١ .

(٢) التعريف بالقسمة : هو التعريف بذكر أقسام الشيء المعرّف , وهو من أنواع التّعريف بالرسم الناقص (المنطق , الشيخ محمد رضا المظفر : ١١٥ , و خلاصة المنطق , الشيخ عبد الهادي الفضلي : ١١٦) .

(٣) التعريف بالمثل : وهو التعريف بذكر مصداق من مصاديق الشيء المعرّف , وهو من أنواع التعريف بالرسم التام (المنطق : ١١٦ , و خلاصة المنطق : ١١٥) .

(٤) التعريف بالخاصة : وهو التعريف ما تعرض جميع أفراد الحقيقة الواحدة كالضاحك بالنسبة للإنسان , وهو من أنواع التعريف بالحدّ الكامل (المنطق : ١١٦ , و خلاصة المنطق : ١١٥) .

(٥) اللغة العربية معناها ومبناها , د. تمام حسّان : ٣٩ .

(٦) المقتضب , المبرّد , تحقيق : محمد عبد الخالق عزيمة : ٣/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

والى مثله ذهب ابنُ السَّرَّاج^(١)، وأبو عليّ الفارسيّ (ت ٣٧٧هـ)^(٢)، وتبعهم في ذلك جميعُ النُّحاة المتأخّرين ؛ فقد ذكر الزَّجَاجيّ في باب (أقسام الكلام) : ((فأول ما نذكر من ذلك إجماع النحويّين على أنّ الكلام اسم وفعل وحرف . وحقق القول بذلك وسطّره في كتاب سيبويه ، والنَّاس بعده غير منكرين عليه ذلك ... وإنّما ذكره سيبويه في أوّل كتابه حين قال الكلام : اسم ، وفعل ، وحرف جاء لمعنى))^(٣) .

هكذا يتّضح أنّ النُّحاة بعد سيبويه قد تساهلوا مع مصطلح (الكلم) على مستوى النّقل ؛ فلم يجدوا فرقاً بينه وبين مصطلح الكلام ، خلافاً للسّيرافيّ ؛ إذ قال : ((وأما "الكلم" فقد يسأل السائل فيقول : لَمْ لَمْ يقلْ : الكلام ...؟ الجواب أنّ الكلام يقع على القليل والكثير ، و الواحد و الاثنين والجمع ، والكلمُ : جماعة كلمة ، كما تقول : خِلفَة وخلف و خِربة و خِربُ، وإنّما أراد سيبويه أن يبيّن الاسم والفعل والحرف ، وهي جمع فأراد أن يعبرَ عنها بأشكال الألفاظ بها وأشبهها بحقيقتها))^(٤).

يتّضح من هذا النصّ الآتي :

١- إنّ تفريق السّيرافيّ بين مصطلحي (الكلم) و (الكلام) قائمٌ على أنّ الكلام

(١) ينظر : الأصول في النُّحو : ٣٦/١ .

(٢) ينظر : الإيضاح ، أبو عليّ الفارسيّ (النحويّ) ، تحقيق : الدكتور كاظم بحر المرجان : ٧١ .

(٣) الإيضاح في علل النُّحو : ٤١ ، و الجمل في النُّحو ، أبو القاسم الزّجّاجي ، تحقيق : د. علي توفيق الحمد : ١ .

(٤) شرح كتاب سيبويه ، السّيرافيّ : ١١/١ - ١٢ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

فعلٌ إنجازيٌّ يتمثل في اجتماع أقسام الكلم عند الاستعمال ؛ لذا قال : (أنَّ الكلام يقع على القليل، والكثير ، والواحد ، والاثنين ، والجمع) أمَّا (الكلم) فيتمثل في عدم دخول أقسامه : الاسم والفعل والحرف في علاقات تركيبية مؤلفة للكلام .

٢- الكلم اسم جنس جمعي واحده (كلمة) وقصد سيبويه بحسب فهم السيرافي الاقسام التي تنقسم عليها الكلمة ، وهي في حالة جمع كل قسم منها على حدة ، ولم يُرد ما يتألف منه الكلام ؛ لذلك قال : (وإنما أراد سيبويه أن يُبين الاسم والفعل والحرف ، وهي جمع ، فأراد أن يعبر عنها بأشكال الألفاظ بها وأشبهها بحقيقتها) .

٣- إنَّ مذكره سيبويه بحسب فهم السيرافي منقسم على ثلاثة : اسم وفعل وحرف ، جعله النحاة مؤتلفاً من ثلاثة .

وبهذا يتضح أنَّ سيبويه أراد بمصطلح (الكلم) أن يحدّد أنواع الكلمة بوصفها مكونات معجمية مجردة كل قسم منها على حدة ، من الأسماء والأفعال والحروف ، قبل دخولها في علاقة عضوية ينتج بسببها تركيباً كلامياً .

ثانياً : المكوّن الاسنادي:

ذكر سيبويه المكوّن الاسنادي في (باب المسند والمسند إليه) بقوله : ((هذا باب المسند والمسند إليه وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر ، ولا يجد المتكلم منه بدءاً فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه . وهو قولك : عبدُ الله أخوك : وهذا أخوك ومثل

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ذلك يذهبُ عبد الله , فلا بدَّ للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأوَّل بدُّ من الآخر
في الابتداء))^(١) .

يكشفُ لنا نصُّ سيبويه عن أمرين ؛ الأوَّل: إنَّ اختيار هذين المصطلحين
أعني-المسند والمسند إليه- إشارة واضحة إلى وظيفتهما اللغوية , وهي وظيفة تركيبية
تهدف إلى تأليف الكلام بتركيبه الاسميِّ المكوَّن من مبتدأ وخبر , وتركيبه الفعلي
المكوَّن من فعل وفاعل^(٢) .

والآخر : أنَّ الاسناد علاقة رابطة للمكوّنات المعجمية التي يستحيل تحوُّلها إلى
كلام دون وقوع أحد هذه المكوّنات في موقع المسند و الآخر في موقع المسند إليه
(وهما ما لا يُعني واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلِّم منه بُدًّا) , فالفعل مسندٌ على
وجه الدوام ولا يكون إلَّا كذلك, والمسند من الاسماء هو خبر المبتدأ وما أصله كذلك,
والمسند إليه هو المبتدأ والفاعل ونائبه^(٣) .

وقد نهج النُّحاة في تأليف الكلام وتركيبه من مسند ومسند إليه على ما خطَّه
سيبويه , ومن ثمَّ أجمعوا على أنَّ ((الكلام لا يتأتَّى إلَّا من اسمين أو من اسم وفعل
فلا يتأتَّى من فعلين ولا من حرفين ولا اسم وحرف ولا فعل وحرف ولا كلمة واحدة لأنَّ
الإفادة إنَّما تحصل بالإسناد وهو لا بدَّ له من طرفين : مسند ومسند إليه والاسم

(١) كتاب سيبويه : ٢٣/١ .

(٢) ينظر : المنحى الوظيفي في رسالة سيبويه , د. دليلة مزور , بحث منشور : ٦ .

(٣) ينظر : الجملة العربية تأليفها وأقسامها : ١٤ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

بحسب الوضع يصلح أن يكون مسنداً ومسنداً إليه والفعل بكونه مسنداً لا مسنداً إليه والحرف لا يصلح لأحدهما ((^(١)).

أمّا السيرافي فقد شرح (باب المسند والمسند إليه) شرحاً وظيفياً , يبتعد عن النظر إليهما بوصفهما عنصرين مجردين عن عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب ؛ فالسيرافي قرأ المسند والمسند إليه قراءةً وظيفيةً , بوصفهما عنصرين يصدران عن متكلم ينطلق في إنشاء كلامه من قاعدة أساسية عمادها مراعاة الوظيفة الإبلاغية للمخاطب .

قال السيرافي : ((أمّا قوله : (المسند والمسند إليه) ففيه أربعة أوجه أجودها وأرضاها , أن يكون (المسند) معناه (الحديث) و(الخبر) و(المسند إليه) المحدث عنه , وذلك على وجهين : فاعل وفعل :كقولك : (قام زيد) و (ينطلق عمرو) واسم وخبر ؛ كقولك (زيد قائم) و (إن عمراً منطلقاً) , فالفعل حديث عن الفاعل , والخبر حديث عن الاسم , والمسند إليه هو الفاعل , وهو الاسم المُخبر عنه , وإنّما كان المسند الحديث , والمسند إليه المحدث عنه , كقولنا في الحديث الذي يُحدثُ به عن النبيّ (ص) هذا الحديث مُسندٌ إلى رسول الله (ص) فالحديث هو المسند ورسول الله هو (المسند إليه))^(٢) .

(١) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع , جلال الدين السيوطي , تحقيق : د. عبد العال سالم مكرم : ٥٢/١ ,

وينظر : معاني القرآن , الفراء : ٧٩١١ , وينظر : شرح الرضي على الكافية : ٧/١ - ٨ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٧٣/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

يفهم من نصّ السّيرافي أنّ الاسناد قائم على وظيفتين , هما :

١- الوظيفة الإحاليّة : وهي وظيفة (المسند إليه) بوصفه (المحدّث عنه) ؛ فهو لا يكون إلّا اسمًا مرفوعًا (مبتدأ أو فاعل) ؛ فهو المكوّن المعجمي الذي يدور حوله الكلام بين المتكلّم والمخاطب , وهو ماعبر عنه أصحاب النّحو الوظيفي ب (المحور), فهو الطرف الذي يتمحور حوله التواصل بين المتكلّم والمخاطب ؛ ولابدّ أن يكون معروفًا / معلومًا لطرفي الخطاب , والذي يعرف على أنّه : المكوّن الذي يدور عليه فلك الحديث بين أطراف العمليّة التّواصلية^(١).

٢- الوظيفة الإخباريّة : وهي وظيفة (المسند) بعده (الحدث) , فهو لا يكون إلّا فعلاً في التركيب الفعلي , ولا يكون إلّا خبرًا في التركيب الاسمي ؛ فهو المكوّن المعجمي الحامل للمعلومة الجديدة / المجهولة التي يريد المتكلّم اخبارها للمُخاطب وفقًا لما ينتظره , وهو ماعبر عنه أصحاب النّحو الوظيفي ب (البؤرة) وتعرف بأنّها: المكوّن الحامل للمعلومة الجديدة التي يجهلها المخاطب^(٢) .

ثمّ تجتمع في العمليّة التّواصلية كلا الوظيفتين (الإحاليّة - والإخباريّة) في علاقة إسناديّة ؛ لتحقيق الوظيفة النهائيّة للكلام , أوهي الوظيفة الأساسيّة للكلام , ألا وهي

(١) ينظر: الوظائف التّداوليّة في اللغة العربيّة , د. أحمد المتوكّل : ٢٨ , و دراسات في اللسانيّات العربيّة , د. عبد

الحميد مصطفى السيّد : ١٢٦ , والدلالة والنّحو , د. صلاح الدين صالح حسن : ١٩٨ .

(٢) ينظر : الوظائف التّداوليّة في اللغة العربيّة : ٦٩ , ودراسات في اللسانيّات العربيّة : ١٤٦ , والدلالة والنحو :

١٩٦.

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الوظيفة الإبلاغية بكلام يتكوّن من مسندٍ (الحديث) ، ومسند إليه (المحدّث عنه) ، ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي :

المكوّن المعجمي	نوعه	المكوّن الاسنادي	نوعه	الوظيفة	الفائدة
ينطلق	فعل	مسند	حديث	إخبارية	ينطلق عمرو
عمرو	فاعل	مسند إليه	محدّث عنه	إحالية	
زيد	مبتدأ	مسند إليه	محدّث عنه	إحالية	زيد قائم
قائم	خبر	مسند	حديث	إخباري	

ثالثاً : المكوّن الدلالي :

ذكر سيبويه المكوّن الدلالي في (باب اللفظ للمعاني) ؛ بقوله : ((اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتّفاق اللفظين و اختلاف المعنيين ، وسترى ذلك إن شاء الله تعالى))^(١).

(١) كتاب سيبويه : ٢٤/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

إنّ ذكر سيبويه لهذا الباب الدلاليّ بعد باب الاسناد مباشرة يؤشّر إلى أنّ إسناد العناصر المعجميّة بعضها إلى بعض لا ينفك عن معطيات الدلالة الناتجة من المكوّن المعجمي للمفردة الواحدة من جهة ، وبدخولها في علاقة إسناديّة مع المكوّنات الأخرى من جهة أخرى ؛ لذا وَجَدَ السّيرافيّ أنّ سبب إيراد سيبويه وقصده من هذا الباب في كتابه هو التماس الفوارق اللغويّة للمكوّنات المعجميّة بمفردها ، بقوله : ((الذي قصده سيبويه على ما يتوجّه القول على صحّته - والله أعلم- أنّه أراد الإبانة عن هذا المعنى بعينه))^(١) ؛ فالفوارق اللغويّة كالترادف نحو: السيف ، المهند ، الحسام ، والمشارك اللفظيّ نحو : عين الماء ، عين الشّمس ، عين السحاب ، والأضداد نحو : الأبيض والأسود ، العظيم والحقير^(٢) لها أثر كبير على العلاقة الإسناديّة ؛ ذلك أنّها علاقة قائمة على المعنى ؛ ومن ثمّ قال السّيرافيّ: ((لأنّ الكلام يوضع كلّ كلمة منه تدلّ على معنى ، ثمّ تُركّب فيقترب بعضها ببعض ، فيقع بها الفوائد المستفادة باقترانها وإن كانت كلّ واحدة منها قد دلّت على معنى بعينه))^(٣) .

ومعنى ماتقدّم أنّ وظيفة المكوّن الدلاليّ عند السّيرافيّ قائمة على الملاءمة بين المكوّنات المعجميّة لحظة دخولها في علاقة اسناديّة ؛ ذلك أنّ بعض المكوّنات المعجميّة صالحة للتعبير عن أكثر من معنى كما في المشترك اللفظيّ ، وبعضها الآخر صالح للإشارة إلى معنى واحد كما في التّرادف ، وبعضهم يدخل في علاقة

(١) شرح كتاب سيبويه ، السّيرافيّ : ١٧٨/١ .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، د. فايز الداية : ٧٧ - ٧٨ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السّيرافيّ : ١٧٥/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ضديةً يستحيل الجمع بينها في تركيب واحد ، ومن ثمَّ فإنَّ هذه الفوارق اللغوية لابدَّ من أخذها بعين الاعتبار عند اسناد المكونات المعجمية بعضها إلى بعض ؛ لأنَّها قد تؤدي إلى انتفاء الفائدة لانعدام الملازمة بين المكونات المعجمية المسندة .

رابعاً : المكوّن التواصليّ :

إنَّ التَّواصل هو مأوى الكلام ؛ فلا يمكن للكلام أن يتمثَّل واقعياً إلا في ضوء عملية تواصلية تجري بين متكلِّم ومُخاطب ؛ ومن ثمَّ فليس مجازاً القول : إنَّ التَّواصل هو مأوى الكلام وحقيقته ، فهو معيار صحَّته ومقياس حُسنه ، وبهذا سنلحظ سيبويه في ((باب الاستقامة من الكلام والإحالة))^(١) يقتفي تمثُّلات الكلام في أبعاده التواصلية، عبرَ كُلِّ تكهُّن لملفوظاته ؛ لينقل الكلام من حدوده الشكلية والتركيبية الضيقة إلى حدودٍ أوسع في شكله التواصليّ ؛ إذ يزعمُ هذا البحث أنَّ (باب الاستقامة من الكلام والإحالة)؛يمثِّلُ محاولة سيبويه وضع الكلام في حيِّزه التواصليّ ؛ وهكذا يكون للمكوّن التواصليّ وظيفة أساسية عند سيبويه ، تقوم على إحضار الكلام في شكله الواقعيّ ، وبهذا الإحضار يكون المكوّن التواصلي ذا وظيفة معيارية عند سيبويه ، على تكهُّنات الكلام المنجز من قبل المتكلِّم ، الذي لا يحترز من شيء بقدر احترازه من مخاطب يُريد تحقيق الإبلاغ ، الإخبار ، الإفهام له ، ونستدلُّ على زعم هذا البحث من فهم السيرافي لهذا الباب .

(١) كتاب سيبويه : ٢٥١١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

فقد قسم سيبويه الكلام على خمسة أضرب ، بقوله : ((فمنه مستقيم حسن ، ومحال ، ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح ، وما هو محال كذب))^(١) ولنُسجّل أولاً إننا أمام نظرية نحوية تواصلية ، تقوم على تفسير دور المتكلم ومقاصده ، ودور المخاطب في فهم المعنى وتأويله ، ونوع السياق الذي تتم فيه العملية التواصلية .

((فأما المستقيم الحسن فقولك أتيتك أمس وسأتيك غداً))^(٢) ، وعلّق السيرافي على هذا بقوله : ((وهذا كما قال ؛ لأنّ ظاهره مستقيم اللفظ ، والاعراب غير دال على كذب قائله ، وكذلك كلُّ كلام تكلم به متكلم ، فأمكن أن يكون على ما قال ، ولم يكن في لفظه خللٌ من جهة اللغة والنحو ، فهو كلام مستقيم في الظاهر ، وقد تبين في مثل هذا أنّ قائله كاذب فيما قال ، فتحكم على كلامه أنّه كذبٌ غير مستقيم من حيث كان كذباً ، إلا أنّه مستقيم اللفظ))^(٣).

يفهم من هذا النص أنّ مصطلح الاستقامة عند السيرافي على نوعين ، هما :

١- الاستقامة الظاهرة : وهي التي ينحو فيها المتكلم عند إنشاء كلامه منحا القاعدة النحوية من حيث اللفظ والمعنى ؛ فيكون كلامه مستقيماً على مستوى الظاهر ، أي على مستوى المكوّن الإسنادي والمكوّن الدلالي ، وهذا معنى قوله : (أكلُّ كلام تكلم به متكلم، فأمكن أن يكون على ما قال ، ولم يكن في لفظه خلل من جهة اللغة والنحو ، فهو كلامٌ مستقيمٌ في الظاهر) .

(١) كتاب سيبويه : ٢٥/١ .

(٢) نفسه .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٨٦/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

٢- الاستقامة التَّوَصِّلِيَّة : وهي التي ينحو فيها المتكلِّم عند إنشاء كلامه منحي السِّياق الخارجي للعملية التَّحَاوِرِيَّة من حيث مطابقة كلامه للواقع الخارجي، وفقاً لمعرفة المخاطب بهذا الواقع ، التي ستحكم على كلام المتكلِّم بالاستقامة إن كان صادقاً لمطابقته السياق الخارجي ، أو غير مستقيم إن كان كاذباً لعدم مُطابقته السِّياق الخارجي ؛ ومن ثمَّ يمكن القول إنَّ استقامة الكلام ظاهراً على مستويي المكوّن الاسنادي والدلالي غير كافية عند السيرافي للحكم على الكلام بأنَّه مستقيم ومحقق لفائدة المخاطب ؛ بل أنَّ الاستقامة عنده تتعدَّى ذلك لتصل إلى المكوّن التواصلي ، ففائدة المخاطب عند السيرافي تتحقق بمطابقة كلام المتكلِّم لمكوّنات الكلام مجتمعة وعلى رأسها المكوّن لتواصلي ، وهذا معنى قوله : (لم يكن في لفظه خللٌ من جهة اللغة والنحو ، فهو كلامٌ مستقيم في الظاهر ، وقد تبَيَّن في مثلِ هذا أنَّ قائله كاذبٌ فيما قال ، فتحكم على كلامه أنَّه كاذبٌ غير مستقيم من حيث المعنى) .

((أمّا المحال فإن تنقض أوّل كلامك بآخره فنقول : أتيتك غداً وسأتيك أمس))^(١)، واضحٌ أننا في المحال أمام مُستعملٍ للغة لا يمتلك أدنى معرفة بكيفيّتها الدلاليّة؛ فأسندَ مكوّنات معجميّة متناقضة من جهة الزمن ، الأمر الذي أدّى بالمكوّن الدلاليّ إلى التناقض ؛ ومن ثمَّ أُحيلت هذه التراكيب اللغويّة عند الاستقامة التي تتحقق بها فائدة المخاطب ، وما خرجَ عن الاستقامة لا يمكن وصفه بالكلام ؛ ولعلّ هذا يفسّر سبب تسمية سيبويه لهذا الباب بـ (باب الاستقامة في الكلام والاحالة)؛ فالواو في هذا الباب هي واو استثنائيّة وليست عاطفة ؛ حتّى لا يوصف المحال

(١) كتاب سيبويه : ٢٥١١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

بصفة الكلام الذي تقتضي الاستقامة في المكونات المكوّنة للكلام بدءًا من المكوّن المعجميّ ثمّ الاسناديّ والدلاليّ انتهاءً بالمكوّن التّوصليّ - كما مرّ قبل قليل - إلا أنّ اللافت للنظر وصف السّيرافيّ للمحال على أنّه كلامٌ , بقوله : ((فهذا كلامٌ محال ومعنى المحال أنّه أُحيلَ عن وجه المستقيم , الذي به يُفهّمُ المعنى إذا تُكلّمَ به))^(١) , ثمّ يوضّح السّيرافيّ سبب وصفه للمحال على أنّه كلامٌ بقوله : ((المُحال هو الكلام الذي يوجب اجتماعات المُضادّات , وقولنا أنّ القعود والقيام اجتماعهما مُحال , إنّما نريدُ به الكلام الذي يوجب اجتماعهما مُحال , قد أُحيلَ عن وجهه , ألا ترى أنّك تقول لمن تكلّمَ به : قد أحلتَ في كلامك , فالكلام هو المحال , كما أنّ الكلام هو الكذب))^(٢) .

يظهر أنّ السّيرافيّ يفرّق بين المحال في الواقع الخارجيّ بوصفه مصداقًا لا يوجد له تحقّق في العالم الخارجيّ , وبين المحال في الكلام الذي يمكن تحقّقه , لأنّ تناقض كلام المتكلّم ليس بمحال , ويستدلّ على ذلك من خلال البعد التّوصليّ عن طريق المثال الذي ذكره لكلام المتكلّم بالمحال , وجواب المخاطب له بأنّه قد أحال في كلامه - أي تناقض - فكما يكون الكلام صادقًا وكاذبًا يكون - أيضًا - محالًا وغير مُحال , ومن ثمّ يكون المحال كلامًا استفاد منه المخاطب تناقض المتكلّم في كلامه , كما كان المستقيم على مستوى الظاهر كلامًا استفاد منه المُخاطب كذب المتكلّم .

(١) شرح كتاب سيبويه , السّيرافيّ : ١٨٦/١ .

(٢) نفسه .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

((أمّا المستقيم الكذب فقولك : حملتُ الجبل , وشربتُ ماء البحر , ونحوه))^(١), قال السيرافي : ((وإثماً خُصَّ (حملتُ الجبل) بالكذب ؛ لأنَّ ظاهرهما يدلُّ على كذب قائلهما قبل التصفُّح والبحث))^(٢) , فهذا الضرب من الكلام مستقيمٌ من حيث المكوّن الاسنادي والمكوّن الدلالي , لكنّه غير مستقيم من حيث المكوّن التواصلّي ؛ لأنّه كلامٌ لا يحتمل الصدق مطلقاً ؛ لاستحالة وجود شخص قادر على حمل الجبل أو شرب ماء البحر .

((وأمّا المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه , نحو قولك : قد زيداً رأيت , وكي زيداً يأتيك , وأشباه هذا))^(٣) إنّ وجه القبح في هذا النوع من الكلام راجعٌ إلى المكوّن الاسنادي وعدم مراعاة قواعد النحو , فحكم (قد) و (كي) أن يليها (الفعل) وليس الاسم ؛ فقبح الكلام لذلك .

إلا إنّ السيرافي يوردُ اعتراضاً على وصف سيبويه لهذا الضرب بالمستقيم على الرغم من عدم مراعاة القاعدة النحويّة , بقوله : ((فإن قال قائل : كيف جاز أن يسمّيه مستقيماً قبيحاً ؟ وهل هذا إلّا بمنزلة قوله : حسنٌ قبيح ؛ لأنّ المستقيم هو الحسن))^(٤) , ثمّ يردُّ السيرافي على هذا الاعتراض بقوله : ((فإن الجواب في ذلك أنّ الكلام ينقسمُ قسمين : كلامٌ ملحون وكلامٌ غير ملحون ؛ فالملحون هو الذي لُحِنَ به

(١) كتاب سيبويه : ٢٦/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٨٦/١ .

(٣) كتاب سيبويه : ٢٦/١ .

(٤) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٨٧/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

عن القصد , وكذلك معنى اللحن , إنما هو العدول عن قصد الكلام إلى غيره , وما لم يكن ملحوظاً فهو على القصد , وعلى النحو ومن ذلك سميّ النحو نحواً , والمستقيم من طريق النحو هو ما كان على القصد سالمً من اللحن, فكان مستقيماً من هذه الجهة , وهو مع ذلك موضوعٌ في غير موضعه فكان قبيحاً من هذه الجهة^(١) يفهم من ردّ السيرافي أنّ الكلام عنده على نوعين , هما :

١- كلامٌ نحويٌّ ملحون : وهو الكلام الذي عدلَ فيه عن القصد , أي أنّ المتكلم عندما لم يتحرّى القواعد النحويّة أدّى ذلك إلى عدوله عن المعنى الذي قصدَ إيصاله إلى المُخاطب؛ أي أن خرق المتكلم لقواعد النحو في المكوّن الاسنادي أدّى إلى انتفاء المعنى في المكوّن الدلاليّ الأمر الذي أدّى إلى وصف هذا النوع من الكلام على أنّه أصيب بداء اللحن .

٢- كلامٌ نحويّ غير ملحون : وهو الكلام الذي أوصلَ المعنى الذي قصد المتكلم إفادة المخاطب به سواء راعى المتكلم القاعدة النحويّة أم خرقها , فمعنى النحو عند السيرافي هو القصد , فما كان على القصد فهو نحواً وما لم يكن فهو غير ذلك , ومن ثمّ يمكن القول إنّ المكوّن التواصلّي هو مكوّن حاكم على الكلام الذي هو موضوع علم النحو ؛ ذلك أنّ وظيفة النحو عند السيرافي هي وظيفة تواصلية بامتياز , قائمة على أساس المعنى الذي قصد المتكلم إبلاغه للمخاطب , بل إنّ جميع القواعد عند السيرافي سمّيت (نحواً) لأنّها تسهّل للمتكلم إنجاز الوظيفة التواصلية الأهم وهي

(١) نفسه .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

وظيفة الابلاغ وإفادة المخاطب , فالنحو عند السيرافي طريق يسلكه المتكلم لإيصال المعنى الذي يقصده إلى المخاطب , فهو ذو وظيفة تواصلية في المقام الأول والأخير.

((أما المحال الكذب فأن تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس))^(١) وفسر السيرافي هذا الضرب , بقوله : ((فهو محال كذب ؛ فأما استحالته ؛ فالاجتماع (سوف) و (أمس) , وهما يتناقضان ويتعاقبان , وأما الكذب فيه , فإننا لو أزلنا عنه (أمس) , الذي يوجب المناقضة والإحالة لبقى كذباً))^(٢) .

فهذا النوع من الكلام وُصِفَ بالإحالة لاجتماع متناقضين زمنيين هما حرف الاستقبال (سوف) وقرينة الماضي (أمس) , وهو كذب ؛ لأننا إن أزلنا القرينة الدالة على الماضي لبقى الكلام كاذباً ؛ لجهة استحالة وجود شخص قادر على شرب ماء البحر .

تأسيساً على ماتقدم يمكن القول إنَّ الكلام المحقق للفائدة عند سيبويه وفقاً لشرح السيرافي له مكونات تبدأ بالمكوّن المعجمي الذي يقوم بوظيفة البحث عن العناصر

المعجمية : أسماء وأفعال وحروف , ثم تنتقل إلى المكوّن الاسنادي الذي يسمح بدوره لهذه العناصر المعجمية بالدخول في علاقة تركيبية مضبوطة بمبدأ ملاءمة دلالات العناصر المعجمية في المكوّن الدلالي , وبعدها يعرض نتائج هذه المكونات الثلاثة

(١) كتاب سيبويه : ٢٦/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٨٧/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

على المكوّن التواصليّ الذي يقوم على رصد المتغيّرات التي تخصّ الكلام الناتج من المكوّنات الثلاثة السابقة ؛ ومن ثمّ يكون كلّ تغيير في شكل الكلام المنجز من المكوّنات الثلاثة مقبولا ما دامه يحقق الوظيفة التي رسدها المكوّن الرابع : المكوّن التواصليّ ألا وهي الوظيفة الإبلاغيّة التي تنصّ على تحقيق أكبر قدر من فائدة المخاطب في العمليّة التواصليّة ، فكلام من مثل : قد زيّد رأيت يكون مستقيماً وإن كان خارجاً عن مقتضيات القاعدة النحويّة ؛ الأمر الذي يقتضي أنّ كلّ خروج للكلام عن القاعدة النحويّة عند سيّويه ومن بعده السيرافيّ سيكون مقبولا شريطة تحقيق وظيفة الكلام التواصليّة ؛ ممّا سيدفع بنا في المبحث الثّاني من هذا الفصل إلى رصد خروج الكلام عن القاعدة النحويّة عند السيرافيّ ، وكيفيّة معالجته وفقاً لأركان العمليّة التواصليّة من متكلّم مدفوع تحت ضغط القصد وإيصال المعنى، ومخاطب له حال لابدّ من مراعاتها ، وسياق اجتماعي وفقاً لأعراف المجتمع في استعمال اللغة ، وسياق مادّي من مكان و زمان العمليّة التخاطبيّة ، فكلّ هذه الأركان التّواصليّة ستكون آليّات إجرائيّة يستعين بها السيرافيّ لمعالجة الكلام المعدول عن القاعدة ، بالقياس إلى وظيفة المكوّن التواصليّ القائمة على تحقيق القدر الأكبر من الفائدة الإبلاغيّة للمخاطب .

المبحث الثاني : العدول النحويّ :

عالج علماء العربية القدماء ظاهرة العدول النحوي من غير أن يجري المصطلح على ألسنتهم إلا في مواطن قليلة مبثوثة ، في كتبهم ، فعّد علماء العربية الخروج

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

عن الأصل عدولاً^(١) ، وليس المقصود من الأصل هنا منطلق النشأة و بدايتها بل هو : ((المقياس أو قل الشكل النظري المجرد الذي إليه تُردُّ الأمور وبه تقاس فتعرف وتصف))^(٢). وهو أيضاً : ((أولى حالات الحرف أو الكلمة قبل أن يطرأ عليها أيّ تغيير كان))^(٣).

وفرضت طبيعة العدول أن يكون هناك أصلاً افترضه النحاة عن طريق الاستقراء للكلمة والجملة ، وعدوا كلّ ما خرج عن هذا الأصل عدولاً عنه ، وقسم العدول على قسمين ، الأول : عدول عن أصل الكلمة من مثل وقوع الحال مصدراً ، والآخر : عدول عن أصل الجملة من مثل حذف أحد طرفي الإسناد أو التقديم والتأخير في الرتب النحوية^(٤) ، وعالج هذا المبحث بعضاً من الظواهر التي وُصِفَتْ بكونها خروجاً عن الأصل ، معالجةً وظيفية تواصلية تُبيّن أن هذا الخروج لم يكن سهواً ولا توهماً من المتكلم ؛ بل هو خروج يفيد أو يخدم أغراض و مقاصد المتكلم .

أولاً: التقديم والتأخير :

وصف عبد القاهر الجرجاني باب التقديم والتأخير على أنّه : ((بابٌ كثير الفوائد، جمُّ المحاسن ، واسع التصرف، بعيد الغاية ، لا يزال يفتّر لك عن بديعة،

(١) ينظر: الخصائص : ١٦٢/١ ، ٣٩٩ ، ٣ / ١٨٠ ، ١٨١ ، ٢٧٦ ، و دلائل الإعجاز : ٢٨٠ ، و أسرار البلاغة : ٣٦٥، ٣٤٢ ، و المثل السائر : ١ / ٧٤ .

(٢) أصول تحليل الخطاب ، محمد الشاوش : ١١٣٧ / ٢ .

(٣) معجم المصطلحات النحوية والصرفية ، الدكتور محمد سمير اللبدي : ١١ .

(٤) ينظر : العدول في الأسماء والأفعال ، خليل ابراهيم علاوي ، ٩-١٠ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه، ثم تنتظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدّم فيه شيء ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان))^(١).

يبين هذا الوصف أمرين ، الأول : ما أولاه النحاة و البلاغيون من عناية لهذا الباب تكشف عن وعيهم بما يُضيفه على المعاني من دقة وعلى العبارة من حسن، والآخر : أن التقديم والتأخير يعتمد على موقع الكلمة بالقياس على موقعها الإعرابي وفقاً لقاعدة الرتبة النحوية التي تمثل الأصل النحوي .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي من أوائل اللغويين الذين تطرّقوا لباب التقديم والتأخير بما نقله سيبويه في باب الابتداء بقوله : ((وزعم الخليل رحمه الله أنه يستقبح أن يقول قائم زيد ، وذلك إذا لم تجعل قائماً مقدماً مبنياً على المبتدأ ، كما تؤخّر وتقدّم فتقول : ضرب زيداً عمرو ، وعمرو على ضرب مرتفع . وكان الحد

أن يكون مُقدّماً ويكون زيد مؤخراً . و كذلك هذا ، الحدّ فيه أن يكون الابتداء [فيه] مقدماً. وهذا عربيّ جيّد . وذلك قولك تميمي أنا، ومشنوء من يشنؤك ، ورجل عبد الله))^(٢).

يظهر من هذا النص أنّ الخليل حين تصدى لموضوع التقديم والتأخير ، وجد أن التقديم والتأخير بعضه قبيح وبعضه حسن ، وحاكمية هذا الأمر عائدة إلى مسألة

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٦/١ .

(٢) كتاب سيبويه: ١٢٧/٢ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الرتبة النحوية وخرق هذا الترتيب النحوي ، ولم يعالج المسألة من حيث الوظيفة النحوية وإن كانت تخدم الجانب التواصلية للغة أولاً ، بل كان تقديمًا على نية التأخير من حيث إبقاء اللفظ على حكمه الإعرابي قبل أن يُقدّم ، فتقديم الخبر في (زيد قائمٌ) يبقى على حكمه إذا قلنا : (قائمٌ زيدٌ) وتقديم المفعول به في (ضَرَبَ عمرو زيدًا) يبقى على حكمه، إذا قلنا (ضرب زيدًا عمرو) وإلا كان التقديم والتأخير قبيحًا عنده^(١).

وكان سيبويه قد فتح بابًا آخر للتقديم والتأخير تلقفه من بعده البلاغيون والنحاة، فلم ينظر إلى هذه المسألة من حيث الشكل فقط ، بل نظر إلى الجانب النفسي للمتكلّم ، فلم يكن التقديم والتأخير عبثًا من المتكلم ، بل لأغراض بلاغية ونفسية يريدّها^(٢)، فقال في باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول : ((فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضَرَبَ زيدًا عبد

الله ، لأنك إنما أردت به مؤخرًا ما أردت به مقدمًا ... وهو عربي جيد كثير ، كأنهم [إنما] يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم يبيانه أعنى ، وإن كانا جميعًا يهمانهم ويعنيانهم))^(٣) .

نَبّه سيبويه في هذا الباب على الجانب التواصلية الوظيفية للغة حين عَرَضَ للجملة الفعلية التي فعلها متعدّد ، نحو : (ضرب زيدًا عبد الله) تقدم المفعول به على

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢ / ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٢) ينظر: أثر النحاة في البحث البلاغي ، دكتور عبد القادر حسين : ٨١.

(٣) كتاب سيبويه : ١/٣٤ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الفاعل وكان حقه أن يتأخر فللجملة وجه آخر هو : (ضرب عبد الله زيداً) فتقدّم - المفعول به - لعلّة قصد إليها المتكلم وهي : العناية والاهتمام بشأنه ، وإذا تقدم الفاعل فيكون للغرض نفسه ، ففسّر سيبويه هذا الموقف الكلامي تفسيراً وظيفياً نظراً فيه إلى مقتضيات التواصل اللغوي وفقاً للمنهج الوظيفي ، وهذا مما قال به البلاغيون لاحقاً من أنّ التقديم يكون لأمرين: الأول : على نية التأخير، والآخر: التقديم للعناية والاهتمام^(١).

قال السيرافي : ((وقوله : (كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم) معنى ذلك أنه قد تكون أغراض الناس في فعلٍ ما أن يقع بإنسان بعينه، ولا يبالون من أوقعه به ، كمثل ما يريده الناس من قتل خارجي مفسدٍ في الأرض ، ولا يبالون من قتله ، فإذا قتله زيدٌ فأراد مخبرٌ أن يُخبرَ بذلك قُدّمَ الخارجي في اللفظ ، لأنّ القلوب متوقّعة لما يقع به من أجله ، لا من أجل قتله ، فتقول : (قتلَ الخارجي زيدٌ) . وإن كان رجلٌ ليس له بأسٌ ، ولا يُقدَّرُ فيه أن يقتل أحداً ، فقتل رجلاً ، فأراد المخبر أن يُخبر بهذا المستبعد من هذا القاتل ، كان تقديم القاتل في اللفظ أهم ؛ لأن الغرض أن يُعلَمَ أنّه قتل إنساناً ، فيقال : (قَتَلَ زيدٌ رجلاً) وهذا الكلام إنما هو على قدر عناية المتكلم ، وعلى ما يسمح له وقت كلامه^(٢) .

يظهر من النص السابق أن السيرافي لم يخرج عن النظرة الوظيفية للغة التي قال بها سيبويه ، فبراعي السيرافي في المثال الذي ذكره قصد المتكلم ورغبة

(١) ينظر : دلائل الإعجاز : ١٠٦ / ١

(٢) ينظر : شرح كتاب سيبويه السيرافي : ١ / ٢٦٣ - ٢٦٤ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

المخاطب ففي قولك : (قتل الخارجي زيد) يلاحظ رغبة المخاطب لمعرفة نبأ هذا المقتول الذي يمثل الجانب السيئ والمفسد في الأرض ، وهو (الخارجي) ، وذلك لوجود معرفة مسبقة مشتركة بين كل من المتكلم والمخاطب حول (المفعول به) فقدّم هذا الأخير على الفاعل لعلم المتكلم أن الأهمية في قتل (الخارجي) لا في القاتل (زيد) ، وكذا الأمر مع تقديم الفاعل على المفعول، فإذا كان الفاعل (زيد) رجلاً ضعيف ولا يتوقع منه القيام بمثل هذا الفعل فيكون تركيز المتكلم على تقديمه في الكلام ، لعلم المتكلم أنه أمر نادر الوقوع ولغرابته يُريد إخبار المخاطب به ويوليه الأهمية ويُساعدُ على ذلك المعرفة المسبقة المشتركة بين المتكلم والمخاطب بضعف (زيد) فيقال : (قتل زيد رجلاً) فلا يهم من هو المقتول . وعلى هذا يكون السيرافي قد عالج هذا الباب معالجة وظيفية تواصلية قائمة على الدائرة المعرفية المشتركة بين المتكلم والمخاطب من جهة وهي ما تمثل السياق الخارجي للنص، وعلى عناية المتكلم وقصده من جهة أخرى ، فيقدّم في المراتب النحوية ويؤخر على هذا الأساس.

ويمكن القول إنّ الملاحظ التي مهد بها الخليل لهذا الباب لم تقتصر عند تلميذه سيبويه على الزاوية النحوية ، بل شرع سيبويه في تبيان الوظيفة التواصلية من تقديم المتكلم لأحد عناصر التركيب اللغوي ، فكان له الفضل في سبر كنه أسرار هذا الباب ، و ربما كان سيبويه أول من طرق هذا الباب بشكل وظيفي من العلماء العرب ،

ثانيا : الإبهام في حرف العطف (أو) :



الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

فنحن نلاحظ أنّ العلماء قبله كانوا يعرفون التقديم والتأخير^(١) ، لكنهم لم يقفوا على دوره الوظيفي داخل العملية التواصلية.

لا غرو أنّ اللغة أساس العملية التواصلية بين أفراد المجموعة اللغوية الواحدة، وحتى تُحقّق هذه العملية الغاية المرجوة منها وهي: التعبير عن أغراض المتكلمين، لابد من توافر شروط الإفادة فيها^(٢) ، لأنّ بها تقع الإبانة ويتحقّق الإفهام ، ولا يتم ذلك إلا بالابتعاد عن اللبس والإبهام ، لذا نجد ابن عقيل (ت ٧٦٩هـ) يعرف الكلام بأنه : ((اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها))^(٣) ، وذلك لأن اللغة الملبسة لا تصلح أن تكون واسطة للفهم والإفهام .

وقال ابن درستويه : ((إنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني))^(٤) ، لذا عدّ الفهم والإفهام الوظيفة الأصل للغة ، والإبهام والغموض عدولا عن هذا الأصل ، ولا يخفى أن مصطلح الإبهام مصطلح شائع عند النحاة ، فقد وصف به سيبويه بعضاً من المسائل اللغوية في غير موضع من الكتاب ، وقيل : إنّ الأمر المبهم هو: ((

(١) أثر النحاة في البحث البلاغي : ٨٠-٨١.

(٢) ينظر : الخصائص ، ابن جني : ١/٣٤ .

(٣) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ١٤/١

(٤) تصحيح الفصيح وشرحه ، ابن درستويه : ٧١

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

المشتبه الملتبس الذي لا يُعرف معناه ولا بابه ، و اللبس ، هو اختلاط الأمر واشتباهاً^(١) .

و من الأدوات التي وصفت بإيقاع اللبس (أو العاطفة) ، وهي تدل على أحد الشيئين أو الأشياء ، وهو مذهب جمهور النحاة ، فإذا قُلْتَ : (قام زيدٌ أو عمرو) فإنَّ القيام واقع من أحدهما^(٢) ، قال سيبويه : ((فمن ذلك قولك : مررتُ برجلٍ أو امرأةٍ ، فأوَّ أشركت بينهما في الجد ، وأثبتت المرور لأحدهما دون الآخر))^(٣) .

تعد الدلالة على أحد الشيئين أو أحد الأشياء هي الأصل ، وتتفرع عن هذه الدلالة معانٍ أخرى وأكثر هذه المعاني استعمالاً هي الشك ، قال السيرافي : ((اعلم أن (أو) حقيقتها أن يتفرد شيء من شيء ... وهي في ذلك ترجع إلى الأصل الذي وضعت له فمن ذلك قولك : جاءني زيد أو عمرو . فالأصل في أنَّ أحدهما جاءك ، والأكثر في استعمال ذلك أن يكون المتكلم شاكاً لا يدري أيُّهما الجائي . فالظاهر من الكلام أن يحمله السامع على شك المتكلم))^(٤) .

إنَّ لـ (أو) مع الأخبار ثلاثة معاني هي : الشك ، أو الإبهام ، أو التفصيل ، فإن أخبر المتكلم عن أحد الشيئين وكان لا يعرف أيُّهما المراد كان المتكلم شاكاً ، أما إذا

(١) لسان العرب ، ابن منظور ، تحقيق : اليازجي وجماعة من اللغويين : ٣ / ٣٣٥ مادة (بهم).

(٢) ينظر : الجنى الداني ، أبو قاسم المرادي ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، والأستاذ : محمد نديم فاضل : ٢٧٧ .

(٣) كتاب سيبويه : ١ / ٤٣٨ .

(٤) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ٤٢٥ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

كان المتكلم عارفاً بالأمر ولكنه يُريد تضليل المخاطب فهي تستعمل للإبهام، فلما تقول : (جاءني زيد أو عمرو) وأنت لا تعرف من هو الجائي فالتكلم شاكاً أما إذا كان عارفاً من هو الجائي فالتكلم يقصد الإبهام، قال السيرافي : ((وقد يجوز أن يكون المتكلم غير شاك ، إلا أنه أبهمه على أي حال قصدها في ذلك ، كما يقول القائل : كَلَّمْتُ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ (و) اخترتُ أحد الأمرين وقد عرفه بعينه ولم يُخبر به))^(١).

إذا تأملنا معالجة السيرافي لهذه المسألة وتخرجه لها ، يُلاحظ أنها معالجة وظيفية تواصلية صرفة إذ اعتمد في اطلاق الحكم النحوي على دلالة الألفاظ مستعينا ببعض أركان العملية التواصلية المتكلم وقصده ، والسامع وفهمه ، وسياق الحال المحيط بالحدث الكلامي ، فمثلاً بها للشك مرة ، ولالإبهام مرة أخرى ، بحسب قصد المتكلم ونيته فضرب السيرافي مثلاً واحداً للدلالة على الحكمين النحويين و المائز بينهما هو (قصد المتكلم) ، فقارب في منهجه هذا منهج الوظيفيين اللذين يُعَنَوْنَ بقصد المتكلم وعلم المخاطب لتحقيق الفائدة المرجوة من الكلام .

وصرَّح السيرافي بأن : ((من الإبهام في الخبر قوله : ﴿ وما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ... فإن قال قائل كيف يقع هذا الإبهام الذي ذكرته من الله عز وجل على خلقه إذا كان إنما قصد بمخاطبتهم البيان والإفهام لإقامة الحجة عليهم بما أنزل ولم يجعل في ذلك لبساً؟ قيل له إنما

(١) نفسه : ٤٢٥/٣ ، والآية الكريمة سورة النحل : ٧ ، و سورة الصافات : ١٤٧ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

خوطفوا على قدر ما يجري في كلامهم من إفهام بعضهم بعضاً لعلها أبهت عليهم في الإخبار لعجزهم عن بلوغ حقائق الأشياء وأنهم يصلون منها إلى مقاربة ، وقد يبههم المتكلم لقلّة الفائدة في التفصيل))^(١)

انتكأ النحاة في توجيه بعض المسائل النحوية على علم المخاطب ، أو جهله ، أو انتباهه أو غفلته ، أو إفهامه أو الإبهام عليه ، فالسيرافي في افتراضه لاعتراض المعترض قد أقرّ بالأصل الذي تقوم عليه العملية التواصلية وهو الفهم والإفهام واجتتاب الوقوع في اللبس مع الكلام العادي ، فكيف إذا كان كلام الله عزّ وجل الذي أساسه الإفهام لإقامة الحجة ، يردّ السيرافي على اعتراض المعترض أن الفائدة في بعض الأحيان تكمن في الإبهام على السامع ، فالمتكلم يعطي المعلومة على قدر حاجة المخاطب من الفهم ولعلّ الخطاب القرآني أبهم على الناس لعجزهم

عن بلوغ الحقيقة ، أو ليصلوا من هذا الإبهام ما يقارب الحقيقة ، وذكر أن في قوله عزّ وجل : ﴿ وأرسلناه إلى مئة ألفٍ أو يزيدون ﴾ ﴿ أَنَّ الله سبحانه وتعالى أبهم حقيقة الأمر على المخاطبين لأنه أراد تعريفهم بكثرة العدد، ولا فائدة من معرفتهم العدد على وجه الدقة^(٢) .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ٤٢٧ - ٤٢٨ . والآية الأولى النحل : ٧٧ ، و الأخرى الصافات : ١٤٧ .

(٢) ينظر : معاني القرآن ، الفراء ، تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ، ومحمد علي النجار (ت ١٣٨٥هـ) و عبد

الفتّاح إسماعيل الشلبي : ١ / ٢٥٠ ، و شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ٤٣٠ - ٤٣١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ممّا سبق تظهر عناية السيرافي بالجانب التواصلّي من اللغة متّكاً على أغراض المتكلم و علم المخاطب والسياقات الزمانية والمكانية للنص ويظهر ذلك من خلال سبره للإحتمالات القصديّة التي قد يكون الخطاب القرآني قاصداً لها من خلال الإيهام في النص ، فهو يفترض محاوراً خفياً يُطلق عليه (المعترض أو القائل) يطلق سوّالات ويرد عليه السيرافي ردوداً تُشبع جوع السائل للمعرفة ، وهذه الآيّة بحد ذاتها تواصلية وظيفية قائمة على الحوار الواقع بين المتكلم ونفسه فيأخذ المتكلم محلّ المخاطب ويرجع ليُصبح متكلماً مرّة أخرى ومخاطباً مرّة ثانية في محاولة لتحصيل أقصى فائدة متحصلة في الكلام حتى يتساوى المتكلم والمخاطب في المعرفة ولا يحتاج المخاطب أن يأخذ محل المتكلم ، و هو مما جاءت به الوظيفة الإفهاميّة للغة التي تحرص على إيصال المعلومة المفيدة للمخاطب ((فالمخاطب مشارك للمتكلّم في معنى الكلام ، إذ الكلام مبدؤه من المتكلم ومنتهاه عند المخاطب ولولا المخاطب ما كان كلام المتكلم لفظاً مسموعاً ، ولا احتاج إلى التعبير عنه))^(١).

يمكن القول : إنّ الشارح ينطلق من حكمة المتكلم إن أبان وإن أبهم فهو قاصد في كلا الأمرين لغاية يُريدها ، أدّ نظرت اللغة العربية إلى أمن اللبس على أنّه غاية لا يمكن التفريط بها لأنّ اللغة الملبسة لا تصلح وساطة للإفهام^(٢)، و مسألة تعدد الاحتمالات والدلالات للجملة الواحدة تظهر أكثر ما تظهر في الجمل الخبرية بحسب تعبير (جاكبسون) وذلك لأنّها خاضعة لاختبار الصدق والكذب فهي ليست حتمية

(١) نتائج الفكر في النحو ، أبو قاسم السهيلي : ١٧٢ .

(٢) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها : ٢٣٣ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

الدلالة أو التحقق^(١)، وهذا ممّا راعاه السيرافيّ في معالجته الجمل الخبريّة وهي معالجة تواصلية وظيفيّة تهدف إلى استحصال فائدة من الكلام ، الفائدة التي يُحتاجُ الكلام لأجلها .

ثالثاً : الإخبار بالمعرفة :

إنّ الأصل في الخبر أن يكون بالمنكور عن المعروف ؛ لذا كان حقّ المبتدأ التعريف ، و حقّ الخبر التتكير ، لكن الواقع الاستعمالي للغة قد اشترك في بعض المواضع المبتدأ و الخبر في التعريف وهو مما لا يحسن عند النحاة ، ولم يكن فرض هذا الأصل - تعريف المبتدأ وتتكير الخبر - معتمداً على استقراء كثرته في كلام العرب أو ندرته ، بل روعي في هذا الحكم مسألة الفائدة المتحصّلة من الكلام، ولما كان الخبر هو الجزء الذي تكمن فيه الفائدة ويقع عليه الاعتماد وجب أن يكون منكوراً ، قال ابن السراج : ((الاسم الذي هو خبر المبتدأ هو الذي يستفيده

السامع ويصير به المبتدأ كلاماً ، وبالخبر يقع التصديق والتكذيب ، ألا ترى أنك إذا قلت : عبد الله جالس فإنّما التصديق والتكذيب وقع في جلوس عبد الله لا في عبد الله ، لأن الفائدة هي جلوس عبد الله ، وإنما ذكرت عبد الله لتُسند إليه جالساً))^(٢).

فالخبر لا يكون إلا مسنداً لمسند إليه هو المبتدأ كونه الجزء الحامل للمعلومات الجديدة التي يستفيد منها المخاطب ، ولأن العملية التواصلية قائمة في أساسها على قدر

(١) ينظر : قضايا الشعرية : ٣٠

(٢) الأصول في النحو : ١/٦٢ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

من المعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب ويمثل المبتدأ هذه المعرفة ((فالإخبار عن النكرة لا فائدة فيه ألا ترى أنك لو قلت : رجلٌ قائمٌ، أو رجلٌ عالمٌ ، لم يكن في هذا الكلام فائدة لأنَّه لا يُستتكر أن يكون رجل قائماً وعالماً ، في الوجود ممن لا يعرفه المخاطب))^(١) ، ويمثّل الخبر القدر الآخر من الكلام فهو يُمثّل المعلومة الجديدة التي يملكها المتكلم ولا يعرفها المخاطب وعلى ذلك يكون الغرض من الأخبار إفادة المخاطب ما ليس عنده وتنزيله منزلة المتكلم في المعرفة^(٢) .

قال سيبويه في سياق حديثه عن دخول كان على المبتدأ والخبر : ((واعلم أنه إذا وقع في هذا الباب نكرةٌ ومعرفةٌ فالذي تشغل به كان المعرفة ، لأنه حدّ الكلام ، لأنَّهما شيء واحد ... وهما في كان بمنزلتها في الابتداء إذا قلت عبد الله منطلق ، تبتدأ بالأعرف ثم تذكر الخبر))^(٣)

وقد أوضح ذلك السيرافي بقوله : ((يعني أَنَّكَ إذا قُلْتَ : (كان زيدٌ قائماً) فالوجه أن ترفع (زيداً) وتنصب قائماً ؛ لأن (زيد) و (قائماً) شيء واحد، وزيد هو معرفة ، و قائم فكرة ، وحد الكلام أن تخبر عَمَّن يُعرف بما لا يعرف، لأنَّ الفائدة هي في أحد الاسمين ، والآخر معروف لا فائدة فيه ، والذي فيه الفائدة هو الخبر ،

(١) شرح المفصل ، ابن يعيش : ١/٢٢٤ .

(٢) ينظر : نفسه .

(٣) كتاب سيبويه : ٤٧/١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

فالأولى أن تجعل زيدًا المعروف هو الاسم و تجعل المنكور هو الخبر، حتى يكون مستفاداً^(١).

يتّضح ممّا سبق أنّ حكم سيبويه والسيرافي على أنّ الأصل في المبتدأ التعريف وفي الخبر التّكثير قائم على أساس الوظيفة التواصلية ، فالمتكلم يستعمل حدًا معرفًا لدعوة المخاطب إلى نوع من المعرفة المتوافر في ذهنه ، ويستعمل حدًا منكرًا يدعوه فيه إلى المعرفة الجديدة ، فقولك : (زيد) في (زيد قائم) يشكّل محور الخطاب الذي يشترك كلّ من المتكلم والمخاطب في معرفته، و(القيام) هي المعلومة المجهولة التي يسعى المخاطب إلى معرفتها ، وهذا ممّا ذكره السيرافي عن سيبويه بقوله : (وحدّ الكلام أن تُخبر بمن يُعرف عمّن لا يُعرف) ، ويؤكدُ هذا المعنى ما ذهب إليه ابن السّراج إذ ربط بين الابتداء بالمعرفة وتحقيق الفائدة ، فقال : ((وحقّ المبتدأ أن يكون معرفة أو ماقارب المعرفة ... وإنّما امتنع الابتداء بالنكرة ... لأنّه لفائدة فيه ، وما لا فائدة فيه فلا معنى للتكلم به))^(٢) وهو ما يكشف أنّ معيار الفائدة كان أساسًا في توجيه الأحكام النحوية المتعلقة بالمبتدأ والخبر.

وزاد السيرافي قائلاً : ((ولم يحسن أن تقول : كان منطلق زيدًا ، لأنك إنّما تُخبر عمّن يعرفه المخاطب بما لا يعرفه من شأنه حتى يعرفه فيساويك فيه وفي خبره . وفائدة الإفادة من المتكلم للمخاطب في الخبر ، ولو جُعِل الاسم نكرة والخبر معرفة

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٠٣ / ١ .

(٢) الأصول في النحو : ٥٩ / ١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

و الاسم لا يستفيد من المخاطب لم يعيره المخاطب بمنزلة المتكلم في معرفة ما أفاده
إياه^(١) .

أرجع المتقدمون ظاهرة التخاطب أو التواصل اللغوي إلى نموذج يقوم على
حركية الطرح و الاستقبال ، ولكي تتحقق الفائدة المرجوة من الخطاب وَجَبَ أن ينزل
المخاطب منزلة المتكلم في المعرفة ، فكلُّ كلام يُنجز من المتكلم عند السيرافي يسعى
به إلى إفادة المخاطب أمراً كان يجهله ، ولعلَّ تعليل السيرافي لعدم استحسان تعريف
(الخبر) في كلام المتكلم راجع إلى مراعاة المخاطب وذلك ، لأنَّ تعريف الخبر في
بعض الأحيان قد يحول دون تحقيق التواصل والتفاهم بين المتكلم والمخاطب في
محاولة فهم المراد ، ويُمثّل هذا خرقاً واضحاً لما يعرف بقاعدة الجهة ، ومفادها أن
يتجنَّب المتكلم حدوث اللبس في تعبيره^(٢).

فالخبر إذا كان نكرة يُحسن عند السيرافي لأنه سيُلَبّي حاجة المخاطب في
المعرفة والتساوي فيها مع المتكلم لأنَّ الأمر منكور عند المخاطب لا عند المتكلم ،
وإذا كان المبتدأ نكرة والخبر معرفة (لم يحسن) وتنعدم الغاية من الكلام وهي
الإفادة^(٣) ولئلا ينزل المخاطب منزلة المتكلم مرّةً أخرى ، وأكّد السيرافي ذلك بقوله:

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢/٢١٩

(٢) ينظر: التداولية اليوم ، آن روبول ، وجاك موشلر : ٤٠ .

(٣) ينظر : أصول تحليل الخطاب : ٢ / ٩٣٢-٩٣٣ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

((جواز الإخبار عن الشيء معقود بوقوع الفائدة للمخاطب، وتعريفه ما يجوز أن يجله))^(١).

اشتراط السيرافي وقوع الفائدة فيصلا في الحكم على جواز الإخبار باللفظ أو عدمه ، فإذا كان الخبر منكورا يكون تحقق الفائدة أكبر للمخاطب، أما إذا كان معرفة وتحققت فيه الفائدة فذلك جائز أيضا .

قال السيرافي : ((وإذا قلت : (زيد ابن عمرو) فجعلت (زيذا) مبتدأ وجعلت (ابن عمرو) خبرا ... وإنما يكون خبرا إذا خاطبت به من لا يدري ، أزيد ابن عمرو أم ابن غيره فأردت إعلامه نسب زيد من أبيه وهو لا يعرفه))^(٢) .

يركن أبو سعيد في إيجاز الإخبار بالمعرفة إلى تحقق الفائدة - كما ذكرنا سابقا - ويؤول الجملة الخبرية في هذا النص والتي يتساوى فيها المبتدأ والخبر في المعرفة أن المخاطب عارف لزيد و عارف لعمرو , لكنه جاهل بنسب زيد لأبيه

هذا , أو لرجل آخر فسياق النص العام هو من سمح بهذا الإخبار، وبهذا يكون أصل الفائدة أصل مقدّم على باقي الأصول عند السيرافي ، اذ يلحظ أنه يعالج المسائل النحوية على وفق ما يحقق أعلى مستويات التواصل بين المتكلم والمخاطب فيستعين بعلم المخاطب ونباهته مرة , وبالسياق العام للكلام مرة أخرى، وهذا ما وظفه التواصليون تحت مسمى (المرجع) ، قال جاكسون : ((لكل رسالة مرجع تُحيل

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣١٧ / ١ .

(٢) نفسه : ٤ / ٢٤٧ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

عليه و سياق معين مضبوط قيلت فيه ولا تفهم مكوناتها الجزيئية أو تُفكك رموزها السننية إلا بالإحالة على الملابس التي أنجزت فيها هذه الرسالة قصد إدراك القيمة الإخبارية للخطاب))^(١) أي أنّ نجاح التواصل لا يتوقّف على سلامة البنية وحدها ؛ بل يتطلّب الإحاطة بالسياق والمرجع اللذين تنتظم في ضوئهما عناصر الخطاب ، فيكون المعنى المفيد نتاجاً للتفاعل الحاصل بين الرسالة وسياقها العام .

لم يكن للتواصلين من هدف إلّا وانصبّ في إقامة الاتصال بين الباث والمستقبل، و تحقيق أقصى درجة من الإفهام وشد الانتباه للمخاطب، وهو ما حرص عليه السيرافيّ ليس في معالجته تنوع الأخبار فحسب ، وإنما في حل المسائل النحويّة، وهذا مما نصّ عليه في كلامه السابق في جعله فائدة الكلام هي الأصل الذي يكسبه مشروعيّة التواصل تسويقاً لإمكانية الإخبار بالمعرفة .

رابعاً : الحذف لعلم المخاطب :

متلّ البيان والإفصاح الغاية المثلى للغة ، و ما وُجدَ من قواعد وأحكام إلا ليتمكنها من تأدية هذه الوظيفة على أكمل وجه ، ودخل الحذف على الكلام لأغراض نحويّة تمثل في حذف بعض الألفاظ أو الحركات الإعرابية من النص، وأخرى بلاغيّة ترمي إلى الاختصار في الكلام ضمن شروط أهمها أمن اللبس ، وعلم المخاطب

(١) قضايا الشعرية : ٢٠ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

بالمحذوف أو وجود دليل يدلُّ على ما حُذِفَ ، فيكون الكلام تام المعنى وإن كان هناك قطع في المبنى .

وقد اهتمَّت اللسانيات التواصلية اهتمامًا خاصًا بالمخاطب بوصفه أحد العناصر الأساسية لاكتمال العملية التخاطبية ، وإطلاع المخاطب على حال المتكلم يُغني عن ذكر بعض مكونات الكلام ؛ اعتمادًا على ما سبق العلم بها ، و اشتهاها بين طرفي العملية التخاطبية ، حتى يكون ذكره وعدمه سواء ، فلسان الحال قد يكون أنطق من لسان المقال.

ولم يغفل النحاة الأوائل قديما العناية بالمخاطب في تفسير بعض الظواهر اللغوية ، و منها الحذف ، فالحذف لعلم المخاطب مثل جانباً كبيراً من جوانب تعليقات الحذف في النحو العربي .

وتعد إشارة الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحبة الريادة في تفسير مقاصد المتكلم في الحذف لعلم المخاطب ، حين سأله سيبويه عن جواب الشرط في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾^(١) ، وأمثالها من آيات القرآن الكريم فأجابه الخليل بقوله : ((إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَتَرَكَّ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَبَرِ الْجَوَابُ فِي كَلَامِهِمْ ، لَعَلَّ الْمَخْبَرَ لِأَيِّ شَيْءٍ وَضِعَ هَذَا الْكَلَامُ))^(٢) .

(١) الزمر : ٧٣ .

(٢) كتاب سيبويه : ١٠٣ / ٣ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

يتضح من جواب الخليل أنه قد عزا إمكانية حذف جواب الشرط لعلم المخاطب بالأمر المُخبر عنه ، و هذه الإشارة تكشف عن وعي مبكّر بأثر السياق والمعرفة المشتركة في فهم الخطاب ، إذ لم يجعل تمام المعنى متوقّفاً على التصريح بجميع عناصر التركيب ؛ بل أجاز حذف بعضها متى ما كان المقام كافياً للدلالة عليها ، فأخذ النحاة من بعده يجعلون علم المخاطب ركيزةً أساسيةً تقوم عليها عملية الحذف.

قال سيبويه : ((وإثما أضمرنا ما كان يقع مظهرًا استخفافًا ، ولأنّ المخاطب يعلم ما يعني فجرى بمنزلة المثل ، كما تقول : لا عليك ، وقد عَرَفَ المخاطب ما تعني، أنه لا بأس عليك ، ولا ضرر عليك))^(١) .

إنّ طلب الخفة والاختصار في الكلام كان واحداً من أبرز مسوّغات الحذف عند المتكلّم ، ولما كانت العملية التواصلية لا تقوم دائماً على إظهار جميع الوحدات الدلالية للنص فأحياناً ترك الذكر أفصح من الذكر، فيحدث أن يكون الصمت وسيلة من وسائل التواصل ، ولكن هذه الخفة والإضمار في الكلام كان مشروطاً بعلم المخاطب ومعرفته ، فالحذف يُحدث تخفيفاً في اللفظ شرط الا يخل في المعنى الموجه للمخاطب ، أي أنّ المتكلّم البليغ هو من يحدث توازناً بين الاقتصاد في التعبير و ضمان فهم المخاطب للمعنى ، قال ابن السراج : ((وقد يعرض الحذف في المبتدأ أو في الخبر أيضاً لعلم المخاطب بما حذف))^(٢) فلا شكّ أنّه لا قوام للحذف إلا بالمخاطب، على الرغم من أن المخاطب ليس له دور فعلي في نشأة الكلام ولا

(١) نفسه : ١ / ٢٢٤ .

(٢) الأصول في النحو : ١ / ٦٨ - ٦٩

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

يشاطر المتكلم في اللفظ ، إلا أن له الدور الحاسم في توجيه صياغة الكلام إلى وجهةٍ دون أخرى ، و منها إمكانية وقوع الحذف في الكلام التي لا تقع إلا فيما كان معلوماً غير ملبس عند المخاطب ، ودوره في الحذف مشابه لدوره في التعريف والتذكير كما ذكرنا سابقاً فلا يعرف إلا ما كان معروفاً عند المخاطب ، و لا يُحذف إلا ما كان معلوماً عنده^(١).

وأكد السيرافي على أن لا يكون الحذف عبثاً ، وإلا كان عيباً في الكلام ، قال : ((إنَّ الحذف إنما يقع ... لداعٍ يدعو إليه ، وليس كلُّ ما أراد مُريد حذفه كان له ذلك))^(٢) ، فلا يكون الحذف إلا لغاية يريد بها المتكلم .

وكان سيبويه يعوّل في كثير من مواضع الحذف على علم المخاطب وقدرته على استدراك المحذوف من سياق الكلام ، قال : ((و مما يقوِّي ترك نحو هذا لعلم المخاطب قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ والذّٰكِرِينَ اللّٰهَ كَثِيْرًا والذّٰكِرَاتِ ﴾ * والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ فلم يُعمل الآخر فيما أعمل فيه الأول استغناءً عنه ، ومثل ذلك " نخلع ونترك من يفجرِك "))^(٣) ، يكشف هذا النص عن أثر المعرفة المشتركة في بناء الخطاب ، فجعل علم المخاطب مسوِّغاً لترك بعض التراكيب اعتماداً على قدرة المتلقّي على استنباطها من السياق والقرائن .

(١) ينظر : أصول تحليل الخطاب : ١١٣٦/٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٦٥/٥ .

(٣) كتاب سيبويه : ٧٧/١ ، والآية : الأحزاب : ٣٥ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

ويؤكد هذا المعنى ما شرحه السيرافي بقوله : ((أرادوا " والحافظاتها " والذاكرين الله كثيرا والذاكراته فترك المفعول الثاني لعلم المخاطب بذلك والاكتفاء بالأول لو كان منصوبا . وكذلك قوله : "ونخلع ونترك من يفجرك" فلو كان منصوبا بـ " نخلع " كان الاختيار أن يقول : و نخلع ونتركه من يفجرك ، ونصبه بـ "نخلع" جائز أيضا ، فقد ترك إما مفعول " نخلع " ، وإما مفعول " نترك " اكتفاء بعلم المخاطب))^(١).

من المعلوم أن المفعول به من جنس الفضلات في الكلام ، لكنه متم له ، ولذلك وقع الحذف عليه كثيرا ، قال ابن يعيش : ((اعلم أن المفعول لما كان فضلا تستقل الجملة دونه ، وينعقد الكلام من الفعل ، والفاعل بلا مفعول ، جاز حذفه وسقوطه ، وإن كان الفعل يقتضيه))^(٢) ، فوقع الحذف في المفعول الثاني، لدلالة المفعول الأول عليه ، في كلا الموضعين فيعتمد المتكلم على حدس المخاطب في معرفة المحذوف من النص .

ويمثل السياق بما يحمله من دلالات مقامية ومقالية عنصرا أساسيا في الدلالة على الجزء المحذوف من الكلام ، وقد نسبته السيرافي لذلك بقوله : ((لا ضعف في قولنا : إن زيدا مقيم ، وعمرو خارج ، كأننا قلنا زيدا خارج و عمرو مقيم ، فإذا كان خبر أحدهما مثل خبر الآخر اكتفي بأحد الخبرين ، كقولنا : زيد مقيم وعمرو ، وإن زيدا مقيم وعمرو فيعلم أن خبر الثاني مثل خبر الأول ويُطرح اكتفاء بالأول))^(٣).

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٦٤ / ١ .

(٢) شرح المفصل ، ابن يعيش : ٤١٩ / ١ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٧٣ / ٢ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

اعتمد النحاة ثنائية المسند والمسند إليه ليكونا دعامتين أساسيتين في إيصال المعلومة إلى المخاطب كأن يكون هذان المسندان فعلا وفاعلا أو مبتدأ وخبرا والخ ... من الثنائيات لضمان توفر القدر الكافي من المعرفة الذي يحقق الفهم والإفهام، ويمكن لهذا الغرض أن يتحقق إذا حذف أحد طرفي الإسناد اعتمادا على ملابسات الموقف الكلامي ، وعناصره السياقية فالتكلم قد بنى حذفه للخبر الثاني على علم المخاطب والمعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب التي أسسها المتكلم من خلال الخبر الأول.

وقد يتأتى علم المخاطب بالمحذوف من خلال المعارف الاجتماعية المشتركة

بين أبناء البيئة اللغوية الواحدة ، وفي ذلك قال السيرافي : ((أنهم قد حذفوا الثمن في هذا ، لما عُرف بعادة الناس في ذلك لأنهم قد اعتادوا الابتياح بثمن بعينه ، دراهم أو دنانير فتركوا ذكره اكتفاء بمعرفته ، كما يُقال لنا : الخبز عشرة ، أي : عشرة أرطال بدرهم ، والكر بثلاثين ، يُريد : الكر من الحنطة))^(١) .

فعلم المخاطب بالمحذوف جاء عن طريق المعارف الاجتماعية المشتركة بين أفراد المجتمع عامّة ، قال المبرد : ((كلُّ ما كان معلوماً في القول جارياً عند الناس فحذفه جائز لعلم المخاطب))^(٢) .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٨٥/٢ .

(٢) المقتضب : ٣ / ٢٥٤ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

يظهر مما تقدّم أنّ الذكر هو الأصل في الكلام والحذف هو خروج عن هذا الأصل و وصفه سيبويه بأنه من عوارض الكلام ، قال : ((هذا باب ما يكون في اللفظ من الأعراض : واعلم أنّهم مما يحذفون الكلم))^(١) .

فكانت علاقة الحذف مع الذكر علاقة الفرع مع الأصل ، و مع تحدد خصائص الحذف الأسلوبية من مثل : الاتساع في الكلام ، والإضمار لأغراض بلاغية ، و الحذف لشيوع المحذوف ، كان علم المخاطب القطب الرئيس الذي تدور حوله عملية الحذف ، وإن تعددت مصادر المعرفة المتوفرة لديه ، فيعالج السيرافيّ مسألة الحذف معالجة وظيفية ترمي إلى تحقيق الفائدة من الخطاب ولا تتحقّق الفائدة إلا إذا كان جميع أطراف الخطاب مُكتفون بالمعرفة وهو ما أشار إليه التواصليون بأنّه العنصر الثاني من عناصر اللغة عبّر عنه بالمرسل إليه - المخاطب - ، وعلى العنصر الأول المرسل - المتكلّم - ، فلولا المخاطب ما كان كلام المتكلّم مسموعاً فكان اهتمام التواصليين بالمخاطب ومراعاته امتداداً لما قال به النحاة الأوائل فعلى اختلاف الألفاظ و المسمّيات ، كانت المعالجة واحدة ، فالمتكلم يراعي في المقام الأول المخاطب في صياغة التراكيب المحذوفة بناء على سابق المعرفة المشتركة القائمة بينهما .

يمكن القول : إنّ العدول لا يعني فتح الباب أمام العبث في علاقات الجمل وقرائنها ؛ بل يكون في حدود خاصّة ، وحالات شائعة ، ومن أهمّ شروطه أن يؤمن

(١) كتاب سيبويه : ٢٤١ / ١ .

الفصل الأول : الوظائف اللغوية والأسس البنائية

اللبس , وقد ذُكرَ أنَّ ((العدول عن صيغةٍ من الألفاظ إلى صيغةٍ أخرى لا يكون إلا لنوع خصوصيةٍ اقتضت ذلك , وهو لا يتوخَّاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة))^(١) , فحرص أبو سعيد في معالجة مظاهر العدول النحويِّ سواء في التقديم والتأخير أو الإبهام والإيضاح أو التعريف والتذكير , أو الحذف والذكر , أن لا تخرج في جوهرها عن مقصدٍ تواصليٍّ يتمثل في تحقيق الفهم وتوجيه المعنى بحسب مقتضى الحال , وقد كشفت هذه الظواهر أنَّ الأصل في البنية اللغوية هو الذكر والإيضاح في حين يعد الحذف أو الإبهام أو العدول عن الترتيب الأصلي للكلام صوراً فرعيةً تفرضها اعتبارات المقام التخاطبي , وعلى

رأسها مُراعاة علم المخاطب وضمان وصول الرسالة بأقل قدر من اللبس وأعلى درجة من الفاعلية التواصلية , وبذلك لا يكون العدول النحويّ خرقاً للقاعدة بقدر ما هو تنظيمٌ لها وفق حاجات التواصل .

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر , ابن الأثير , تحقيق : أحمد الحوفي , وبدوي طبانة : ١٠٨/٢ .

الفصل الثاني

أثر الوظائف التواصلية في بناء

القاعدة النحوية

توطئة

المبحث الأول : الوظائف التواصلية للإشارات

المبحث الثاني : الوظائف التواصلية للأساليب الإنشائية

المبحث الثالث : الوظائف التواصلية لعناصر العملية

التخاطبية

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

توطئة :

لا تقتصر الوظيفة اللغوية على نقل المعنى فحسب ؛ بل تتجاوز ذلك إلى تنظيم العلاقة بين أطراف الخطاب وتوجيه بناء التراكيب بما يحقق الفهم والافهام ، ومن ثم لم تكن القاعدة النحوية عند النحاة معزولة عن المقاصد التواصلية ، إذ إنَّ البحث في الجانب الوظيفي للنحو العربي يبيِّن أنَّ دراسة اللسانيات الحديثة في المتن القديم ليست محاولة للتأصيل بقدر ماهي محاولة بيان الامتدادات المعرفية للفكر الوظيفي في هذا المنجز^(١) .

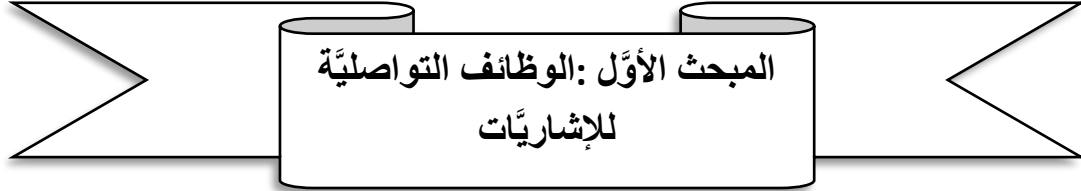
ارتبطت نشأة القاعدة النحوية العربية بالسعي إلى ضبط الفهم والإفهام والمحافظة على سلامة التواصل اللغوي ، الأمر الذي جعلها تتجاوز حدود التنظيم الشكلي للعناصر اللغوية إلى مراعاة الوظائف التي تؤديها في الخطاب ، ومن ثمَّ فإنَّ الكثير من الأحكام النحوية لم تبَنَ على أساس الاعتبارات التركيبية وحدها ؛ بل أسهمت الوظائف التواصلية في توجيهها و صياغتها ، بما يحقق الغاية الأساسية من اللغة بوصفها أداة للتواصل بين المتخاطبين ، وكشف الاعتماد على الاستعمال اللغوي في بناء القاعدة النحوية أنَّ التقعيد لم يكن منفصلاً عن الوظيفة التواصلية للغة ؛ بل كان يهدف إلى تقنين الأنماط اللغوية الكفيلة بتحقيق الفهم المشترك وضبط التواصل بين المتخاطبين ، وعلى هذا الأساس يتناول هذا الفصل أثر الوظائف

(١) ينظر : الوظيفة في كتاب سيبويه : ١٠ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

التواصلية في بناء القاعدة النحوية من خلال الكشف عن دور الإشارات والأساليب الإنشائية و وظائف عناصر الخطاب في توجيه الاستعمال اللغوي وتحقيق التواصل .



إنَّ لفظة الإشارات مستمدة من مادة (أشار) سواءً أكانت هذه الإشارة حسيّة أم معنويّة , والمصدر منها (شور) الذي يضمُّ معنى التلويح باليد أو الإيماء أو بمعنى النصيح والمشورة^(١) , وتداول هذا المصطلح معظم اللسانيين إذ ظهر أوّل الأمر عند شارلس سندر بيرس , وجورج يول , وبيري , وباخ , وغيرهم من اللسانيين التداوليين على وجه الخصوص , وتضمُّ الإشارة بمختلف صنوفها على بعدين زمني ومكاني , وتتحكم فيها عناصر متعدّدة من مثل مقصدية المتكلّم , ووضع المخاطب الذهني , والسياق العام للدائرة التخاطبية^(٢) , ويعرّف جورج يول التأشير بقوله : ((التأشير مصطلحٌ تقنيّ يستعمل لوصف أحد الأشياء التي نقوم بها في أثناء الكلام , و التأشير يعني : الإشارة من خلال اللغة , ويطلق على أيّة صيغة لغويّة تستعمل للقيام بهذه الإشارة))^(٣) , وبهذا تكون الإشارات هي أشكال لغويّة إحاليّة ترتبطُ بعناصر الخطاب من متكلّم ومخاطب وسياق , ولها دورٌ أساسيٌّ في تحقيق التواصل اللسانيّ

(١) ينظر: لسان العرب , مادة (شور) : ٤ / ٢٣٥٦-٢٣٥٨ .

(٢) ينظر: استراتيجيات الخطاب مقارنة لغويّة تداوليّة , عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٨١-٨٣ .

(٣) التداوليّة , جورج يول : ٢٧ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

، وتدرج تحتها الضمائر وأسماء الإشارة ، والأسماء الموصولة ، والظروف الزمانية والمكانية وكل ما يحمل دلالة الإشارة والإحالة في سياق الحدث الخطابي ضمن التعابير الإشارية^(١) .

ولم يغفل العرب عن هذه الوظيفية اللغوية لما عُرِف بالإشارات ، فتعامل النحاة معها تحت مسمى المبهمات ، وذلك لأنها لا تختص بشيء دون آخر ولا يتحدد معناها الدلالي إلا بوجود مُحال إليه مع كل صنف من أصناف المبهمات ، ويلاحظ معالجتهم لها معالجة وظيفية صرفة في بعض الأبواب مثل الضمائر وأسماء الإشارة و الظروف مما يدلُّ على وعيهم بها وما تحمله من صفة الإشارة ، و وصف سيبويه هذه الإشارات - المبهمات - بقوله : ((وأما الأسماء المبهمة فنحو هذا [وهذه] ، وهذان ، وهاتان ، وهؤلاء ، وذلك وتلك ، وذانك وتنانك ، وأولئك وما أشبه ذلك))^(٢) .

وقال المبرِّد : ((ومن الأسماء المبهمة ، وهي التي تقع للإشارة ، ولا تخص شيئاً دون شيء ، وهي هذا وذاك ، وأولئك ، وهؤلاء ونحوه))^(٣) ، أما السيرافي فلم يذكر للمبهمات تعريفاً مخصوصاً بالشرح أو بالتمثيل ، بل تطرق إليها ضمناً في مباحثه مستعيناً بنصوص سيبويه وله رأي آخر في تصنيفها نتطرق له لاحقاً .

(١) ينظر : التأشير والتباعد بين القدماء والمحدثين ، دلخوش جار الله : ٤٤٨-٤٥٠ .

(٢) كتاب سيبويه : ٥/٢ .

(٣) المقتضب : ١٨٦/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

تكاد تتفق الحدود جميعها التي وُضِعَتْ للإشاريات على أنَّها : عناصر لغوية تحمل وظيفة الربط بين مُشار ومُشارٍ إليه , يحددها السياق التخاطبي الذي قيلت فيه , و لها أثر فاعل في اتمام العملية التواصلية , وذلك لأنَّ كل عنصر لغوي لكي يقدِّم فائدة تخدم الجانب التواصل من اللغة لابدَّ أن يحتوي على ثلاثة جوانب , الأول : لفظي , والثاني : ما يحمله من معنى دلالي والثالث : مرجعٌ يحيلُ عليه , ولا يمكن تحديد النطاق الدلالي لهذه العناصر الإشارية إلا بالعود على سياقاتها التي وردت فيها , وبهذا تتنوع دلالاتها على حسب التنوع المقامي للمتكلمين والمخاطبين وسياقاتهم الاجتماعية , وحصر اللسانيون الإشاريات في مثلثٍ إشاري يتكوّن من (الأنا والها والآن) إذ قرّروا أنَّ عملية التواصل اللغوي لا تتم إلا بوجود أحد هذه العناصر , التي يمثّل كل واحدٍ منها صنفاً من الإشاريات^(١)

ويلاحظ مراعاة السيرافي لكلّ ما ذُكر آنفاً عند معالجته لهذه العناصر اللغوية , ممّا يدلُّ على أنَّ هؤلاء النحاة قد تنبّهوا على وظيفة أدوات الربط داخل الجملة , نحو الضمائر بتعدد صنوفها , وأسماء الإشارة , ومراعاته لظروف الزمان والمكان .

أولاً : الضمائر :

الإشاريات الشخصية لأنّها تدلُّ على الشخص المتكلّم أو المخاطب أو الغائب , ولا تتحدد وظائف هذه الأبعاد الشخصية إلا ضمن

(١) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٨١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

السياق اللغوي والموقف الاجتماعي الذي يستند إليه المُخاطَب في إنجاز خطابه لتعيين ذاته المتلفظة .

وذكر النحاة الضمائر في باب المعرفة , قال سيبويه : ((وإِنَّمَا صار الإِضْمَارُ معرفةً لِأَنَّكَ إِنَّمَا تُضْمِرُ اسْمًا بعدما تعلم أَنَّ من يُحَدِّثُ قد عرف من تعني وما تعني , وَإِنَّكَ تُرِيدُ شَيْئًا يعلمه))^(١) .

فبيّن سيبويه أَنَّ علامة الإِضْمَار كونها معرفة , لِأَنَّهَا تعيّن مرجعًا تعود عليه فالضمائر تحتاج إلى عائدٍ تعود عليه , وجعلوا عود الضمير وإِحالته إلى شيء محدد شرطًا ضروريًا لسلامة الكلام , وإذا تجرّد الضمير من عائديته فقد قيمته الوظيفية , لذا ارتبط به مفهوم الإِحالة , ولا يستقيم استعماله اللساني التواصلية إلا بها و جعل سيبويه لفهم المخاطب قيمة تواصلية مهمّة , لا يضمّر المتكلّم إلا بعد التأكد من كون المخاطب عارفًا لما أضمّرت , وإلا لم تتحقق الفائدة المرجوة من الكلام , فالتعريف ((متعلّق بمعرفة المخاطب دون المتكلّم))^(٢) .

وقسم النحاة الضمائر على قسمين^(٣) :

أولاً : ضمائر للحضور : وتشمل ضمائر التكلّم : أنا , نحن , وضمائر المخاطب : أنت , أنتِ , أنتما , أنتم , أنتن .

(١) كتاب سيبويه : ٦/٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٣٨ / ٢ .

(٣) ينظر : توضيح المقاصد والمسالك , الحسن بن قاسم المرادي , تحقيق : عبد الرحمن علي سليمان : ٩٧/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ثانيًا : ضمائر الغياب : هو , هي , هما , هم , هنّ .

وتتقسم هذه الضمائر إلى ضمائر متصلة ومنفصلة وظاهرة ومستترة , وأكد سيبويه على أهمية التثبّت من الضمير وعدم جواز استعمال ضمير محلّ ضمير آخر, قال : ((و اعلم أنّ المضمّر المرفوع , إذا حدّث عن نفسه فإنّ علامته أنا, وإن حدّث عن نفسه وعن آخر قال نحن . ولا يقع أنا في موقع التاء التي في فعلت ... وأمّا المضمّر المخاطب فعلامته إن كان واحدًا : أنت ... واعلم أنّه لا يقع أنت في موضع التاء في فعلت ... وأمّا المضمّر المحدّث عنه فعلامته : هو ... ولا يقع هو في موضع المضمّر الذي في فعل , لو قلت فعل هو لم يجرز إلّا أن يكون صفة))^(١) .

كما ذكرنا أنّها تؤديّ الضمائر وظائف تواصلية مختلفة في عملية التخاطب ولعلّ أهمّها هو تحقيق التواصل بين أفراد اللغة الواحدة , لما تتمتع به هذه الضمائر من مضامين إشاريّة , تتنظم في النص وفق ما يناسب المشار إليه من حيث الأفراد والتنثنية والتذكير والتأنيث , والحضور والغياب^(٢) , وهذا ما بدا واضحًا في نصّ

(١) كتاب سيبويه : ٢ / ٣٥٠-٣٥١ .

(٢) ينظر : اجتهادات لغويّة , تمام حسّان : ٢٢٥-٢٢٦ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

سيبويه وقد حذا النحاة حذوه من بعده من أمثال المبرّد^(١) ، وابن السراج^(٢) ، وأبي علي الفارسي^(٣) ، والرضي الاسترأبادي^(٤) ، وابن يعيش^(٥) .

ويستنتج من هذا أنّ هذا التصنيف للضمائر ومنع استبدال ضمير محل ضمير آخر أراد منه النحاة أمرين ، الأول : أنّ للضمائر إشارة مرجعية تقع خارج النص اللغوي منتمية إلى سياق الموقف ، والإبدال فيما بينها يؤدي إلى خلط في دلالتها ، والآخر : بيان أنّ الأطراف الأساسية للتواصل هم الأشخاص : الأنا (منتج الخطاب) ، و المخاطب (المستمع) ، والمتحدّث عنه (الرسالة)^(٦) .

وذكر السيرافي أنّ الضمير يؤتى في الكلام خوفاً من اللبس ، واحتراساً منه ، قال : ((يؤتى بالضمير في الكلام خوفاً من اللبس واحتراساً منه ، ومن النحويين من يسمّيه المكني ؛ وذلك أنّ الأسماء الظاهرة كثيرة الاشتراك والالتباس))^(٧) فإذا قلّت : ((زيدٌ فعل جاز أن يُتوهم في زيد الثاني أنّه غير الأول))^(٨) .

(١) ينظر : المقتضب : ١٢٦/١ وما بعدها .

(٢) ينظر : الأصول في النحو : ١١٦-١١٧ .

(٣) ينظر : التعليقة ، أبو علي الفارسي ، تحقيق : د . عوض بن حمد القوزي : ٩٦ / ٢ .

(٤) ينظر : شرح الرضي على الكافية : ٢ / ٤٠٩-٤١٠ .

(٥) ينظر : شرح المفصل لابن يعيش : ١٢٦/٣ .

(٦) ينظر : النص والتواصل ، د. جبار سويس الذهبي : ٩٩ .

(٧) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠٢ / ٣ .

(٨) شرح المفصل لابن يعيش : ٨٤ / ٣ ، (ومن وظائف الضمير إضافة إلى رفع اللبس الاختصار في الكلام ويكون ويكون هذا مع الضمائر المتصلة) ، شرح الرضي على الكافية : ٤٠١/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فلا فائدة من كلامٍ ملبس لا يحقق فائدة للسامع ، ولتحقيق هذا التماسك بين المتخاطبين احتاجت اللغة إلى عناصر تحقق لها هذا التواصل فكانت الضمائر واحدة من هذه العناصر ، فهي تحملُ عباً الربط والإحالة إلى مرجعية ثابتة ومحددة في سياق الكلام ، فعناية السيرافي بالمخاطب ، وتأکید إفادته ما يجهله ، يؤكد على أنَّ النحاة لا ينظرون للغة بمعزل عن سياق التكلم وشخص الخطاب والعناية بكل ما يحيط بالعملية التواصلية للوصول إلى المعنى و إبراز مقاصد المتكلم .

واختلف النحاة من بعد سيبويه في عدّ الضمائر من المبهمات بين مؤيدٍ ومخالفٍ ، وذلك لأنَّ سيبويه عدّ ضمائر الغياب من المبهمات لقوله أنَّ الأسماء المبهمة : ((هذا وهذه ، وهذان وهاتان ، وهؤلاء ، و ذلك ... وهو ، وهي ، وهما ، وهم ، وهنّ ، وما أشبه ذلك))^(١) .

أدخل سيبويه ضمائر الغياب دونًا عن الضمائر الأخرى مع الأسماء المبهمة ، وهذا أدّى إلى اختلاف النحاة من بعده ، فمنهم المبرّد الذي جعل الضمائر جميعها من المبهمات ، معللاً ذلك بقدرة الضمائر على الإشارة لكلّ شيءٍ من الموجودات^(٢) ، أمّا ابن السراج فقصر الإبهام على أسماء الإشارة فقط^(٣) .

(١) كتاب سيبويه : ٥/٢ .

(٢) ينظر : المقتضب : ٢٧٧/٤ .

(٣) ينظر : الأصول في النحو : ١٤٩/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

أمّا السيرافيّ فمنع عدّ الضمائر من المبهمات ، قال : ((وترجم الباب بما ضمّنه من الأسماء المبهمة وفصلّها ومثّلها ، ووصل بها ما ليس بمبهم من الأسماء المضمرة، وهو ، وهي ، وهما ، وهم ، وهنّ))^(١) .

يُظهر السيرافيّ موقفًا صريحًا في عدم عدّ الضمائر من المبهمات ، ويرى أنّ جمع ضمائر الغياب مع المبهمات لضعف حضور المُعَيَّن في كليهما ، فضمائر الغياب يُشار إليها لكونها الحلقة الأضعف في دائرة المعارف ، قال : ((إنّما خلطها بالمبهمة لقرب الشبه بينهما ، ولأنّه بنى عليها مسائل في هذا الباب))^(٢) .

يبدو أنّ منشأ الخلاف في عدّ الضمائر من المبهمات أو إخراجها منها يعود إلى اختلاف النحاة في تحديد مفهوم الإبهام وطبيعته ، ويتّضح ذلك من كلام الرضيّ في معرض حديثه عن علّة بناء أسماء الإشارة وردّه على من ألحق بها الضمائر ، إذ قال : ((قيل : إنّما بُنيت لاحتياجها إلى القرينة الرافعة لإبهامها ، وهي : إمّا الإشارة الحسيّة، أو الوصفية ، نحو : هذا الرجل، كاحتياج الحرف إلى غيره ؛ فإن قلت المضمّرات... داخلّة في الحد ، لأنّ المضمّر يُشار به إلى المعهود إليه ... فالجواب : إنّ المراد بقولنا : مشار إليه: ما أُشير إليه إشارة حسيّة أي بالجوارح والأعضاء ، لا عقليّة ، والأسماء المذكورة ليست كذلك فإنّها للمشار إليه إشارة عقليّة ذهنيّة))^(٣) .

إنّ النظر في نصّ الرضيّ يكشف عن أمورٍ هي :

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٠٥/٢ .

(٢) نفسه .

(٣) شرح الرضيّ على كافية ابن الحاجب : ٤٧٢/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

أولاً : وجود نوعين من الإشارة , هما :

أ- الإشارة الحسية , وهي التي تدرك عن طريق الحواس .

ب- الإشارة الذهنية , وهي التي تدرك بالذهن و العقل .

ثانياً : أنَّ الإشارة الحسية لا تتحقق إلاَّ مع أسماء الإشارة , ((وإن أُشيرَ بها إلى محسوس غير مُشاهد , نحو ﴿ تلك الجنة ﴾ , فلتصويره كالمُشاهد , وكذلك إن أُشيرَ بها إلى ما يستحيل احساسه ومشاهدته نحو : ﴿ ذلكم الله ﴾ ((^(١) , أمَّا الضمائر فيتعدَّر الإشارة بها إشارة حسية , وإنَّما ذهنية (عقلية) .

ثالثاً : الإبهام عند الرضيّ يختصُّ بما تتحقَّق فيه الإشارة الحسية أمَّا ما كانت إجالته ذهنية محضة فلا يدخل في حدِّ المبهمات .

ومن هنا يمكن تفسير هذا الجانب من الخلاف الواقع بين النحاة , في عدِّ الضمائر من المبهمات أو إخراجها منها ؛ إذ يبدو أنَّ القائلين بعدّها من المبهمات انطلقوا من إمكانية اشتراكها مع أسماء الإشارة في الافتقار إلى مرجع يعيّن مدلولها , والذين يرون أنَّها لا تدخل في حد الإضمار , رأوا أنها لا تملك إلاَّ الإشارة الذهنية ولعلَّ هذا يوضِّح قول السيرافي (إنَّما خلطها بالمبهمة لقرب الشبه بينهما , ولأنَّه بنى عليها مسائل في الباب) , أي أنَّ سيبويه خلط الضمائر بالمبهمات للشبه بينهما من

(١) شرح الرضيّ على الكافية : ٢ / ٤٧٢ , والآية الكريمة : مريم : ٦٣ , والآية الكريمة الأخرى : يونس : ٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

جهة ولاشتراكهما في الوظيفة الإحالية مع اختلاف طبيعة الإشارة التي يعتمد عليها كل منهما .

لا مانع عند السيرافي من عدّ ضميري المتكلم والمخاطب من المبهمات وذلك لأنهما يشار بهما إشارة حسية في مقام الخطاب , فيكون المتكلم أو المخاطب مُشاهدين في لحظة التلقظ ممّا يكسبهما بعداً إشارياً مقامياً , على خلاف ضمير الغياب الذي تحال دلالته إلى مرجع غير حاضر في المقام التخاطبي , فعالج السيرافي الإشارة بالضمير معالجة وظيفية تواصلية , إذ نظر إلى نوع الإحالة التي يؤديها الضمير داخل السياق , ولذا أجاز دخول حرف التنبيه المختص باسم الإشارة على ضميري المتكلم والمخاطب , نحو : (ها أنا ذا) , و(ها أنت ذا) إذ يتحقّق بذلك حضور المرجع في مقام الخطاب وإمكان تعيينه بالإشارة المباشرة , مع اشتراكهما في الإبهام^(١) وهو تعليل يكشف عن تصوّر وظيفي للضمير , و يقول المتكلم : ((ها أنا ذا) أي الحاضر عندك أنا , وإنّما يقع جواباً , ويقول القائل : (أين من يقوم بالأمر؟) فيقول له الآخر : (ها أنا ذا) أو (ها أنت ذا) , أي أنا في ذلك الموضع))^(٢) , ويكشف هذا التمثيل عن أنّ الضمير يكتسب دلالته الإشارية من مقام الخطاب , حيث يتحدّد المرجع من خلال الحضور السياقي , لا من خلال بنية اللفظ وحدها فكأنّك تقول انظر لي أنا هنا .

(١) ينظر : شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٠٩/٣ .

(٢) نفسه : ٩٧/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فلم تكن الضمائر مجرد وحدات لغوية تسندُ إلى وحدات لغوية أخرى بل لها دورٌ فعّال في خدمة العملية التواصلية وأساس لكل عملية تخاطبية ، وهذا ما قال به اللساني أنريكي أندرسون : ((إنَّ الضمائر تضعُ الأساس الصلب الذي تتم عليه قواعد الاتصال اللغوي))^(١) ، وإنَّ اختيار ضمير بعينه دون سواه هو توجيه وتنظيم للخطاب التواصلية الذي يوجّه الدلالة من العموم إلى الخصوص ، وقد يكون السيرافي لأجل هذه الوظائف قد ميّز بين الضمائر من جهة قوّة تعريفها ، فأعرف الضمائر عنده هو : ((المتكلّم ، ثمّ المخاطب ، ثمّ الغائب ، وإنّما صار المتكلّم أعرفهم لأنّه لا يوهّمك فيه غيره))^(٢) .

و قد فصل القول في الدلالات الإشارية للضمائر ، داخل العملية التخاطبية ، فضمير المتكلّم ((له لفظٌ ينفردُ به لا يُشاركه فيه غيره كما لا يُشاركه غيره في لفظه ، وعبارته عن نفسه و غيره ، إذ كان لا يجوز أن يكون كلام واحد من متكلّمين ، ولفظ واحد من لافظين ، ومن أجل ذلك يستوي لفظ المتكلّم المذكر والمؤنث ، لأنّ الفصل بين المؤنث والمذكر إنّما يُحتاج إليه لئلا يُتوهّم غير المقصود في موضع المقصود))^(٣) .

يبين السيرافي ميزة ضمير المتكلّم عن باقي الضمائر في كونه قيمة تمييزية في حد ذاتها ، ((وأمكنها في التعريف ضمير المتكلّم ؛ لأنّه يدلُّ على المراد بنفسه

(١) القصة القصيرة ، انريكي اندرسون ، ترجمة : علي إبراهيم منوفي : ٤٦ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠٣/٣ .

(٣) نفسه : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وبمشاهدة مدلوله وبعدم صلاحيته لغيره ((^(١)) , لذا تساوى فيها لفظ المذكر و المؤنث لأنَّ جنس المتكلم معروف كون المتكلم لا يكون إلَّا حاضراً مُشاهداً , فلا يمكن أن يكون لمتكلمين نفس الأداء في الخطاب الكلامي الواحد لذا سيتميَّز جنس المتكلم من سياق الخطاب .

أمَّا ضمير المخاطب ((فإنه يفصلُ بين لفظ مذكَّره ولفظ مؤنَّته , ويثني ويجمع ... وفصل بين المذكر والمؤنث في الخطاب لأنَّه قد يكون بحضرة المتكلم اثنان من المؤنث والمذكر وهو مُقبل عليهما , فيخاطب أحدهما فلا يُعرف حتَّى ينبَّهه بعلامته , وثني المخاطب وجمع لما ذكرناه من انصراف الخطاب إلى بعض الحاضرين دون بعض فعلمَ بالثنائية والجمع المقصود منهم بالخطاب))^(٢) .

يبينُ السيرافي في هذا النص أنَّ ضمائر الخطاب قد وُضِعَ لها علامات فارقة للتمييز ما بين المذكر والمؤنث وذلك لأنَّ المخاطب ((يتلو المتكلم بالحضور والمشاهدة))^(٣) , فوُضِعَ للمثنى ضميراً يميِّزه عن المجموع لأنَّ استعمال الضمائر قد يكون في حضرة مخاطبين متعددين حضوراً عينياً , فلئلاَّ يحدث توهم في المقصود من المخاطب ؛ وجب وجود قيم تمييزية تبين المقصود من الخطاب دون غيره.

يظهر ممَّا تقدَّم أنَّ السيرافي قد عالج مسألة تنوع الضمائر معالجة وظيفية تواصلية إذ كان يعلل أسباب ثبوت الضمير مع المتكلم على اختلاف جنسه لأنَّه

(١) شرح التسهيل , ابن مالك , تحقيق : د. عبد الرحمن السيّد , و د. محمد بدوي المختون : ١٢٧/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٠٤/٣ .

(٣) نفسه : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ملاحظ عينيًّا لحظة التلفظ بالقول , وتتوَّع الأمر مع المخاطب كذلك حاجة تواصلية هي تمكين المخاطبين من معرفة المقصود على وجه الدقة فتحقق الوظيفة التواصلية للغة غايتها عن طريق إيصال الرسالة إلى متلقِّيها على وجه الدقة بعيدًا عن اللبس .

إنَّ عملية التواصل اللساني تقتضي تبادل الحوار بين الشخصيات المتخاطبة داخل الدائرة اللغوية , وهذا التبادل يؤدي إلى جعل المتكلِّم مخاطبًا والمخاطب متكلِّمًا , وهذا التبادل قد يؤدي إلى اللبس في الكلام عند السامع لذا جيء بهذا التقسيم للضمائر لكي يكون كل صنفٍ منها مختصًّا بجانب واحد من جوانب الكلام فتفيد المتحاورين التثبُّت من المعلومة وعدم الخلط بين الشخص^(١) , قال ابن يعيش : ((جعلوا تغيَّر صيغها عوضًا من الإعراب إذ كانت مبنية))^(٢).

أمَّا السيرافي فقد فصلَّ القول في الدلالات الإشارية للضمائر , داخل العملية التخاطبية , فضمير المتكلِّم ((له لفظٌ ينفردُ به لا يُشاركه فيه غيره كما لا يُشاركه غيره في لفظه , وعبارته عن نفسه و غيره , إذ كان لا يجوز أن يكون كلام واحد من متكلِّمين , ولفظ واحد من لافظين , ومن أجل ذلك يستوي لفظُ المتكلِّم المذكر والمؤنَّث , لأنَّ الفصل بين المؤنَّث والمذكر إنما يُحتاج إليه لئلا يُتوهَّم غير المقصود في موضع المقصود))^(٣) .

(١) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٨-١٩ .

(٢) شرح المفصل , ابن يعيش : ٩٧/٣ .

(٣) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يبيّن السيرافي ميزة ضمير المتكلم عن باقي الضمائر في كونه قيمة تمييزية في حد ذاتها ، ((وأمكنها في التعريف ضمير المتكلم ؛ لأنه يدل على المراد بنفسه وبمشاهدة مدلوله وبعدم صلاحيته لغيره))^(١) ، لذا تساوى فيها لفظ المذكر و المؤنث لأنّ جنس المتكلم معروف كون المتكلم لا يكون إلّا حاضراً مُشاهداً ، فلا يمكن أن يكون لمتكلمين الأداء نفسه في الخطاب الكلامي الواحد لذا سيتميّز جنس المتكلم من سياق الخطاب .

أمّا ضمير المخاطب ((فإنه يفصل بين لفظ مذكره ولفظ مؤنثه ، ويثني وجمع... وفصل بين المذكر والمؤنث في الخطاب لأنه قد يكون بحضرة المتكلم اثنان من المؤنث والمذكر وهو مقبل عليهما ، فيخاطب أحدهما فلا يُعرف حتّى ينبّهه بعلامته ، وثنى المخاطب وجمع لما ذكرناه من انصراف الخطاب إلى بعض الحاضرين دون بعض فعلم بالتثنية والجمع المقصود منهم بالخطاب))^(٢) .

يبيّن السيرافي في النص السابق أنّ ضمائر الخطاب قد وُضِعَ لها علامات فارقة للتمييز ما بين المذكر والمؤنث وذلك لأنّ المخاطب ((يتلو المتكلم بالحضور والمشاهدة))^(٣) ، فوُضِعَ للمثنى ضميراً يميّزه عن المجموع لأنّ استعمال الضمائر قد يكون في حضرة مخاطبين متعدّدين حضور عين ، فلئلاّ يحدث توهم في المقصود من المخاطب ؛ وجب وجود قيم تمييزية تبين المقصود من الخطاب دون غيره.

(١) شرح التسهيل ، ابن مالك : ١٢٧/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠٤/٣ .

(٣) نفسه : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يظهر ممّا تقدّم أنّ السيرافيّ قد عالج مسألة تنوع الضمائر معالجة وظيفيّة تواصلية حيث كان يعلل أسباب ثبوت الضمير مع المتكلم على اختلاف جنسه لأنّ ملاحظ العين لحظة التلفظ بالقول ، وتنوّع الأمر مع المخاطب كذلك حاجة تواصلية هي تمكين المخاطبين من معرفة المقصود على وجه الدقّة فتحقق الوظيفة التواصلية للغة غايتها عن طريق إيصال الرسالة إلى متلقّيها على وجه الدقّة بعيداً عن اللبس .

إنّ عمليّة التواصل اللساني تقتضي تبادل الحوار بين الشخصيات المتخاطبة داخل الدائرة اللغوية ، وهذا التبادل يؤدّي إلى جعل المتكلم مخاطباً والمخاطب متكلماً ، وهذا التبادل قد يؤدّي إلى اللبس في الكلام عند السامع لذا جيء بهذا التقسيم للضمائر لكي يكون كل صنفٍ منها مختصّاً بجانب واحد من جوانب الكلام فتفيد المتحاورون التثبّت من المعلومة وعدم الخلط بين الشخص^(١) ، قال ابن يعيش : ((جعلوا تغيّر صيغها عوضاً من الإعراب إذ كانت مبنية))^(٢).

وانعدام الوهم مع ضمير المتكلم لجهة أنّ ((المتكلم قد عرّف حسّاً ، وإن جهل نسبته ؛ لأنّ الذي يسمع كلامه إن لم يكن بينهما حجاب فهو يعاينه ، وإن كان بينهما حجاب فقد أحسّ كلامه بسمعه إيّاه))^(٣) .

إن ضمير المتكلم يحمل إشارة حسية وهي المعاينة بالنظر والسمع ، فإن سأل سائل ، من المتكلم فلا يكون جهلاً بملقي الرسالة وإنما قد يكون جهلاً بنسبه ، لأنّه

(١) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٨-١٩ .

(٢) شرح المفصل ، ابن يعيش : ٩٧/٣ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافيّ : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

حاضر مُعَايَن في لحظة التلقُّظ فيكون معروفا بالنظر والسمع , وإن كان بين المتكلم والمخاطب حجاب فهو أيضاً معلوماً عند المخاطب بحاسة السمع , فيعتمدُ السيرافي على قرينة السمع في حال غياب قرينة النظر , وتكون حجة كافية لدفع الوهم عن السامع .

وكذلك يراعي السيرافي الجانب الإدراكي بالسماع لضمير المتكلم , بقوله : ((أنَّ رجلاً محجوباً لو أحسَّ بجماعة بقربه فسمع واحداً منهم يقول : أنا قتلْتُ فلاناً, ... علِمَ أنَّ القاتل هو المتكلم , لا يذهب وهمه إلى غيره))^(١) , فحاسة السمع عند المخاطب أو السامع هي ما دلَّته على شخص القاتل وإن كان محجوباً عن النظر , وهو مما يقوِّي الإشارة التي يحملها ضمير التكلم , ولم يكن هذا الوصف مقتصرًا على القدماء في مُعالجتهم لضمير التكلم (الأنا) , فالأمر مُقاربٌ لما صنَّفه اللسانيون التواصليون من أمثال بوهلر وتبعه في ذلك جاكبسون , الذي صنَّف الوظائف اللغوية على أسس ثلاثة هي المتكلم , والمخاطب, والمرجع و زاد جاكبسون وظائف أخرى تضمَّنت الرسالة والسنن والوظيفة الشعرية , لكنَّه لم يستغن عن تصنيف بوهلر الذي اعتمد أولى الوظائف وهي الوظيفة التعبيرية (الانفعالية) القائمة على التعبير عن عواطف المتكلم وما يشعر به من انفعالات وجدانية , والوظيفة الثانية : وهي الوظيفة الإفهامية , التي تقوم بدورها حول فهم المخاطب للرسالة وما يترتَّب على فهم من

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٠٣/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ردود أفعال , والوظيفة الثالثة , وهي الوظيفة المرجعية التي تقوم على النظر للسياق اللغوي والخارج لغوي أو الموضوع المتحدّث عنه في العملية التخاطبية^(١) .

ويأتي ضمير المخاطب أقل تأثيراً من ضمير المتكلم , ويكون ضمير الغائب أضعف الضمائر في حلقة المعارف بحسب تعبير السيرافي , إذ قال : ((وأضعفها تعريفاً (كناية الغائب) ؛ لأنها تكون كناية عن معرفة ونكرة , حتّى قال بعض النحويين : (كناية النكرة بمنزلة النكرة)))^(٢) .

إنّ أساس ترتيب المعارف بحسب قوّة التعريف عائدٌ إلى وجود القرينة وعدمها في تحديد العائد عليه , وعلى هذا كان ضمير الغياب الأقل تعريفاً من بين أقرانه , فضمائر التكلم والخطاب لا تحتاج إلى قرينة دالة عليها وذلك لأنها مُشاهدة بالحس , أمّا ضمائر الغياب فهي لا تقوم بنفسها , لاختلاف نوع الإشارة التي تحملها , فالوظيفة الإشاريّة لضمير الغائب هي وظيفة ذهنيّة , ليس فيها حضور حسيّ للمشار إليه , إنّ الكناية في عرف النحاة والبلاغيين هي : ((كل ما يتكلّم به الإنسان ويريد به غيره , فهي لفظٌ أريد به غير معناه الذي وُضِعَ له , أو هي التعويض عن الاسم الصريح بعلامةٍ أخرى معوّضة))^(٣) , ((والضمير مصطلحٌ بصريّ , أمّا الكوفيون

(١) قضايا شعريّة , رومان جاكسون : ٣٠ - ٣٣ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٠٣/٣ .

(٣) لسان العرب : ٣٩٢٤/٥ , مادّة (كنى)

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فيسمونه الكناية ((^(١)) , فالكناية تحتاجُ إلى أمرين: الأول : مغيبٌ مستور , وهو هنا الاسم العلم , والآخر : مذكور , وهو علامة الإضمار^(٢).

لذا كان لأبْد من مرجع يعود عليه , وإذا كان هذا المرجع نكرةً أيضاً لم يستفد المخاطب سوى التخصيص , قال السيرافي : ((وضمير النكرة لا يستفيد منه المخاطب أكثر من النكرة , ألا ترى أن قائلاً لو قال : (مررتُ برجلٍ وكَلَّمْتَه) , ولم تكن الهاء عائدة على رجل بعينه من بين الرجال , وإن كانت لهاء معرفة من حيث علم المخاطب أنها تعود إلى ذلك الرجل المذكور من غير أن يكون تمييز له من بين الرجال))^(٣) .

يبينُ هذا النص سبب ذكر السيرافي لمصطلح كناية النكرة وكناية المعرفة, وذلك لأنَّ ضمير الغياب سواء أكان كناية عن المعرفة أم عن النكرة , لا يزيد تخصيص الإشارة إلى الاسم المكنى عنه لأنَّه وإن كان معرفةً إلاَّ أنَّه بمنزلة النكرة, إذا كُنِّيَ به عن النكرة , فوظيفة ضمير الغائب هي احضار المُشار إليه ذهنياً ليكون ((بمنزلة المُشاهد في الحكم))^(٤).

ثانياً : أسماء الإشارة :

(١) معاني النَّحو , فاضل صالح السامرائي : ٤٢/١

(٢) ينظر : دراسات لسانيةً صوريةً للوحدات اللسانية الدالة , بابا أحمد رضا : ٣٩-٤٠ .

(٣) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٠٦ / ١ .

(٤) نفسه : ١٠٢/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

أُطلقَ على أسماء الإشارة هي الأخرى تسمية المبهمات ، وذلك لما ذكره سيبويه حيثُ جمع تحت طائفة هذا البند أسماء الإشارة وضمير الغيبة من بين الضمائر^(١) ، لكنّ التسمية الأشهر هي أسماء الإشارة ، وذلك للتمييز بينها وبين باقي العناصر التي تقع تحت طائفة المبهمات ، وانتقل النحاة إلى هذه التسمية لأنّهم أرادوا العدول عن تسمية النحاة ، لإخراجها من صنف الضمائر^(٢) ، وسمّيت الإشارة بهذا الاسم ؛ لأنّنا نشير إلى ما نريد تعيينه بين أفراد جنسه ، قال المبرّد: ((وإذا قلت جاني هذا فقد أومأت له إلى واحد بحضرتك وبحضرتك أشياء كثيرة ، فإنّما ينبغي أن تبين له عن الجنس الذي أومأت إليه ليفصل ذلك من جميع ما بحضرتك ممّا يراه))^(٣) ، إذ يكشف هذا النص عن إشارات تواصلية لأسماء الإشارة ، إذ تقوم على توجيه انتباه المخاطب إلى مرجع معيّن وتمييزه من سائر الموجودات المحيطة به ، بما يحقق وضوح الدلالة ويمنع اللبس في عملية التخاطب.

وذكر ابن يعيش أنّ هذه التسمية للشيء بمعناه ؛ لأنّ معنى الإشارة هو الإيماء قال : ((ذا إشارة على القريب بتجرّدها من قرينة تدلّ على البعيد فكانت على بابها من إفادة قرب المشار إليه لأنّ حقيقة الإشارة الإيماء إلى الحاضر))^(٤) ويشترك اسم الإشارة والمضمر في المدلول فكُلّها يدل على كون مطلق أو كليّ هو الحضور أو الغيبة .

(١) ينظر : كتاب سيبويه : ٧٧-٧٨ .

(٢) أصول تحليل الخطاب : ١٠٦٠ / ٢ - ١٠٦١ .

(٣) المقتضب : ٢٢٠ / ٤ .

(٤) شرح المفصل لابن يعيش : ١٣٥ / ٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وذكر الدكتور تمام حسّان أنّ : ((الحضور قد يكون حضور تكلم كأنا ونحن , وقد يكون حضور إشارة كهذا وفروعها))^(١) , وتعدّ أسماء الإشارة من المعارف , وعلل سيبويه ذلك بقوله : ((إنّما صارت معرفة لأنّها صارت أسماء إشارة إلى الشيء دون سائر أمته))^(٢).

ولمّا كانت أسماء الإشارة من المبهمات فهي بحاجة إلى ما يقوم بتخصيصها فاجترح أن يكون لها موصوف يصفها , ومنع النحاة أن توصف بالألف واللام , وذلك لكونها أخص تعريفاً منه , لأنّ أسماء الإشارة متضمنة المعرفة الحسية والقلبية , في حين أنّ المعرّف ب(ال) , يعرف بالمعرفة القلبية على الأغلب قال سيبويه : ((وإنّما منع هذا أن يكون صفة للطويل والرجل أنّ المخبر أراد أن يقرب به شيئاً ويشير إليه لتعرفه بقلبك وبعينك , فلذلك صار هذا ينعت بالطويل , ولا ينعت الطويل بهذا))^(٣) , قال السيرافي : ((مذهب سيبويه أنّ نعت المعرفة إذا كان أخص من المنعوت لم يجز , وإنّ حقّ الكلام أن يجعل الأخص هو الذي يبدأ به , فإن اكتفى به المخاطب لم يحتج إلى أن يأتي بنعت وإلا زدت من المعرفة ما يزداد به المخاطب معرفة ... ولم يجز سيبويه نعته بما فيه الألف واللام , لأنّه يراه أخص منه ... وقد بين سيبويه

(١) اللغة العربية مبناها ومعناها : ١٠٨ .

(٢) كتاب سيبويه : ٥/٢ , و ينظر : المقتضب : ٤/ ٢٧٧ .

(٣) كتاب سيبويه : ٧/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

أنَّ المبهم أخصُّ بمعرفة العين , يعني : المشاهدة ومعرفة القلب له , وما اجتمع له^(١) .

يتَّضحُ من النَّص السابق تأكيد سيبويه ومن بعده السيرافي أنَّ علَّة منع وصف أسماء الإشارة بالمعرف (بال) لأنَّ أسماء الإشارة تحقق قدرًا من المعرفة أكبر ممَّا يحقُّه الاسم المعرفة , فإذا سأل سائل كيف لاسم مبهم أن يكون أكثر قدرة على تحقيق التواصل من الاسم المعرفة في الأصل , فردَّ سيبويه بأنَّ الأسماء المبهمة على السواء تقتضي مشارًا إليه محسوس بمعرفة العين والقلب وما يحقُّه هذا النوع من المعرفة أكثر فائدة في تحقيق التواصل البصري والحسي للمشار إليه, و بيَّن الدكتور أحمد مختار عمر أنَّ الإشارة من لغات الجسد وهي (التلويح أو الإيماء)^(٢) فتكون الإشارة مشاهدة , و يكون العامل عند السيرافي في نصب (منطلقًا) على الحال في قولنا : هذا عبدُ الله منطلقًا إمَّا التنبيه وإمَّا الإشارة , يقول: ((فأما التنبيه فهو بـ(هاء) وأما الإشارة فهي بـ(ذا) , فإذا أعملت التنبيه فالتقدير: انظر إليه منطلقًا , وإذا أعملت الإشارة فالتقدير : أشير إليه منطلقًا , والمقصد أنَّك أردت أن تنبّه المخاطب لـ(عبد الله) في حال انطلاقه^(٣) .

ركّز النُّحاة على مسألة الإشارة الحسية مع أسماء الإشارة التي لاشكَّ أنَّها ستتحوَّل إلى إشارة قلبية , فالمعرفة هي ما تحقَّق أقصى استفادة من المتكلِّم

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٤٠ - ٣٤١ .

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة , د. أحمد مختار عمر , (ش . و . ر) , ١٢٤٥ .

(٣) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٤٠٦ / ٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

للمخاطب , وهذا كان دأب النحاة الدائم في تمييز مسألة الوصف والموصوف , فكان (هذا الطويل) أخص وأعرف من (الطويل هذا) , وهذا مما قال به عدد من النحاة عند حديثهم في أسماء الإشارة فعندهم ((قسم من المعرفة , وهو ما وُضِعَ لمُشار إليه أي لمعنى يُشار إليه إشارة حسية بالجوارح والأعضاء , لأنَّ الإشارة حقيقتية في الاشارة الحسية))^(١) , إذاً فهناك فرق واسع بين ما يُشار إليه إشارة حسية وما يُشار إليه إشارة ذهنية قلبية , فالأول له ميزة عن الآخر وقد يوهم هذا الحديث بأنَّ الأمر متعلق بالمتكلم لا بالمخاطب , وحقيقة الأمر أنَّه متعلق بكلا الطرفين , فالغاية من منع وصف اسم الإشارة بالألف واللام أنها تكون معرفة أكثر منه , فالمشاهدة الحسية بواسطة النظر تحقق أكبر قدرًا من التَّواصل بين أطراف العملية الكلامية , وذلك ((لأنَّ التنبيه في معنى انظر))^(٢).

ثمَّ أوردَ السيرافيَّ اعتراضَ المعارض على ما قاله سيبويه , قال : ((فإن قال قائل : فقد جعل سيبويه المبهم نعتًا للعلم والمضاف , كقولك مررت بزيد هذا , ويعمرو ذاك , ومررتُ بصاحبك هذا , وقد اجتمعت فيه معرفة العين ومعرفة القلب . ولم تجتمع هاتان المعرفتان في : زيد وصاحبك))^(٣) أي لما كان المعرّف بالألف واللام لا يكون وصفًا لاسم الإشارة لاقتصاره على المعرفة القلبية دون الحسية فكيف يجوز أن يكون وصفًا لاسم العلم وهو الآخر مقتصرٌ على المعرفة القلبية ؟ فأجاب

(١) الكشف للتهانوي , تحقيق : د. علي دحروج : ٧١٩/١١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٣/١ .

(٣) نفسه : ٣٤١ / ٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

السيرافيّ أيضًا بما نقله عن سيبويه : ((الجواب إنّ ذكر هذا وذلك بعد زيد وبعد صاحبك , يذهب به مذهب الحاضر أو المشاهد أو القريب , وبذلك مذهب البعيد أو المنتحي))^(١) , فاعتمد السيرافيّ هاهنا على التقدير المكاني للمشار إليه من حيث القرب والبعد فأصبح بالإمكان مشاهدته , وتحقق المعرفتين , هذا من وجه ((و وجه آخر في نعت زيد والاسم العلم بهذا على ترتيب سيبويه . أنا نقول: إنّ وضع الاسم العلم في أحواله لشيء يُبين به من سائر الأشخاص كوضع هذا في الإشارة لشيء بعينه , فاجتمعا في معنى ما وصفنا والمعرفة في أوّل أحوالها , وصار كالمشار إليه في وضع الاسم عليه وحده كوضع الإشارة على المشار إليه))^(٢) .

فإنّ هناك قاسمًا مشتركًا بين اسم العلم واسم الإشارة , وهو إمكانية الإشارة إلى مشار إليه مدرك حسيًا بالمشاهدة , كما أنّ الوصف باسم الإشارة للعلم وللمضاف لا يغيرهما عن تعريفهما , قال السيرافيّ : ((فإن قيل مررت بزيد هذا , وبصاحبك هذا . فكأنّه قال : مررتُ بزيد الحاضر . ولم يغيّر هذا تعريف زيد ولا تعريف صاحبك باقترانه معهما))^(٣) .

إنّ المعرّف بالألف واللام اكتسب التعريف من كونه متعرّف عليه مسبق من قبل المتحاورين , ولا يلزم معرفته أن يكون حاضرًا مشاهدًا أثناء العملية التخاطبية, وبذا لا يمكن أن يُشار إليه إشارة مكانية لتعرّف به يؤكّد ذلك قول السيرافيّ : ((ويجوز أن

(١) نفسه .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ: ٣٤٢/٢ .

(٣) نفسه : ٣٤٢/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يُنعت بالصفة التي فيها الألف واللام من حيث جاز أن تُنقل الصفة التي فيها الألف واللام من تعريف العهد إلى تعريف الحضرة والإشارة، وذلك أنك تقول : مررتُ بالظريف ، فتكون الألف واللام في الظريف للعهد . تقول : مررت بهذا الظريف ، فيصير للإشارة ((^(١)) .

فتكون الوظيفة الإشارية للألف واللام هي الإشارة إلى شيء متعاهد عليه بين المتكلم والمخاطب ، والمشار إليه غير حاضر في العملية التخاطبية ، فإذا لم يكن هذا العهد موجوداً استعان المتكلم باسم الإشارة لإيصال المعنى للمخاطب ، قال السيرافي: ((وقد يكون الشيء بحضرة اثنين لم يكن بينهما فيه عهد ، فيريد أحدهما الإخبار عنه معروفاً له ، فلا يمكنه الإخبار عنه لعدم العهد بينه وبين مخاطبه فيه ، فيأتي بأسماء الإشارة فيتوصل بها وينتقل من تعريف العهد إلى تعريف الإشارة))^(٢) ، فإمكانية إدراك (المعرف بال) إدراكاً حسيّاً غير متوافرة معه ، إلا إذا دُعِم استعماله باسم الإشارة ، بخلاف المعرف بالعلمية والإضافة لذا كان استعمالهما وصفاً لاسم الإشارة لبيان القرب والبعد ممكنة بخلاف (المعرف بال) ، لعدم توفره للمشاهدة الحسية ، فلا يمكن أن يشار إليه مكانياً قريباً أو بعداً .

يَتَّضِحُ ممَّا سبق التقارب الواضح بين ما قال به السيرافي وكيف تعامل مع نصوص سيبويه حول أسماء الإشارة وما جاء به اللسانيون ، وذلك لأنَّ اسم الإشارة وما يليه كان موظفاً لخدمة التواصل اللغوي عن طريق تعزيزه بالأدلة الحسية كالسماع

(١) نفسه : ٢٣٩-٢٤٠ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٣٩/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

والنظر لوصف هذا المشار إليه بأوضح صورة فيكون اسم الإشارة وسيلة لتعزيز التواصل بين المتكلم والمخاطب , وذلك لأنَّ السيرافي ركَّز في حديثه عن المشار إليه ونوعه إن كان علمًا أو محلي بآل حول إمكانية إدراكه حسيًا أو لا , فالمدرك بالعين هو أقوى أنواع المعرفة وكلما زادت قيمة المعرفة ارتفعت القدرة التواصلية للمتخاطبين , فكان أصل استعمال الإشارة في المشاهد المحسوس , وحين استعمل في غير المحسوس كان الغرض منه إنزاله منزلة المشاهد , قال تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْجَرْمُونَ ﴾^(١) فيروم اسم الإشارة إلى تمييز الشيء المقصود أكمل تمييز , وهو مما يعزز سبل التواصل بين المتحاورين^(٢) .

ثالثًا : الإخبار بظرف الزمان :

مِمَّا يُلْحَظُ فِي معالجة الظروف عند النُّحَاة أَنَّهُمْ لَمْ يَفْصَلُوا بَيْنَ التَّوْجِيهِ النَّحْوِيِّ وَالدَّلَالَةِ الْمَعْجَمِيَّةِ , إِذْ ظَلَّتْ الْعِلَاقَةُ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى حَاضِرَةً مَعَ أَيِّ قَاعِدَةٍ يَضَعُونَهَا لِبِنَاءِ الْحُكْمِ النَّحْوِيِّ , فَالْعِلَاقَةُ بَيْنَ اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى تَكَادُ تَكُونُ مُشَاهِدَةً لِمَنْ يَتَأَمَّلُهَا إِذْ يَتَبَيَّنُ أَنَّ عُنَاوِرَ الْمَعْنَى كَانَتْ مِنْ جُمْلَةِ الْأُمُورِ الَّتِي أُخِذَتْ بِالْحِسَابِ عِنْدَ بَدْءِ النَّظَرِ النَّحْوِيِّ^(٣) , فَالظَّرْفُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْوَعَاءُ^(٤) , فَالْصَّقَا بِالظَّرُوفِ فِكْرَةُ الْوَعَائِيَّةِ بِنُوعِهَا الزَّمَانِيِّ وَالْمَكَانِيِّ , قَالَ ابْنُ يَعِيشَ : ((اَعْلَمْ أَنَّ الظَّرْفَ مَا كَانَ

(١) الرحمن : ٤٣ .

(٢) ينظر : معاني النَّحْوِ : ٨٨/١ .

(٣) ينظر : المعنى وبناء القاعدة النُّحَوِيَّة , د. محمد حسن جاسم , بحث منشور : ٦٨ .

(٤) ينظر : لسان العرب : ٢٧٤٨ / ٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وعاء لشيء وتسمّى الأواني ظروفًا لأنّها أوعية لما يُجعل فيها وقيل للأزمنة والأمكنة ظروف لأنّ الأفعال توجد فيها فصارت كالأوعية لها ^(١) .

وبعدّ ظرف الزمان اسمًا يدلُّ على زمنٍ مُعيّن وقع فيه ذلك الحدث , وقد أفرد النحاة له عناية خاصّة لما يؤدّيهِ من دور في تحديد الإطار الزمنيّ وربطها بسياق الاستعمال , وقد أشار السيرافيّ إلى هذا المعنى بقوله : ((الظروف على ضربين أحدهما : أسماء الزمان , والآخر أسماء المكان , فأما أسماء الزمان فإنّها تكون ظروفًا للمصادر وأخبارًا لها كقولنا القتال يوم الجمعة , ورحلنا يوم الخميس)) ^(٢) , وقد راعى النحاة عند الإخبار بظرف الزمان العلاقات الدلالية القائمة بين الحدث والزمن الذي يقع فيه فلم ينظروا إلى الظروف بوصفها عنصرًا تركيبياً مجرداً ؛ بل بوصفه مكوّنًا يُسهّم في استكمال المعنى وفي هذا قال ابن السراج : ((وأما الظرف من الزمان , فنحو قولك القتال يوم الجمعة , والشخص يوم الخميس , كأنّك قلت : القتال مستقر يوم الجمعة أو وقع في يوم الجمعة والشخص واقع في يوم الخميس فت حذف الخبر وتقيم الظرف مقام المحذوف)) ^(٣) , يدلُّ ذلك على أنّ قبول الإخبار بظرف الزمان قائمٌ على وجود علاقة دلالية بين الحدث والزمن , بحيث يؤدّي الظرف وظيفة تقييد الحدث وتحديدِهِ , وهو ما يجعله عنصرًا فاعلاً في تحقيق الفائدة و إزالة الإبهام داخل العملية التواصلية .

(١) شرح المفصل , ابن يعيش : ٤١/٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ : ٥٣/٢ .

(٣) الأصول في النحو : ٦٣/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ويؤكد ذلك نص السيرافي بقوله : ((سائر ما يجعل الظرف خبراً له أنه منصوب بتقدير فعل هو استقرّ أو وقع أو حدث أو كان أو نحو ذلك))^(١) , تعقيباً على نص سيبويه في باب ما ينتصب من الأماكن والوقت ((وذلك لأنها ظروف توقع فيها الأشياء وتكون فيها فانتصبت لأنه موقع فيها , ويكون فيها , وعمل فيها ما قبلها))^(٢) فيكون الإخبار بظرف الزمان قائماً على العلاقة المعنوية بين الحدث والزمن , وهي علاقة تسهم في تحديد زمن الوقوع ورفع الإبهام عنه , بما يحقق أكبر قدر من الوضوح في العملية التواصلية .

يعلّل النحاة نصب ظرف الزمان بأنه نصب بفعل متروك إظهاره تقديره استقرّ أو حدث أو وقع أو كان أو نحو ذلك , فهي أسماء تدلّ على وقوع الشيء فيها وهو المعنى المتحصّل من الإخبار بظرف الزمان , وبذلك تكون الفائدة المتحصّلة من الإخبار بظرف الزمان هو تحقق هذا المعنى عند المخاطب , وهو مما تعنى به وظائف اللغة التواصلية القائمة على مبدأ الفائدة المتحصّلة من اللغة , الذي يسنده في هذا السياق العام للكلام , زيادة إلى دور المخاطب في تكوين المعنى التواصلية المتحصّل من ظرف الزمان .

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٢٩٣/٢ .

(٢) كتاب سيبويه : ٤٠٣ - ٤٠٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ومنع النُّحاة الإخبار عن الجثث^(١) بظروف الزمان في حين أجازوا له الإخبار عن المصدر , قال سيبويه : ((وجميع ظروف الزمان لا تكون ظروفًا للجثث))^(٢), وذكر المبرِّد : ((فأما الظروف من الزمان فإنَّها لا تتضمَّن الجثث))^(٣) وكانت العلَّة وراء ذلك عدم الاستقرار في هذه الظروف , قال : ((إذا قلتَ : (زيدٌ يوم الجمعة) فلا معنى لهذا , لأنَّ يوم الجمعة لا يخلو من زيد ولا غيره منه , ولا حي ولا ميِّت فلمَّا لم تكن فيه فائدة قال النُّحويُّون : لا تكون ظروف الزمان للجثث))^(٤), وهذا بخلاف الأمر مع المصادر فيمكن الإخبار عن المصدر بظرف الزمان, نحو قولك : (لقاءنا يوم الجمعة) ؛ ((لأنَّك تخبرُ أنَّه في هذا الوقت يقع , فها هنا فعل قد كان يجوز أن يخلو منه هذا الوقت))^(٥) .

وقد علَّل السيرافي ما ذكرَ بقوله : إنَّ ((ظروف الزمان إنَّما هي أشياء تحدث وتنقضي, ولا يثبت شيء منها , وما وُجِدَ من الزمان مشتمل على كل موجود , والجثث كُلُّها موجودة , فإذا جعلنا ظرف الزمان ظروفًا لبعض الجثث , وقد علِّم أنَّه قد اشتمل على الجثث كلها , فلا فائدة فيه , لأنَّنا إذا قلنا : زيد اليوم , وقد علِّم أنَّ

(١) قال ابن جنِّي : (اعلم أنَّ الظرف قد يقع خبرًا عن المبتدأ وهو على ضربين ظرف زمان وظرف مكان والمبتدأ على ضربين جنَّة وحدث فالجنَّة ما كان عبارة عن شخص نحو زيد وعمرو والحدث هو المصدر نحو القيام والقعود . فإذا كان المبتدأ جنَّة ووقع الظرف خبرًا عنه لم يكن ذلك الظرف إلا من ظروف المكان) , اللُّمع في العربية , ابن جنِّي : ٢٨ .

(٢) المقتضب : ٣٢٩/٤ .

(٣) نفسه .

(٤) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٧٢/٤ .

(٥) نفسه : ١٣٣/٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

اليوم قد اشتمل عليه وعلى غيره , فلا فائدة فيه , وأمّا المصادر فإنّها غير موجودة , وتحدث في أوقات , فإذا جُعِلَ ظرفُ الزمان لشيء من المصادر , فإنّما تدلُّ على حدوث ذلك المصدر في ذلك الزمان , وفيه فائدة يجوز أن لا يعلمها المخاطب ((^(١)

فالمراد من كلام السيرافي أنّ الإخبار بظرف الزمان لابدّ أن يكون فيه فائدة لا يعلمها المخاطب - خدمة للجانب التواصلية للغة - وإلا انعدمت الفائدة من الإخبار , فقولك (زيد يوم الجمعة) إخبارٌ للمخاطب أنّ زيداً موجودٌ يوم الجمعة وأنت تعلم أن يوم الجمعة لا يخلو من زيد وعمر , ومن حيٍّ وميتٍ , إذن لم تكن هناك فائدة تواصلية متحصّلة من الإخبار بظرف الزمان ؛ وذلك لأنّ ((زيداً وعمرًا وغيرهما من الموجودات تتساوى في الوصف بالوجود في هذا اليوم))^(٢) أمّا المصادر ((فهي أشياء حادثة معروفة بالأفعال في الماضي والاستقبال . فإذا قلنا : القتال يوم الجمعة , وإنّا نريد الدلالة على حدوثه في هذا اليوم , فكأنّا قلنا : القتال يحدث يوم الجمعة))^(٣) , إذن تتحصّل الفائدة من الإخبار بظرف الزمان عن المصدر لأنّ المتكلّم أفاد المخاطب زمنًا كان يجهله وهو زمن وقوع الحادثة , كما في قولهم الليلة الهلال فهي على تقدير الليلة حدوث الهلال أو طلوع الهلال فحذف المضاف و أُقيم المضاف إليه مقامه^(٤) واعتمد السيرافي على علم المخاطب من خلال السياق العام للكلام في

(١) نفسه : ٤٥٣/٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٠٧/٢ .

(٣) نفسه .

(٤) ينظر : شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٠٧ / ٢ , و اللمع في العربية : ٢٨ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

منع و جواز الإخبار عن الجثث بالظروف , فالإخبار بظرف الزمان عند السيرافي في أصله ((فعلٌ وُجِدَ فجعلَ وقتاً لفعل آخر في كونه معه , أو كونه قبله أو بعده , فإذا جعلت قيام زيد علامة لفعل يحدث بعده أو فعل يحدث قبله , أو فعل يحدث معه , فقد صيرته كالتأريخ لما قبله و بعده ؛ ألا ترى لو أن قائلًا قال لآخر ... خروجي يوم الجمعة عُلِمَ خروجه بوجود يوم الجمعة))^(١) .

يظهر من نص السيرافي أن ظروف الزمان هي ملفوظات تدلُّ على زمان يحدده السياق العام للنص بالقياس إلى لحظة التلفُّظ , فلحظة التلفُّظ تمثل مركز الحديث عن الزمن في النصِّ التواصلية وكذلك تمثل مرجعية القول بالنسبة للمخاطب , فعند قولك منذ ساعة يتحدّد الزمن على حسب لحظة التكلُّم به , واصطلاح السيرافي على تسميتها بالعلامات فهي تدلُّ على فعل يحدث بعد التلفُّظ أو قبله أو معه , فعند قولك خرجت يوم الجمعة علمت بوقوع هذا الخروج نسبة إلى ظرف الزمان (يوم الجمعة) , وفسرها بعضهم بأنها : ((المحدّدات الزمانية التي تربط عناصر الخطاب (المتكلِّم والمخاطب) بزمان الحدث اللغوي , أو هي الألفاظ الدالة على لحظة التلفُّظ , أو هي التي تحيل على زمان ما في الخطاب , فهي كلمات تدلُّ على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلُّم , فزمان الكلام هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام))^(٢) .

و تعدُّ الإشارة الزمانية علامة لغوية , لا يتحدّد مرجعها إلا في سياق الخطاب , فالإشاريّات تعمل على تفسير الملفوظات , وتحديد مجالها التبليغيّ التواصلية في

(١) شرح كتاب سيبويه للسيرافي : ٣ / ٣٣٢ .

(٢) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٢٠ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الخطاب عن طريق عناصر إشارية تحتويها تلك الملفوظات داخل سياقها المادي الذي قيلت فيه , ويظهر أنّ السيرافي عند معالجتها الظروف وغيرها ممّا أُصطلح عليه بالإشاريّات عند المحدثين لم يغفل عن الجانب التواصلية للغة فكان يسنّ القاعدة أو يمنعها على هذا الأساس فمنع الإخبار بظرف الزمان عن الجثث ؛ لأنّ هذا النوع من الإخبار لا يقدّم فائدة للمخاطب أو السامع , وثمّ لا يحقّق التواصل المرجو من اللغة .

أمّا على الجانب الآخر وهو الإخبار بالظرف عن المصدر فأجازوه لأنّه يحقّق فائدة في الكلام , فكلاً من النحاة والمحدثين نظروا إلى مركز الإشارة الزمانية داخل سياق التكلّم , في محاولة منهم لحل إشكالية العلاقة الزمنية والأحداث داخل الخطاب , بما يوجب تمام الفائدة التواصلية بالنسبة للمخاطب في تعيين زمن حصول الحدث^(١).

المبحث الثاني : الوظائف التواصلية للأساليب الإنشائية

جرى مصطلحُ الإنشاء على نوع من الكلام لا تُخبر به أنّك تفعل ولكن تُريد به أنّك توقعُ فعلاً و تُنشئ عملاً من غير أن يكون له حقيقة خارجية يطابقها أو يُخالفها , وقيل بأنّ الإنشاء يمثّل الجانب الحيّ من اللغة فإذا ((كان الخبر يمثّل اللغة في جانبها القارّ فإنّ الإنشاء يمثّلها في جانبها المتحرّك . فالأساليب الإنشائية

(١) ينظر : الزمن في اللغة العربية , أمحمد الملاح : ٤٥٥ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

...أبرز مظاهر اللغة التي تعبّر عن حيويّتها ((^(١)) وفاعليتها في توجيه الخطاب و إنجاز المقاصد التواصلية .

ويبدو أنّ هذه الحيويّة للخطاب الإنشائي قد تنبّه عليها النحاة الأوائل , قال ابن هشام (ت ٧٦١هـ) : ((إنّ الإنشاء إيقاع))^(٢) يُريدُ به إيقاعُ للفعل وكان هذا هو المائزُ بين صنفَي الطلب , الأوّل الطلب الخبري , وهو ما كان محكوماً بوقوع الفائدة وصدقها , والآخر الطلب الإنشائي , وهو ما يقتضي تحقيق إنجاز في العالم الخارجي , فهي مجموعة من التراكيب يستعملها المتكلّم لغرض إبلاغ المُخاطب ما يشعر به , فهي موضوعة لبيان , أمرٍ نفسيّ , ولم توضع لإيجاد المعنى في الخارج^(٣) , وقد أولت الدراسات في الجانب الإنشائي من اللغة عناية بالغة بالمستمع (المتلقّي) , وذلك لأنّ الإنشاء معتمدٌ على الجانب التواصلّي من اللغة فهو يُعنى بالفهم والإفهام , ففعل التلفّظ مشتملٌ على قولٍ مضمّر بحسب تعبير غرايس وقد أظهرت نظريّته أنّ المعنى في العمليّة التواصلية لا يُستخلصُ فقط ممّا يُقال صراحة , بل ممّا يُفهم ضمناً في سياق الفعل الكلامي^(٤) , والذي يؤدّي فعل التأثير هو القول المضمّر لا فعل التلفظ بما يحمله من نيّات تواصلية وإشارات غير صريحة , لذا

(١) خصائص الأسلوب في الشوقيّات , محمد الهادي الطرابلسي : ٣٤٩ .

(٢) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب , ابن هشام الأنصاري , تحقيق : د. مازن المبارك / محمد علي حمد علي : ١٠٠/ .

(٣) ينظر : دراسات في علم الأصول , علي الهاشمي الشاهرودي : ١٧٩-١٨٠ .

(٤) ينظر : آفاق جديدة : ٣٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وجب أن يُراعى حال المخاطب وفهمه حتى يحقق الأسلوب غرضه الذي سيق من أجله .

وقد تناول السيرافي الأساليب الإنشائية بوصفها وظيفة تواصلية تُسهم في بناء المعنى اعتمادًا على سياقات استعمالها , وقد تناول هذه الجنبه من اللغة عددًا من النُحاة والبلاغيين لكنّ ما يميّزها عند السيرافي أنّه حاول توظيفها في إطار تواصلية يكشفُ عن تفاعل هذه البنيات مع مقاصد المتكلّم وسياقات الخطاب فيوجّه كلاً من (الأمر والنهي والاستفهام والتمني ...) بما يتناسب والمقام التداولي للكلام لا من الناحية التركيبية والصرفية فحسب , فهو يوضح كيف لمقاصد المتكلّم وغرضه ولدور السياق من أثر في توجيه الكلام نحو بناء القاعدة النحوية , كما في قوله: ((واعلم أنّ الأمر والنهي هما بالفعل فقط ؛ لأنّك إنّما تأمر بإيقاع فعل , وتنتهى عن إيقاع فعل , وربّما أمرت باسم هو في المعنى واقع موقع الفعل كقولك : "عندك زيدًا" و "دونك زيدًا" في معنى خُذ زيدًا , وكقولك : "حذارِ زيدًا" في معنى : احذر زيدًا))^(١).

صرّح السيرافي في النصّ السابق أنّ أصلَ هذين الأسلوبين (الأمر والنهي) هو الفعل , لأنّ الأصلَ فيهما في الطلب - إمّا طلب إيقاع فعل أو طلب الامتناع عنه- ويرى أنّ البنية الإنشائية لا يحددها الشكل والبنية فقط بل ما يحكمها هو الوظيفة التي تؤدّيها وفق سياقاتها التي تردّ فيها , فقوله : (ربّما أمرت باسم هو في المعنى واقع موقع الفعل) أنّك تأمر بإحداث الفعل لا على أساس الصيغة الصرفية

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٤٩١/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

بل اعتماداً على فهم المخاطب لهذه الصيغة , وهو مما قال به جاكسون (الوظيفة الالفهامية) للغة التي يكون هدفها التأثير في المخاطب ودفعه للقيام بفعلٍ ما اعتماداً على الرسالة التي تصل إليه من المتكلم , فقولك : عندك زيّداً , ودونك زيّداً صيغ تنتمي إلى قسم الأسماء من الكلام , لكنّها تحقق فعلاً إنجازياً , يشير إلى (خذ زيّداً) , وكذلك قولك : (حذارِ زيّداً) يُشيرُ إلى معنى الفعل (احذر زيّداً) .

وبناءً على ما تقدّم يظهر أنّ السيرافي لم يتعامل مع الأساليب الإنشائية بوصفها مجرد أنماط تركيبية محكومة بصيغ محددة , بل تناولها ضمن إطار تواصلية يتّصل بمقاصد المتكلم , وسياق الخطاب , فهو يحمل فكراً تواصلياً و نظرَ إلى اللغة من خلاله وإن لم يصرّح نظرياً بمصطلحات المحدثين , إلّا أنّه تعامل مع اللغة وفقاً للوظائف التي تؤدّيها معتمداً على فكرة تحقيق التواصل بين المتكلم والمخاطب لإنجاز الكلام باتّمْ صورهِ .

وسنتناول في هذا المبحث بعضاً من الأساليب الإنشائية التي وردت في شرح السيرافي لكتاب سيبويه , مبيّنة لتجليّات الوظائف اللغوية لها ودور هذه الوظائف في بناء القاعدة النحوية .

أوّلاً : أسلوب الاستفهام :

هو نمطٌ تركيبِيّ من الجمل الإنشائية الطليّة , يُرادُ به طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل , يُطلقُ عليه الاستعلام أو الاستخبار , وكلّها بمعنى واحد , فالاستفهام لغةً مصدرٌ للفعل استفهمت أي طلبت الفهم , والفهم هو : ((معرفتك

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الشيء بالقلب ... وفهمتُ الشيء عقلته وعرفته , وفهمتُ فلانًا وأفهمته ؛ وتَفَهَّمُ الكلام فهمه شيءٌ بعد شيءٍ ((^(١)), وقيل : ((استفهمه سأله الإِفْهَام))(^(٢)) .

فالاستفهام في أصل اللغة هو طلبُ الفهم , ونظير الاستفهام الاستخبار , فالاستخبار : ((هو طلب خبر ما ليس عند المستخبر , وهو الاستفهام ... وذكر ناسٌ أنَّ بين الاستخبار والاستفهام أدنى فرق وذلك أنَّ أولى الحالين الاستخبار , لأنَّك تستخبر فتُجاب بشيءٍ رُبَّمَا فهمته , ورُبَّمَا لم تفهمه فإذا سألت ثانية فأنت مُستفهم , تقول : أفهمني ما قلته لي قالوا والدليل على ذلك أنَّ البارئ -جلّ ثناؤه- يُوصَفُ بالخبر ولا يُوصَفُ بالفهم))(^(٣)) .

يظهر النَّص السابق أنَّ كلاً من الاستخبار والاستفهام لفظان مترادفان لكنَّ الفارق بينهما هو درجة الوعي ومستوى الفهم عند السائل , فإذا تعمَّق السائل طالباً للمعرفة هنا أصبح السائل مستفهماً لا مستخبراً وهذا ممَّا لا يليقُ بلفظ الجلالة أن يُقال عنه مستفهماً , فذلك يدلُّ على أنَّ السائل جاهلاً بالمعلومة , وينقلُ عن الثمانيني قوله : ((وإنَّما يُقالُ في هذا استعلام واستخبار واستفهام إذا وقعَ ممَّن لا يَعْلَم , فإن وقعَ ممَّن يعلم بما يسأل عنه قيل : تقرير وتوبيخ وتبكيث , وكلُّ ما في القرآن

(١) لسان العرب : ٤٥٩/١٢ مادة (فهم).

(٢) أدب الكاتب , ابن قتيبة الكوفي الدينوري , تحقيق : محمد الدالي (١٤٤٣هـ) : ٣٦٠

(٣) الصاحبى في فقه اللغة , أحمد بن فارس : ١٨١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

بلفظة الاستفهام, فهو من هذا القسم , لأنَّ الله - جلَّ اسمه - لا يجوز أن يستفهم ولا يستخبر ولا يستعلم , ويجوز أن يوبَّخ ويقرَّر ويبكَّت ((^(١)).

ولا يبتعدُ هذا المعنى اللغوي كثيرًا عن المعنى الاصطلاحي عند النُّحاة فذكر سيبويه أنَّ الاستفهام ((يُريدُ به أمرًا من المُخاطب لم يستقر عند السائل))^(٢) , فإذا كان الاستفهام عن أمر لم يستقر عند المتكلِّم (السائل) فلا بدَّ أن يكون الجواب خبرًا سواء أكان هذا الخبر مثبتًا أم منفيًا ولهذا لا يُستفهم عن طلب ولا عن إنشاء^(٣) , لذا عدَّ النُّحاة أنَّ الخبر يجيء لمعنى يقتضيه المستفهم^(٤) , إذ ((لَمَّا يَفْعَلْ وَقَدْ فَعَلَ , إِنَّمَا هُمَا لِقَوْمٍ يَنْتَظِرُونَ شَيْئًا))^(٥) , فقولك (لَمَّا يَفْعَلْ) تعني أنَّ الفعل لم يقع بعد , و (قد فعل) تعني أنَّ الفعل متحقَّق واقع وكلا الفعلين يجمعها سياقًا واحدًا هو وجود قوم ينتظرون وقوع هذه الأفعال وهو في الحقيقة رأيٌّ للخليل^(٦) , ((فهم يسألون عنه ضمناً أو صراحةً , و(لَمَّا) و (قد) تدلان على حالهم أو على جهة سؤالهم , فالخبر ناتج عن الاستفهام))^(٧) , فالجملة الخبرية تكون استجابة لسؤال ضمني أو صريح يوجَّه إلى المُخاطب ضمن سياق تواصلٍ محدد , ويمثِّل هذا تجسيدًا للوظيفة

(١) اللع في العربية : ٣٥٥ .

(٢) كتاب سيبويه : ٩٩/١ .

(٣) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه , د. مهدي المخزومي : ٢٦٤ .

(٤) ينظر : الإنشاء بين التركيب والدلالة : ١١٢ .

(٥) كتاب سيبويه : ١١٤/٣ - ١١٥ .

(٦) ينظر : كتاب سيبويه : ٢٢٣/٤ .

(٧) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١١٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

المرجعية للغة التي قال بها جاكسون^(١) فهي تسعى إلى تحقيق التواصل عن طريق جمع المعلومات الكافية مستعينة بسياق الكلام فيكون الخبر نتاج للفعل التواصلية .

قال السيرافي : ((لا رجل في الدار) جواب (هل من رجل في الدار) وذلك أنه إخبار وكل إخبار يصح أن يكون جواب مسألة))^(٢) , يظهر من هذا النص أن الخبر ليس بنية لغوية منفصلة عن سياقها , فقولا لا رجل في الدار , لا يفهم إلا وفق السياق الذي يرد فيه , وهو كونه إجابة عن مسألة , ((فاللغة مادة التواصل في حين أن السياق هو محيط هذا التواصل))^(٣) , فلا يحقق الكلام وظيفته التواصلية إلاّ إلا بتتبع عناصره داخل السياق التخاطبي للكلام .

ولما كان الاستفهام يتطلب جواباً فلا شك أن هذا الجواب هو إخبار عن شيء معين , فيقابل سيبويه بين الخبر والاستخبار من جهة فالاسم على سبيل المثال ((يرتفع بعد ألف الاستفهام كقولك : "أزيد أخوك" ؟ وإنما رفعته على ما رفعت عليه "زيد أخوك" غير أن ذلك استخبار وهذا خبر))^(٤) , و بين الاستفهام والاستخبار من جهة ثانية , على اعتبار أن الخبر يجيء لمعنى يقتضيه حال السائل المستفهم^(٥) , فلم يستقر عندهم بعد وهو في الحقيقة رأي للخليل , و (لما) , و (قد) في الحقيقة

(١) ينظر : قضايا الشعرية : ٩٦ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٤/٣ .

(٣) المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب , فاطمة الشيدي : ٧٣ .

(٤) كتاب سيبويه : ١٢٩/٢ .

(٥) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١١٢-١١٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

تدلّان على جهة السؤال ، فالخبر ناتج عن استفهام ، فيجوز أن يكون الاستفهام أصلًا للاستخبار ، أو الاستخبار أصلًا للاستفهام .

ويمكن أن يكون الاستفهام ناتجًا عن الخبر وهو بابٌ يكون فيه الخبر موسومًا بزيادة علامة تدلّ على الإنكار^(١) ، كما في قول الرجل : ((ضربتُ زيدًا . فتقول منكّرًا لقوله : أزيدُ نيه ؟))^(٢) ، وهي ظاهرة قليلة في الاستعمال ، وليس لهذه العلامة تأثيرٌ على اللفظ ولكنها تؤثر على المعنى .

قال السيرافي : ((من الحروف ما يدخل لتغيير المعنى من غير أن يحدث في اللفظ تأثيرًا ، كقولك : هل زيدٌ قائم ؟ أزيدٌ قائم ؟ ولم تغير (هل) ، و(الألف) مع إحداثها معنى الاستفهام لفظ الابتداء والخبر))^(٣) .

يتبيّن من النص السابق أنّ حروف الاستفهام تُمارس وظيفةً تواصليةً بحتةً فهي تتعلّق بتوجيه مقاصد الكلام بين المتكلّم والمخاطب بغض النظر عن البنية الشكلية للألفاظ فجملته (زيدٌ قائم) التي توسم بالابتداء والإخبار عنه ، على هيئة الجملة نفسها (هل زيدٌ قائم) لكنّ الفارق معنى الاستفهام الذي أحدثته أداة الاستفهام التي تُقسم بدورها على قسمين : حروف (الهمزة ، هل) ، و أسماء (من ، ما ، أي ، كم ، كيف ، أيّان ، أين ، أنى ، متى)^(٤) ، وتلازم هذه الأدوات الأخبار ، بعبارة جبرو

(١) ينظر: الإنشاء في العريّة بين التركيب والدلالة : ١١٢ .

(٢) كتاب سيبويه : ٤١٩/٢ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٠٨/١ .

(٤) ينظر : التطبيق النحوي ، د. عبده الراجحي : ٥٩ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

((زوج ملازمٌ أحدهما للآخر))^(١) يريد الاستفهام والإخبار ، إلا أنَّ الفرق بين الخبر والاستفهام أنَّ الخبر واجب والاستفهام غير واجب ، فأدوات الاستفهام تدخل لإخراج الخبر من حدِّ الوجوب إلى غير الوجوب ، قال السيرافي: ((إنَّ حروف الاستفهام أخرجت ما دخلت عليه من الإيجاب إلى الاستفهام))^(٢).

فقولك (زيدٌ في الدار) هو أمر موجبٌ ثابت في ذهن المتلقّي ، لا يحتاج إلى ما يؤكّده ، وحين تدخل عليه إحدى أدوات الاستفهام فهي تنقله من جهة الإيجاب إلى جهة الأمر المجهول المحتاج إلى توضيحٍ ومعرفة ، فالخبر معنى ثابت يُنشئه الإنسان في نفسه ويصرفه إلى فكره ، ويناجي بها قلبه ، فيُعلم أنَّ الفائدة في العلم بها واقعة في نفس المنشيء^(٣) ، فإذا لم يقع العلمُ بها وتعيّن عدم ثبوته أُدخلَ الكلام في حيِّز الاستفهام ، فتقول: (أزيدٌ قائمٌ)؟ ، فيكون الاستفهام معنى غير واجب يعبر عنه بلفظ الهمزة أو أحد أدوات الاستفهام الأخرى ، قال سيبويه : ((وإنَّما فعلوا ذلك بالاستفهام لأنَّه كالأمر في أنَّه غير واجب ، وأنَّه يُريدُ [به] من المُخاطب أمراً لم يستقرَّ عند السائل))^(٤) وإلى هذا أشار السيرافي بقوله : ((تدخل لإخراج الكلام عن الواجب إلى غيره))^(٥) .

(١) الانشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١١٣ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣/٢ .

(٣) ينظر : دلائل الإعجاز : ٥٤٥ / ١ .

(٤) كتاب سيبويه : ٩٩/١ .

(٥) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٠/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

لعلَّ مفهوم الواجب وغير الواجب دخل باب الاستفهام اعتمادًا على الأصل الذي قرَّره النُّحاة من أنَّ الاستفهام لا يتمُّ إلا بالفعل , قال السيرافي : ((وذلك أنَّك تستفهم عن أمر يجوز أن يكون موجودًا , ويجوز أن يكون معدومًا , وتأمّر بشيء يجوز أن يفعل ويجوز ألاَّ يفعل , فلمَّا كان الأمر لا يكون إلاَّ بفعل , اختاروا أن يكون الاستفهام بالفعل))^(١) , أي إنَّك تستفهم عن فعل يجوز أن يكون عندك موجودًا ويجوز أن يكون معدومًا , كذلك الأمر مع فعل الأمر , فإنَّك تأمر بفعل قد يقع وقد لا يقع , فكلاً من المستفهم والأمر يشتركان في طلب معرفة تحقُّق الفعل أو عدم تحقُّقه في الخارج , فالسيرافي هنا يوظفُ الفعل لتحقيق قوَّة إنجارية على أرض الواقع , فالاستفهام يسعى لطلب معلومة (رفع الجهل) , والأمر يسعى إلى تغيير سلوك (إنجاز فعل) , ويمكن القول إنَّ علاقة الفعل مع الأمر والاستفهام مُقارِبٌ لما جاءت به الوظيفة الإفهامية عند جاكبسون فالمتكلِّم يطلبُ من المخاطب إنجازًا ما على أساس فهم المخاطب لهذا الطلب^(٢) .

وكان الأصل في حروف الاستفهام أن يليها الفعل , إلَّا أنَّ العرب قد توسَّعوا في استعمال حروف الاستفهام (فابتدعوا بعدها الأسماء والأصل غير ذلك) , فقال السيرافي : ((إنَّ الاستفهام في الحقيقة إنَّما هو عن الفعل لا عن الاسم ؛ لأنَّ الشكَّ فيه , ألا ترى أنَّك إذا قلْتَ : (أزيدًا ضربته) فإنَّما تشكُّ في ذات (زيد) فلمَّا كان حرف الاستفهام إنَّما دخل للفعل لا للاسم , كان أولى في الاختيار أن يلي حرف

(١) شرح كتاب سيبويه : ٤٠٧/١ .

(٢) ينظر : نموذج الاتصال عند رومان جاكبسون , د.خنصالي سعيدة , بحث منشور : ٢٤٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الاستفهام الفعل الذي دخل من أجله ، وإنّما جاز دخوله على الاسم ، ورفع الاسم بعده على الابتداء والخبر ؛ لأنّ الابتداء والخبر قبل دخول الاستفهام يُوجبُ فائدة ، وإذا استفهمت فإنّما تستفهمُ عن تلك الفائدة))^(١).

يؤسّس السيرافي في هذا النصّ لرؤية تواصلية واضحة للاستفهام ، فحقيقة الاستفهام عنده إنّما يقع على الفعل غير الواجب عند المتكلّم ، حيث حدّد مركز الشك في الفعل لا الاسم ، فالاسم هو القيمة الثابتة عند المتكلّم ، وفعل (الضرب) هو محلّ الشك ، لقوله : (فإنّما تشكّ في الضرب ولست تشكّ في ذات زيد) ، فلمّا كان محلّ الاستفهام هو الفعل كان الأولى أن تدخل الأدوات عليه ، فيراعي السيرافي أثر الوظيفة التركيبية للكلام على الوظيفة المعنوية ، فيكون قرب الفعل من الأداة دليلاً على أنّ معنى الاستفهام واقع عليه بوصفها دخلت على الفعل لا على الاسم ؛ ولكن ممّا سوّغ دخول الاستفهام على الاسم أنّ أصل الجملة مكوّن من مبتدأ وخبر ، والخبر هو محلّ الفائدة ، فكان محلّ العناية والاستفهام ، ولمّا جاز إمكانية أن يكون اسماً أو جاراً ومجروراً جاز أن تلي حروف الاستفهام الأسماء ، نحو (أزيد قائم) و (أزيد في الدار)^(٢) .

قال سيبويه إنّ الألف هي : ((حرفُ الاستفهام الذي لا يزول [عنه] إلى غيره، وليس للاستفهام في الأصل غيره))^(٣) .

(١) شرح كتاب سيبويه ، للسيرافي : ٤٠٤/١ .

(٢) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١١٧ .

(٣) كتاب سيبويه : ٩٩/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

إنَّ الهمزة بحسب تعبير سيبويه هي أصل أدوات الاستفهام وأعمّها تصرُّفاً وعلل سيبويه ذلك لأنّها حرفُ الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره , وتأتّت أصالة الهمزة في هذا الباب لقدرتها على الحلول مكان أيّ أداةٍ أخرى , وهذه الأصالة جعلتها تختصُّ بأحكام دون سائر الأدوات الأخرى .

وقد أوضح ذلك السيرافي بقوله : ((يعني الألف لا تكون إلّا للاستفهام , وإن كانت تكون في معنى التقرير والجدد , كقولك (ألم آتتك) , أي قد أتيتك , وكقول الله تعالى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ وهو لم يقل . وذلك أَنَّ الْمُقَرَّرَ مستدعٍ لاعتراض المُقَرَّرِ , فهو بمنزلة المستفهم المستدعي إخبار المستخدم فهمًا جميعًا من باب واحد, وكذلك كلُّ مادخله ألف الاستفهام في معنى جدد أو إيجاب ففيه استدعاء إقرار المُخاطَب ألا ترى أَنَّ رجلاً لو قال : (زيدٌ قائمٌ) لم يكن على المُخاطَب أن يجيبه من هذا بشيء وإن قال له : (أليس زيدًا بقائم) على سبيل التقرير , كان عليه أن يقول: (بلى) أو (لا) ((^(١)).

يُشير السيرافي إلى أَنَّ الهمزة تؤدّي وظيفة إنشائية تتجسّد في الاستفهام متمثلة بالنطق بالألف فهي مختصةٌ وضعًا بالإنشاء الاستفهامي , وإن خرجت لمعانٍ أخرى غير الاستفهام كالتقرير أو الجدد , ألا ترى أَنَّ الْمُقَرَّرَ أو الجادد مُشابه للمُستفهم , فالتقرير يشترك مع الوظيفة التواصلية للاستفهام , في أَنَّ كلاهما يستدعي إجابة من المُخاطَب , إمّا إخبارًا أو إقرارًا , فالمُقَرَّر والجادد حاله كحال المستفهم الساعي إلى

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٤٠٩/١ , والآية : المائدة : ١١٦ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

حمل مخاطبه على الإجابة لتحقيق إرادة المعرفة ودفع عدم التيقن والشك مما يُستفهم عنه , أو ما سعى فيه المتكلم إلى إيجاد المخاطب أو تقريره فيه , ويمكن القول إنَّ السيرافي قد ربط بين نية المتكلم وقصده وما يحققه فهمُ المُخاطب لهذه النية , حيث تتحقق الاستجابة اللغوية للمخاطب , بناءً على فهمه لقصد المتكلم .

مما سبق يمكن القول إنَّ الاستفهام من الأساليب الإنشائية ذات الأثر البالغ في تنظيم الخطاب وتوجيهه داخل العملية التواصلية , ففيه تتسع دائرة الحوار بين متكلم ومُخاطب أو مجموعة متخاطبين , ولم يكن السيرافي غافلاً عما يؤديه هذا الأسلوب من وظائف تخدم العملية التواصلية , فتكشف معالجته لهذا الباب عن عنايته بالبعد الوظيفي للاستفهام , من خلال ربطه بالسياق لبيان قصد المتكلم ونيتته.

وينظرُ في الدراسات التواصلية الحديثة إلى العملية اللغوية بوصفها بنية تقوم على ثلاثة عناصر رئيسة هي : المرسل , والمرسل إليه , والرسالة , حيث تتحدد قيمة الخطاب من خلال التفاعل القائم بين هذه العناصر داخل السياق التخاطبي , وفي ضوء هذا التصور يمكن أنْ يدرج الاستفهام تحت طائفة ثلاث وظائف من وظائف اللغة : الوظيفة الانفعالية , وهي ما أثارت السائل لي طرح السؤال , والوظيفة الإفهامية وتتحقق فيما يستعمله المتكلم من أدوات ليحمل المخاطب على الإجابة , والوظيفة المرجعية , وهي مما يُستعان به من مُعطيات السياق للوصول إلى المعنى الدقيق للكلام^(١) , ويبدو أنَّ هذا التصور هو ما جعل السيرافي يربط مسألة الاستفهام

(١) ينظر : القدرة التواصلية من منظور اللسانيات الحديثة النظرية , د. نصيرة بونوه زيتوني , بحث منشور :

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

بالاستخبار ، والواجب وغير الواجب ومن ثم التعليل لكون الألف أقوى أدوات الباب لما تحمله من طاقة دلالية تجعلها أداة تستدعي الإجابة في أي سياق ترد فيه ، ويقترب هذا التحليل من بعض ما أشارت إليه الدراسات التداولية الحديثة في حديثها عن الأفعال الكلامية ، فهناك أعمال لا يمكن إنجازها إلا من خلال اللغة ، وهذا ما يجعل الخطاب فعلاً بمجرد التلقظ به كما هو الأمر في الاستفهام^(١) .

ثانياً : الأمر والنهي :

جمع سيبويه الأمر والنهي في باب واحد و ((لشرف المأمور به قُدِّم الأمر على النهي))^(٢) ، وسار من بعده النُّحاة على نهجه ، على الرغم مما بين هذين الأسلوبين من فرق ، فذكر سيبويه ومن بعده السيرافي أنَّ الأمر والنهي أسلوبين يُناقض أحدهما الآخر ، قال السيرافي : ((وأما النهي فإنه نقيض الأمر))^(٣) لأنَّ ((الأمر كأن يأخذ أحدهما والنهي نقيضه وضده فيكون نهياً عن أخذ أحدهما))^(٤).

لما كان الأمر هو طلب إيقاع فعل ((طلباً على وجه الاستعلاء))^(٥) ، فإنَّ النهي هو : ((طلب الكف عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام))^(٦) مما يؤكد وجود علاقة جدلية بينهما ، فالنهي ليس مجرد منع ، بل هو وجه آخر للأمر من حيث

(١) ينظر : الأفعال الكلامية عند الأصوليين ، مسعود صحراوي ، بحث منشور : ١٨٥ .

(٢) كتاب أصول الفقه ، عياض السلمي : ٢٥١ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٧/١ .

(٤) نفسه : ٤٤١/٣ .

(٥) الأساليب البلاغية ، أحمد مطلوب : ١١٠ .

(٦) نفسه : ١١٦ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

البنية التواصلية ، أي إنَّ كل نهْي يتضمَّن أمرًا ضمنيًّا بالفعل المضاد والعكس بالعكس ، فأمرُك بشيء معيَّن يعني ضمناً نهْيك عن ضده ، فأمرُ الله تعالى بوجوب الإيمان به ، يحمل نهْيًا ضمنيًّا عن الكفر ، وفي كلا الأمرين توجيهًا مباشرًا لسلوك المُخاطب .

يكشف هذا التصوُّر الوظيفي الذي يقدِّمه السيرافي لعمل الأمر والنهي عن أنَّ الفرق بينهما لا يقتصرُ على البنية اللغوية ، بل يتَّصل بطبيعة التوجيه الذي يُراد إحداثه في سلوك المُخاطب ، فالأمر يرمي إلى حمله على إيقاع الفعل ، في حين يقصدُ النهي إلى حمله على الكفِّ عنه ، ومن ثمَّ يشترك الاسلوبان في كونهما وسيلتين لتوجيه المُخاطب والتأثير في سلوكه ، وهو ما يقتضي وجود متكلم يقصد إلى إحداث أثر معيَّن ، ومُخاطب يتوجَّه إليه هذا الطلب ، ولذا ارتبط الأمر والنهي بطرفي العملية التواصلية ارتباطاً وثيقاً ، فلا تتحقَّق وظيفتهما إلَّا بوجود من يوجَّه الخطاب ومن يتلقَّاه ، وكذلك توفَّر قصدية المتكلم لإحداث تغييراً في سلوك المُخاطب^(١) .

قال السيرافي : ((دخول "لا" على فعل الأمر لا يجوز ؛ لأنَّ صيغة الأمر تجري مجرى الإيجاب ، وصيغة النهي تجري مجرى الجحد))^(٢) .

مثَّل فعل الأمر داخل الدائرة التداولية وسمًّا لمقولة الإيجاب فيمثَّل له النُّحاة بصيغة (أفعل) أو (ليفعل) ، تمثيلاً لرغبة المتكلم وإرادته في إيقاع المحتوى القضوي

(١) ينظر : الأساليب البلاغية : ١١٦ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٤/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

للفعل ، ومثل النهي داخل الدائرة التداولية وسماً لمقولة السلب (الجد) يصدر هذا الفعل عن رغبة المتكلم في كف المخاطب عما هو بصدد تحقيقه^(١) .

يفهم من كلام السيرافي السابق أنه جعل صيغة الأمر في حكم الإيجاب ، في حين جعل صيغة النهي في حكم السلب أو الجد ؛ فالأمر يعبر عن إرادة المتكلم في إيقاع الفعل من المخاطب ، أما النهي فيعبر عن إرادته في حمله على الكف عنه ، وبذلك لا يقتصر الفرق بين الأسلوبين على اختلاف الصيغة ، بل يمتد إلى اختلاف المقصد الذي يؤديه كل منهما في الخطاب ، إذ يتجه الأمر إلى إثبات الفعل، بينما يتجه النهي إلى نفيه أو منعه.

وهذا يُقارب ما عُرِفَ عند التداوليين بتعديل القوة الإنجازية التي لا تسمح باجتماع قوتين انجازيتين متضادتين في تركيب واحد كما في دخول (لا الناهية) على فعل الأمر ، وذلك لأنَّ الفعل المنجز سيكون متناقضاً^(٢) .

فالنهي وإن بدا منطوياً على المنع ، إلا أنَّ المتكلم يُضمِّرُ فعلاً ضمناً يُريد من المُخاطب القيام به ، فتكون علاقة النهي مع الأمر علاقة تقابلية ، من هنا اقترن الأمر والنهي بالفعل ؛ لأنَّ الغرض منها توجيه المخاطب إلى سلوك معين يتحقق في الواقع ، ولذا أكدَّ كلاً من سيبويه والسيرافي أنَّ الأمر والنهي لا يكون إلا بالفعل في إطار المُقارنة مع أسلوب الاستفهام ؛ إذ يشترك الجميع في كونهم من الأساليب

(١) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١٣٣ .

(٢) ينظر : تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل اللغوي ، محمد العبد ، بحث منشور ضمن كتاب التداوليات علم

استعمال اللغة : ٣٠٧ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الطلبية , غير أنَّ الأمر والنهي يمتازان بقصد حمل المخاطب على إيقاع الفعل أو الكف عنه , بخلاف الاستفهام الذي يقصد به استجلاء المعلومة , وحمل المخاطب على تقديم الإجابة أو البيان.

قال سيبويه : ((اذا نهيت (أو أمرت) فأنت ترجيّه إلى أمرٍ , وإذا أخبرت أو استفهمت فأنت لست تُريدُ شيئاً من ذلك , إنّما تعلم خبراً أو تسترشدُ مُستخبراً))^(١) .

يبينُ سيبويه الفرق بين أسلوب الاستفهام و أسلوبي الأمر والنهي , فقد لا تُذيع سرّاً إذا قلنا أنَّ كلاً منهما مصنّف ضمن الأساليب الإنشائية التي تروم إنجاز فعلٍ على أرض الواقع , لكنَّ الفارق بينهما أنَّ الأمر والنهي أكثر قوّة من الاستفهام لما فيهما من استعلاء في الطلب قد يكون موجباً لإحداثه , هذا من جهة , ومن جهةٍ أخرى أنّك حين تأمر أو تنهى عن فعل فإنّك تدفعُ المُخاطب إلى إحداث أثرٍ مباشرٍ في السلوك , فالأمر والنهي هما طلب مباشر لإحداث فعل أو منع فعل , وهذا ينسجم مع ما عرّف لاحقً بنظرية (أفعال الكلام)^(٢) , أمّا الاستفهام والاستخبار فهو أقلُّ وطأة من الأمر فلا يدفع بالمخاطب إلى تغيير في السلوك بل يبحثُ عن المعرفة وقد لا يحصل المتكلّم على استجابة مباشرة من المخاطب , ويعود ذلك

لكون الأمر والنهي لا يقعان إلّا بالفعل , أمّا الاستفهام فيكون بالفعل أو بالاسم .

(١) كتاب سيبويه : ٢٨٩/١ .

(٢) (الفعل الكلامي : هو التصرف الإرادي الذي ينجزه الانسان بالكلام ... فهو الإنجاز الذي يؤدّيه المتكلّم بملفوظات معيّنة , ومن أمثلته : الأمر , والنهي , والوعد ... فهذه كلّها أفعال كلاميّة) , الأفعال الكلاميّة عند الأصوليين : ١٨٥ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وعمدَ سيبويه إلى الموازنة بين الأمر والنهي والاستفهام مبيِّناً أنَّ الأمر والنهي ((لا يقعان إلا بالفعل , مُظهرًا أو مضمراً وهما في هذا أقوى من الاستفهام ؛ لأنَّ حروف الاستفهام قد يُستفهمُ بها وليس بعدها إلا الأسماء ... والأمر والنهي لا يكونان إلا بفعل))^(١) .

يكشف نصّ سيبويه هذا أنَّ اقتران الأمر والنهي يكون بالفعل ناشئاً من طبيعتهما الوظيفية , مقارنةً بالاستفهام الذي قد يكون بالاسم أو بالفعل , فأعطى هذا التركيب للأمر والنهي قوّة إنجازيّة أكبر من الاستفهام , وأكثر تعبيراً عن قصد المتكلم ونيّته وعلّق السيرافيّ على ذلك بقوله : ((اعلم أنَّ الأمر والنهي هما بالفعل فقط , لأنَّك إنَّما تأمر بإيقاع فعل وتنتهي عن إيقاع فعل))^(٢) .

وضَّح السيرافيّ علّة اختصاص الأمر والنهي بالفعل وذلك لأنَّ ضرورة وقوع الأمر والنهي بالفعل يعود إلى كونهما فعلين يعملان على ترجية المخاطب لإنفاذ أمرٍ ما في الخارج , ((فهما لا يقعان إلا بالفعل مُظهرًا أو مضمراً))^(٣) , لأنَّك تحتاج إلى الفعل لتأمر المخاطب أو تنهاه , فأنت ((تريد أن تُخرجه من أمر وتدخله في آخر))^(٤) , وقد نظر السيرافيّ إلى الأمر من وجهين , الأوّل نحوي تركيبّي , فهو لا يتم إلا في سياق الفعل , وإن لحقه اسم فهو في معنى الفعل أيضاً , والآخر وظيفي :

(١) كتاب سيبويه : ١٣٧/١ - ١٣٨ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ : ٤٩١/١ .

(٣) كتاب سيبويه : ١٣٧/١ .

(٤) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ : ٢٨٢/١ , و ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١٣٢-١٣٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فالمتكلم يُريد من الأمر والنهي استنهاض المخاطب أو رده عن فعلٍ معيّن فيكون لهما وظيفة تواصلية تعد من أقوى أدوات اللغة لتحويل الكلام إلى واقع منجز يُحقّق تواصلًا بين المنتج والمتلقّي , ما يؤكّد ذلك قول سيبويه : (إذا نهيت أو أمرت فأنت ترجيه إلى أمر) وهو ما يكشف عن أنّ قيمة الأمر والنهي لا تتمثّل في صيغتهما اللغوية وحدها وإنّما في الأثر الذي يحدثانه في المخاطب أي تُحقّق فعلًا سلوكيًا , ويمكن أن يدرج تحت وظائف اللغة التأثيرية , أو ما يطلق عليها الأفعال الأدائية التي تفيد أنّ الفعل يُنجز بعد الأداء الصوتي^(١) .

ولم يكن قول السيرافي : ((وكان النصبُ في الأمر والنهي أولى و أقوى))^(٢) حكمًا نحويًا فحسب , بل كان حكمًا نابعًا عن رؤية تواصلية تروم إلى تأكيد الفعل في سياق الأمر والنهي لأنّ الأفعال لا تعمل إلّا النصب فيما بعدها , فلم تكن بنية نحوية شكلية فحسب , بل حكمًا يؤسّس لفكرٍ وظيفي تواصلٍ يسعى لجعل البنية الأقوى - بنية الفعل - أوضح تأثيرًا على المخاطب ممّا سواها , فيُعملُ اللغة كوسيلة من وسائل التواصل المقصود بين أفراد المجتمع .

وبيّن سيبويه أنّ الأمر لا يُنشيء خبرًا عن واقع قائم , وإنّما يتّجه إلى استحداث فعل لم يقع بعد , قال : ((أمّا بناءُ مالم يقع فإنّه قولك أمرًا اذهب واقتل

(١) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٤٣-٤٤ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١/٤٩١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

واضرب^(١)، فيحمل المخاطب على إيقاعه ، وهو ما يكشف عن وظيفته التواصلية في توجيه السلوك .

وقال السيرافي : ((شبَّهوا الجزاء بالنهي حيثُ كانا مجزومين غير واجبين))^(٢)، ليبين وجه الشبه بين الجزاء الذي يربط الشرط بالجواب و النهي الذي يوجّه الخطاب إلى المتلقّي بهدف المنع ، فكلاهما يقتضي الجزم للفعل من دون أن يثبت وجوب وقوع الفعل أو امتناعه ، وكذلك يمضي السيرافي في هذا الأمر فيقول: ((كما أنَّ الألف وحروف الجزاء غير واجبة ، كذلك الأمر والنهي غير واجبين))^(٣) ، يُريدُ السيرافي بالألف حرف الاستفهام ، يكشف هذا التعليل أنَّ السيرافي لم يقتصر على بيان الحكم النحوي ، بل نظر إلى طبيعة هذه الأساليب من حيث تعلّقها بأفعال لم تتحقّق بعد ، فجعل عدم الوجوب الجامع بينهما وهو ما يبرز عناية السيرافي بالجانب الوظيفي في تفسير الأحكام النحوية وربطها بالمقصد الذي تؤدّيه في الخطاب ، ويربط السيرافي بين الاستفهام والأمر والنهي في موضعٍ آخر ، فذكر أنَّ : ((الاستفهام مضارعٌ للأمر والنهي ، لأنّه غير واجب وفيه معنى الأمر ؛ لأنّك إذا قلّت : (هل تفعلنّ كذا) فإنّك تستدعي منه تعريفك ، ولولا ذلك ما صار جواب الاستفهام كجواب الأمر والنهي))^(٤) .

(١) كتاب سيبويه : ١٢/١ ، و الإنشاء بين التركيب والدلالة : ١٣٣-١٣٤ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٥٠/٤ .

(٣) نفسه : ٣/٢ .

(٤) نفسه : ٢٤٩/٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يبيّن السيرافي أنّ الاستفهام قد ضارِع الأمر والنهي من حيث عدم الوجوب , فالاستفهام والأمر والنهي لا يتطلّب فيها وقوع الفعل على وجه الضرورة , بل الأمر متروك لإرادة المخاطب , فالمتكلّم يفترضُ إجابة الفعل أو الامتناع عنه , لكنّه لا يفرض وقوعه كأمرٍ واجب .

يُريدُ السيرافي من هذا أن يؤكّد أنّ هذه الأساليب الثلاثة رغم اختلافها التركيبي والوظيفي لكنّها تشترك في خاصيّة عدم الوجوب , بل يبقى الأمر مرهونًا برغبة المخاطب واستجابته , وهذه الصفة تكون في الأفعال الإنشائية التي لا تتجرّ الفعل بل تستدعيه من المخاطب , وهذا ينسجم مع ما أشار إليه جاكسون في الوظيفة التأثيرية^(١) , إذ يكون الهدف التأثير في المتلقّي لا الإخبار , فإنّ عدم وجوب الأفعال هذه الأفعال هو ما جعلها أدوات فعّالة في بناء القاعدة النحوية التواصلية , القائمة على الاستجابة والتفاعل .

وهناك صيغٌ تنوب عن الأفعال معنًى واستعمالًا , وهي أسماء الأفعال , فيرى السيرافي أنّ الأمر وإن كان لا يقوم إلّا بالفعل إلّا أنّه قد يؤدّي بغيره إذا أدّى معناه , كما في قوله : ((وربّما أمرت باسم هو في المعنى واقعٌ موقع الفعل كقولك : "عندك زيدًا" و "دونك زيدًا" في معنى : خذ زيدًا , وكقولك : "حذارِ زيدًا" في معنى احذر زيدًا))^(٢) , فهي : ((أسماء وُضعت موضع فعل الأمر , ولا يجوز أن يُذكر

(١) ينظر : قضايا الشعرية : ٢٩ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٤٩١/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الفاعل معها))^(١) فيرى السيرافي أن هذه الصيغ تعمل عمل الفعل وتنوب عنه , فلا يمكن أن تُذكر معه في سياقٍ واحد , فتعمل عمل الأمر من حيث الدلالة والوظيفة , فالسيرافي ينظر للأمر نظرة تداولية لا تقف عند البنية الصرفية فحسب بل تتعدّها إلى الوظيفة والسياق التخاطبي , فيكون النظام النحوي نظاماً مرناً يتجاوز حدود الشكل إلى مقاصد المتكلّم وسياقات التلقّي .

ويؤكد السيرافي أن أسماء الأفعال قد تؤدي معنى النهي وإن خلت من الأداة ((لأنّه إذا قال : اتركها , و امنعها , فالمعتاد في الكلام أن يُقال نهى عنها , وإذا قال: صه صه , فأمره بالسكوت والكف فقد نهاه عن الكلام والإقدام , والأكثر المألوف أنّه إذا قال له : اسكت , أنّه قد نهاه عن الكلام))^(٢) لأنّ الاعتبار عنده للمعنى الذي تؤديه الصيغة في الخطاب .

ويلحق بأسلوب الأمر والنهي في الأداء الوظيفي , أسلوب التحذير والإغراء , فهما وإن اختلفا في البنية الصرفية , إذ يشتركان مع الأمر والنهي في كونها أفعالاً تسعى إلى حمل المخاطب على فعل أو ترك , ولكن بوسائل لغوية غير مباشرة , وقد نبّه السيرافي إلى ذلك حين ذكر ألفاظاً مثل : إيّاك زيّداً , وإليك زيّداً , وعليك زيّداً , فهذه كلّها تعبّر عن الأمر أو النهي بصيغة التحذير أو الحضّ على الشيء , وقد قرّر سيبويه ذلك بقوله : ((وأما النهي فإنّه التحذير : كقولك : الأسد الأسد , والجدار الجدار , والصبيّ الصبي , وإنّما نهيته أن يقرب الجدار المخوّف المائل , أو يقرب

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٤٢/٢ .

(٢) نفسه : ١٤٣/٢-١٤٤ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الأسد أو يوطيء الصبي ((^(١)) , وذكر ابن هشام أنَّ التحذير هو : تنبيه المخاطب على أمرٍ مكروه ليتجنبه^(٢) , وإن كان الإغراء والتحذير أعمالاً خاصةً أخصَّ من الأمر والنهي وذلك لأنَّ الأمر يمكن أن يفيد الإغراء والتحذير , وكذلك النهي يمكن أن يكون تحذيراً أيضاً , , فقولك : (احذر) أو (لا تقرب الأسد) في واقع الصناعة النحوية يكون الأول أمراً والثاني نهياً وإن تضمننا معنى التحذير^(٣) .

ولو نظرنا إلى حقيقة المعنى في حذر أو حذار لوجدنا إمكانيةً توظيفه في جمل التحذير أكثر من جمل الأمر والنهي , وهو مما لم يتطرق إليه سيبويه والسيرافي في هذا السياق , وقد يكون ذلك لأنَّ القيمة الوظيفية لفعل الأمر أوضح أثراً من التحذير والنهي , ولك لتضمن الأمر معنيي النهي والتحذير , وعدم تضمُّن الأخيرين معنى الأمر إلاَّ عن طريق الاقتضاء , وهو معاملة أفعال الأمر معاملة الفعل الناهي لخلافه^(٤) .

ومما تقدّم يظهر أنَّ النحاة قد أدركوا مبكراً طبيعة الخطاب ووظيفته , إذ لم يبنوا تصنيفاتهم اللغوية على البنية وحدها بل جرياً على العرف والسياق والاستعمال وهو ما ينسجم مع التصورات التواصلية الحديثة التي تجعل الغاية من الخطاب أساساً في

(١) كتاب سيبويه : ٢٥٣/١ .

(٢) ينظر : أوضح المسالك , ابن هشام , تحقيق بركات يوسف هبود : ٤١٦/٢ .

(٣) ينظر : الإنشاء في العربية بين الدلالة و التركيب : ١٤٠ .

(٤) ينظر : الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١٣٩ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

تفسير الظاهرة اللغوية ، ويتجلى ذلك في الأمر والنهي ، إذ تتجه وظيفتهما إلى التأثير على سلوك المخاطب بغض النظر عن الصورة اللفظية التي يتحقق بها هذا التوجيه^(١).

ثالثاً : النداء

يعد النداء من أبرز الأساليب الإنشائية التي تنهض عليها العملية التواصلية ؛ إذ يمثل وسيلة لاستدعاء المخاطب وإثارة انتباهه تمهيداً لإشراكه في الحدث الكلامي ، ولذلك كثر استعماله في الخطاب ؛ لأنه يحقق أولى مراحل التواصل بين المتكلم والمخاطب ، وهو دليل على اجتماعية اللغة ، ولايكاد يخلو كلام منه ، فأنت في كل حديث بحاجة إلى نداء شخص ما أو شيء ما ، فيهدف المتكلم بواسطته إلى إثارة انتباه المخاطب واستدعائه للمشاركة في الحدث الكلامي ، ويستعمل عند إرادة تنبيه المخاطب أو استدعائه ، وتتكون جملة النداء من متكلم يُرسلُ أصواتاً دالة على النداء، ومخاطب متلقٍ له ، والأصوات المرسلّة تمثل الرسالة المراد اثباتها بأدوات النداء التي تتنوّع بحسب المقام وحال المنادى^(٢).

واقّر السيرافي أنّ لباب النداء وقع خاص من بين الأبواب الطلبية فهو ((مخالف لغيره من الألفاظ ، وذلك لأن الألفاظ في الأغلب إنما هي عبارات عن أشياء غيرها من الأعمال ، أو أشياء غيرها من الألفاظ ، كقولك: أكرمت زيداً ، وقال زيد قولاً جميلاً. ولفظ النداء لا يعبر به عن شيء آخر ، وإنما هو لفظ مجراه

(١) ينظر : قضايا الشعرية ، رومان جاكسون : ٢٩ ، و النظرية الأسنوية عند رومان جاكسون ، فاطمة الطبال : ٣٩ ، ٦٦ .

(٢) ينظر: التطبيق النحوي : ٢٧٦.

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

مجري عمل يعمل على عامل^(١).

يؤكد السيرافي على خصوصية أسلوب النداء فيميز بين الألفاظ التي تقوم بوظيفة الإحالة إلى أحداث أو أقوال ، وبين النداء الذي لا يحيل إلى غيره ؛ لأنه لا يراد به الإخبار عن حدث أو وصف شيء ؛ بل وظيفته استدعاء المخاطب وتنبيهه وادخاله في دائرة التخاطب ، فهو يمثل عملاً إنشائياً قائماً بذاته ، ومن هنا تتجلى خصوصية هذا الأسلوب ، لأنه لا ينقل خبراً أو معنى عن شيء آخر ، بل يؤدي فعلاً تواصلياً مباشراً قائماً على تحقيق الاتصال بين طرفي الخطاب .

ورأى سيبويه أن النداء ((بمنزلة الأصوات وما أشبه الأصوات))^(٢) لأنّ المنادي يمارس فعلاً صوتياً يوجّه إلى المخاطب ، وتكمن وظيفته التواصلية في لفت الانتباه والتنبيه لما يُراد إبلاغه أمراً كان أو نهياً أو إخباراً^(٣).

وينصب المنادى على المفعولية بفعل محذوف تقديره أنادي أو (أدعو) ، قال السيرافي: ((جعلوا المنادى بمنزلة المفعول به وجعلوا الأصل في كل منادى النصب... وقد ذكروا أن ما يقدر ناصباً هو (ادعو) أو (أنادي)، ولكن ذلك على جهة التمثيل والتقريب، لأنهم أجمعوا أن النداء ليس بخبر))^(٤).

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٨٢/٢ ، هامش (١) (هذا الباب سقط من شرح السيرافي وقد اثبتته المحقق عبدالسلام هارون).

(٢) كتاب سيبويه: ٢٠٨/٢.

(٣) ينظر: الفونولوجيا: (دراسة النظام الصوتي)، معجم المصطلحات علم اللغة الحديث، د. محمد حسن باكلا واخرون: ٧٢، وعلم اللغة العام، فرديناند دي سوسير: ٣٠.

(٤) كتاب سيبويه: ١٨٢/٢.

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

إن النداء كما يراه السيرافي أسلوب طلبى لا نسبة واقعية له في الخارج ، لا يراد به الإخبار عن واقع ولذلك لم يجعل تقدير "أدعو" أو "أنادي" على سبيل الحقيقة ، وإنما على سبيل التقريب النحوي لتفسير عمل النصب ، فالمنادى يعامل معاملة المفعول به من حيث الإعراب غير أنَّ وظيفة النداء تتجه إلى تنبيه المخاطب واستدعائه ، لا إلى إنشاء الخبر عنه ، وهو مايكشف عناية السيرافي بالتمييز بين البنية الإعرابية للنداء ووظيفته في الخطاب .

وقد استند النحاة إلى قول سيبويه : ((اعلم أنَّ النداء في كل اسم مضاف فيه فهو نصب على إضمار الفعل المتروك إضماره. والمفرد رفع وهو في موضع اسم منصوب))^(١) لبيان أنَّ الأصل في عمل أداة النداء قيامها على فعل مضمر يقدر معها، يدلّ على معنى الدعاء أو النداء غير أنه لا يصرّح به ، فحذف الفعل لكثرة الاستعمال ولدلالة حرف النداء (الياء) عليه وإفادته فائدتها^(٢).

وقد ذهب ابن السراج إلى أنَّ الأصل في المنادى النصب فقال: ((حق كل منادى النصب من قبل أن قولك: يا فلان ينوب عن قولك: أنادي فلاناً))^(٣) ، و وافقه السيرافي في ذلك عند شرحه لقول سيبويه : ((ومما ينتصب في غير الأمر والنهي على الفعل المتروك إضماره ، قولك : يا عبد الله ، والنداء كله...)) قال أبو سعيد

(١) كتاب سيبويه : ٢ / ١٨٢ .

(٢) ينظر: الانشاء في العربية بين الدلالة والتركيب: ٢١٧.

(٣) الاصول في النحو : ١ / ٤١٤.

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

رحمه الله : المنصوب من المنادى ، يُقدر نصبه بفعل ينوب عنه حرف النداء ، وهو

يا ، كأنه قال : ادعو عبد الله ، وأنادي عبد الله ، وأريد عبد الله^(١).

يكشف هذا الاتفاق أنَّ تقدير الفعل عند النحاة إنَّما قصد به تفسير العمل

النحوي مع بقاء النداء محتفظاً بوظيفته ، ولذلك لم يرد سيبويه أن يكون تقدير الفعل

على جهة الحقيقة الكاملة ، وإنَّما وسيلة لتفسير عمل النصب ، وذكر السيرافي أنَّ

((ذلك على جهة التمثيل والتقريب ، لأنَّهم أجمعوا أن النداء ليس بخبر))^(٢).

ويؤكد ذلك ما سبق من أنَّ السيرافي يعدّ النداء أسلوباً طلبياً لا نسبة واقعية له

في الخارج ، فعبارته : ((لفظ مجراه مجرى عمل يعمله عامل))^(٣)، فهم يناقض مفهوم

الإخبار ، وكما وصفه المحدثون بأنه إنشاء إيقاعي ، يراد به إيقاع الفعل باللفظ عن

طريق حرف النداء المختص دلالياً بالنيابة عن فعل النداء^(٤).

يمكن القول إن ميزة النداء أنَّه لا يكون إخباراً ، وإنَّما يتَّجه أثره إلى المنادى،

ولا سيَّما إذا كان غافلاً عن المتكلِّم ، فتتأثَّر أهميته التواصلية من هذا الباب ، إذ

تتكوَّن جملة النداء من متكلِّم يُرسل إشارة لغوية متمثلة بـ(يا) أو سائر حروف النداء،

و مخاطب يمثل الطرف الآخر من الحوار وهو المنادى عن طريق نطق

الصوت وإيصاله إليه^(٥) ، لذا عد السيرافي النداء ضرباً من الأصوات أو ما يُشبهها

(١) شرح كتاب سيبويه (السيرافي): ١٨٨/٢.

(٢) كتاب سيبويه: ١٨٢/٢، الهامش (١)

(٣) نفسه: ١٨٢/٢ .

(٤) ينظر: الانشاء بين التركيب والدلالة : ١٢١.

(٥) ينظر: علم اللغة العام : ٣٠.

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فذكر: ((أَنَّ نداءك المنادى إنما هو صوت تصوّت به لتنبهه إليك وهو بمنزلة الاصوات التي تقع للزجر، كقولك للغراب : "غاق" وللبلبل: "عدس"... فشبه لفظ المنادى بالاصوات التي يُزجر بها ؛ لأنه لا يقع إلا لعطف المنادى على المنادي كما تقع الأصوات لدعاء البهائم وزجرها))^(١).

فلا يعد النداء عند السيرافي مجرد تركيب لفظي يُعبّر به عن معنى إخباري؛ بل هو صوت يصدره المتكلّم بقصد تنبيه المخاطب واستدعائه ، لذا شبّه ألفاظ النداء بالاصوات التي تطلق عادة للزجر أو الدعاء ، كقولهم : غاق للغراب أو عدس للبلبل، ووجه الشبّه أنّ هذه الأصوات لا تستعمل إلا في مقام التنبيه المباشر للمخاطب ، سواء أكان إنساناً أم حيواناً فهي أفعال صوتية وظيفتها شدّ الانتباه وتحقيق التواصل. ولما كان النداء وسيلة للتنبيه: لم يقتصر أثره على تحقيق الاتصال بين المتكلّم والمنادى ؛ بل تجاوز هذا الحد إلى إحداث أثر نحويّ ودلاليّ في المنادى نفسه ، فقد يكون نكرة ، ثمّ يكتسب بالنداء التعيين والتخصيص ، قال السيرافي : ((أَنَّ المفرد يؤثر فيه النداء حتى يكون معرفة به ، كقولك: "يا رجل" إذا قصدت واحداً بعينه صار معروفاً بالنداء، لإقبالك عليه وقصدك إياه بحرف النداء كما قال الأعشى:

قالتْ هُريرةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا ويلي عَلَيكَ وويلي منك يا رَجُلُ
وإنما قصّدت قصده ((^(٢).

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٨٣/١.

(٢) شرح كتاب سيبويه : ٨٤/١ ، والبيت : ديوان الأعشى الكبير : ٥٧.

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وعَلَّ سيبويه منع دخول -ال- على المنادى فذكر إنَّ : ((الألف واللام إنما منعهما أن يدخل في النداء من قبل أن كلَّ اسم في النداء مرفوع معرفة ، وذلك أنه إذا قال يا رجل ويا فاسقُ، فمعناه كمعنى يا أيها الفاسق ويا أيها الرجل، وصار معرفة لأنك اشترت إليه وقصدت قصده ، واكتفيت بهذا عن الألف))^(١) ، فالإقبال على المنادى وتخصيصه بالخطاب يغنيان عن (ال) ، وهو ما يبرز أثر المقام في بناء الدلالة وتحقيق التواصل .

يقسّم المنادى المفرد على قسمين رئيسين هما: المعرفة والنكرة ، فأما المعرفة فيبنى في الغالب على ما يرفع به ، وأما المفرد النكرة فينقسم إلى قسمين: نكرة مقصودة ، ونكرة غير مقصودة ، وتتحقّق معرفة النكرة المقصودة بمجرد دخول أداة النداء عليها ، إذ يوجه المتكلّم بها خطابه إلى مخاطب بعينه ، فيصير معهوداً بالنداء وإن لم يكن معرّفاً بالألف واللام ، فيؤدّي النداء وظيفة تواصلية مباشرة هي تخصيص المخاطب بوصفه هدفاً للرسالة^(٢) ، قال السيرافي: ((إنَّ حرف النداء يُصيرُهُ إلى حاله هذا ويغنيه عن الألف واللام))^(٣).

فينقل حرف النداء الاسم من حيز التكرير إلى حيز التعريف حتى يظل منادى وإن كان في صيغة النكرة لأنك لا تتادي من كان منكوراً ، كما يهدف النداء إلى تنبيه المخاطب وتخصيصه من بين الحاضرين خلال عملية التخاطب فهو حرف للخطاب إما أن يفيد تخصيص المخاطب بالكلام لجعله معنياً به دون غيره ، أو أن يفيد تأكيد

(١) كتاب سيبويه: ١٩٧/٢ .

(٢) ينظر: النحو الوافي، عباس حسن: ١١-١٠/٤ .

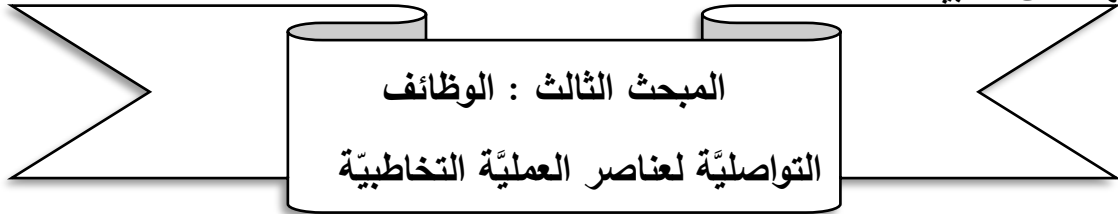
(٣) كتاب سيبويه : ١٩٨/٢ ، هامش (١) .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

المخاطب في حال كونه يعلم أنه المعني بالكلام، ولكن في ندائه زيادة توكيد وتثبيت أو يكون لرغبة المتكلم في إقناع المخاطب بما يريد إخباره به^(١).

فالنداء يقع بالتلفظ ، ويؤثر في المخاطب بمجرد إنشائه ، فيمكن إدراجه ضمن إطار الوظائف التواصلية للغة التي تتحقق آثارها في وعي السامع واستجابته، لا في العالم المادي ، مما يمنحه خصوصية تميزه عن سائر التراكيب ، كان القتل عملاً ينجز بواسطة السيف أو الرصاص ، وإذا كان الإكرام عملاً يُنجز بواسطة تقديم المأكل والملبس ، فإن النداء عمل لا يختلف في نظر هؤلاء النحاة إلا بكونه عملاً لغوياً يُنجزه المتكلم بواسطة اللغة، ويوقعه المنادي وينشئه بواسطة التلفظ بألفاظه، فيكون النداء حال خطاب يتحقق فيها تنبيه المخاطب بواسطة حروف يوقع المتكلم بها عمل التنبيه^(٢).



يقوم الخطاب على عملية تواصلية تتفاعل فيها مجموعة من العناصر التي يتوقف عليها تحقق الإفادة وانتقال المعنى فلا خير ((في كلام لا يدلُّ على معنأك ، ولا يشير إلى مغزأك ، وإلى العمود الذي إليه نزع))^(٣) فأی تركيب نحوي لابد من أن يرجع إلى قدر من الإفادة ، ولا ينشأ الكلام من الألفاظ والتراكيب وحدها ، وإنما يتحدد

(١) ينظر: الانشاء في العربية بين التركيب والدلالة : ١٦٣ .

(٢) ينظر: نفسه : ٢٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ، الجاحظ : ١١٥/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

من خلال العلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب وما يُحيط بالخطاب من مقام ومُلابسات .

تعددت تعاريف الخطاب بناءً على الهدف منه والمجال الذي يُطرح فيه ، ولكنه لا يعدو أن يكون منتجاً لغوياً فكرياً وثقافياً ، وعند النظر إليه من الجانب الوظيفي يرى أحمد المتوكل أنه : ((يعدّ خطاباً كل ملفوظ/ مكتوب يشكّل وحدة تواصلية))^(١) ، فيكون الهدف من الخطاب هو تحقيق التواصل سواء أكان عن طريق المنطوق أم المكتوب ، وهذا التواصل لا يتمّ إلا بوجود شخصين على الأقل أو أكثر ومقام تتشكل فيه ظروف الخطاب .

ولعلّ أبرز مجالات النشاط الوظيفي المتعلّق باللغة هو توصيفها كآلة يتناقل الناس الأخبار بواسطتها لا تعمل إلا في إطار عناصر الموقف الكلامي (المتكلم ، المخاطب ، الأشياء المحسّنة وأوضاعها) فنقوم اللغة على توافم هذه العناصر لأداء وظيفتها^(٢) ، من هذا المنطلق يتناول هذا المبحث الوظائف التواصلية لعناصر العملية التخاطبية ، ممثلةً بالمتكلم والمخاطب والمقام التخاطبي للكشف عن أثرها في توجيه الخطاب النحوي عند السيرافي .

أولاً : المتكلم :

(١) الوظيفية بين الكلية والنمطية ، أحمد المتوكل : ١٣ .

(٢) ينظر : نظرية النحو العربي ، د. نهاد الموسى : ٨٤-٨٥ ، وفي النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٢٥ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يمثل المتكلم العنصر الأول في العملية الخطابية ، إذ يصدر عنه الخطاب بقصد التعبير عن معنى معين وتحقيق غرض مخصوص ، وذكر طه عبد الرحمن أنَّ المتكلم يحتاج إلى أن يأتي من القصود ما يكفي لتبليغ مراده للسامع فهو يستعمل القول بالشكل الذي يجعل له قصداً مخصوصاً ثم يقصد أن يفهم المستمع هذا القصد المخصوص^(١) ، فالإشارة إلى الخطاب هي إشارة إلى مفهوم اللغة التواصلية^(٢) ، والمتكلم هو : ((الذات المحورية في انتاج الخطاب ؛ لأنه هو الذي يُتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة ، وبغرض تحقيق هدف فيه))^(٣) .

وذكر الرضي الاسترابادي : ((أنَّ محدث هذه المعاني في كل اسم هو المتكلم، وكذا محدث علاماتها))^(٤) ، وانطلاقاً من هذا التصور عُني النحاة بقصد المتكلم، وأظهروا أثره في توجيه القاعدة النحوية ، قال السيرافي : ((إنَّ الإخبار عن الأشياء كلها أولى الأوقات بها الوقت الذي وقع فيه الخطاب في المعنى ؛ لأنَّ اللفظ صيغ له ، وذلك أنَّ المتكلم إذا قال : زيد قام ، فإنما يريد إفادة المخاطب، وتعريفه من أمر زيد ما خفي عنه ... والمعتاد في الخطاب أن يكون للحال ، فعلم من جهة المعنى أنَّ

(١) ينظر : اللسان والميزان ، طه عبد الرحمن : ١٦١ .

(٢) ينظر : الوظيفة بين الكلية والنمطية ، د. أحمد المتوكل : ٢٢ .

(٣) استراتيجيات الخطاب مقارنة تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري : ٤٥ .

(٤) شرح الرضي على الكافية : ٦٣/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الوصف متى ما عرِيَ من النسبة إلى وقت بعينه ، كان مقصوراً على وقت التكلّم به والإخبار ؛ لِمَا بَيَّنَّا أَنَّ حكم الخطاب إفادة المخاطب ما يحتاج إلى معرفته^(١).

يكشفُ هذا النص وعي السيرافي المبكر بأثر قصد المتكلّم في توجيه الخطاب، إذ لم ينظر إلى الكلام على أنّه تركيب لغوي مجرد ، وإنّما جعله وسيلة لإفادة المخاطب وتعريفه بما يخفى عليه ، ولذلك قرّر أنّ الأصل في الإخبار أن ينصرف إلى زمن التكلّم ، مالم تقم قرينة تصرفه إلى غيره ، فجعل دلالة الزمن مرتبطة بمقام الخطاب وقصد المتكلّم ، وبذلك على أنّ تفسيره للقاعدة النحوية لم يقدّم على البنية وحدها ، وإنّما راعى الغرض الذي أنشئ الكلام من أجله والظروف المحيطة به .

ولم يقتصر النحاة في تأويل النصّ على ألفاظه فحسب ، بل راعوا حال المتكلّم وصفته ، لما لذلك من أثر في توجيه المعنى وفهم المقصود قال السيرافي : ((اعلم أنّ الشاعر قد يضطر حتّى يضع الكلام في غير موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه ، فينزله عن قصده الذي لا يحسن في الكلام غيره))^(٢) .

يظهر من هذا النصّ أنّ السيرافي لم يقف عند ظاهر اللفظ ، وإنّما راعى حال المتكلّم وقصده فجعل منزلة المتكلّم وصفته من القرائن التي تعين على توجيه الكلام وفهم المراد منه ، ففهم الكلام في ضوء شخصية المتكلّم التي تتشكّل من خصائص معينة توسمه بصفات خاصّة تنعكس في حديثه بشكلٍ يصبح أسلوباً خاصاً به ، لذا

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٧/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٣٩/٢ ، و ينظر : كتاب سيبويه : ٢٦/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

خصّ الشاعر بقدر من السعة في التعبير مراعاة لطبيعة الخطاب الشعري ومقاصده^(١).

وبيّن السيرافي أثر حال المتكلم في توجيه الخطاب ، ولا سيّما إذا وقع في كلامه سبق لسان أو عدل عن معنى إلى آخر ، فقد ((يكون الكلام غلطاً من المتكلم به سبق إليه لسانه ، أو رأى ذكره ، ثم رأى ذكر غيره كما يذكر الذاكر الشيء على غير وجه الإبطال له ، ولكن يرى أنّه مضى وتقضى وقته والحاجة إلى ذكره ، وأنّ ما بعده أولى بالتذكّر فيقول : كان كذا وكذا بل كذا ، تقول : كان كذا ثم تقول دع ذا أو خذ ذا الشيء الآخر))^(٢) .

يعرض السيرافي جانباً من جوانب أثر قصد المتكلم في الخطاب ؛ إذ يبيّن أنّ المتكلم قد يعدل عن لفظ في كلامه إلى آخر إمّا بسبب سبق اللسان ، أو لتغيّر قصده فينتقل من ذكر شيء إلى غيره بأدوات لغوية مثل (بل كذا ، أو دع ذا) وهذا يوضّح أنّ الخطاب عملية ديناميّة مرتبطة بمقصد المتكلم أولاً ، ولا يكون بنية جامدة مهيّئة قبل لحظة التكلّم ، ولا يخفى ما للسياق من أثر في توجيه هذا التحول، إذ إنّ المخاطب لا يفهم العدول من معنى إلى معنى آخر إلّا إذا استدلّ عليه من خلال مقام الكلام ونية المتكلم التي تظهر في نسق الخطاب ، وهكذا يصبح العدول دليلاً

(١) ينظر : سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة ، د. أسعد خلف العوادي : ٦١ ، و دلالة السياق

، د. ردة الله الطليحي : ٦٠ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٢٦/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

على أنَّ المعنى يتشكّل في ضوء المقصدية والسياق معاً وأنّ ترابط الخطاب إنّما ينبني على وعي المتكلّم واستعداد المخاطب للفهم^(١) .

إنّ ما أشار إليه السيرافيّ من تغيّر مقصد المتكلّم أثناء الخطاب وعدوله من لفظٍ إلى آخر يُظهر أنّ قصدية المتكلّم لا تنفصل عن طبيعة الموقف الكلامي ، وأنّها قد تتبدّل تبعاً لاعتبارات آنية ، وهذا ينسجم مع ما قدره غرايس في تمييزه بين ما يُقال وما يُقصد ، إذ لا يقتصر فهم الخطاب على مدلوله اللفظي ، بل يستلزم استحضار قصد المتكلّم والقارئ المصاحبة للكلام^(٢) .

وقد أولى النحاة المتكلّم عناية واضحة ، فلم يغفلوا أثر قصده في توجيه الخطاب فذكر السيرافي ((أنّ الباب في التعظيم والمدح ، والباب الذي في الشتم والتقبيح يجريان مجرى واحداً ... والذي يصيّر مدحاً وثناءً أو شتماً وتقبيحاً ، قصد المتكلّم به إلى ذلك ، وربما قصد الإنسان بقوله : فلان فاضلٌ شجاع إلى الهزء به ويتبيّن ذلك في لفظه من محاوره ، وهذا معروفٌ في عادات كلام الناس))^(٣) .

يُشير السيرافيّ إلى أنّ فهم المعنى لا يقتصر على التركيب النحوي الظاهر ، بل يتطلب النظر إلى نية المتكلّم وما يصاحب الخطاب من قرائن لفظية ومقامية ؛ فقد يستعمل اللفظ نفسه للمدح أو للسخرية أو للتهكم ، ولا يُدرك المراد إلّا باستحضار نية المتكلّم وسياق الخطاب ، ويدلّ ذلك على إدراكه المبكر أنّ المعنى لا يُستفاد من

(١) ينظر : تحليل الخطاب الأدبي (دراسة تطبيقية) ، إبراهيم صحراوي : ١٨ .

(٢) ينظر : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ٣٤-٣٥ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافيّ : ٣٩٥/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الألفاظ المجردة , إنما يتحدّد من خلال القصد الذي يوجّهها في مقام الاستعمال وهو ما ينسجم مع ما ذهب إليه الدكتور محمد حماسة من أنّ التحليل النحوي لا يقف عند ظاهر البنية , بل يتجاوزها إلى المعنى الذي يوجّه الاستعمال, فتحدّد وظيفة العنصر اللغوي في ضوء السياق والعلاقات المعنوية^(١) .

وفرق السيرافي كذلك بين النكرة والمعرفة بحسب قصد المتكلّم , فلا يدرك الحدّ الفاصل بينهما في ضوء البنية الشكلية فحسب ((وإنّما يكون التّكثير والتّعريف فيها على قصد المتكلّم , وذلك في الأسماء الأعلام التي لا ألف ولا لامًا فيها , وفي الأسماء المضافة التي يمكن فيها التّنوين أو تقديره , تقول في الأعلام : جاءني زيد وزيدٌ آخر , ومررتُ بعثمانَ وعثمانٍ آخر , وما كلُّ إبراهيم أبا إسحاق . وإنّما صار الاسم العلم أصله التعريف لأنّه الاسم الذي يقصد به المسمّى شخصًا لتبيّنه بذلك الاسم من سائر الشخوص , كرجل سمّي ابنه : زيدًا أو غيره لتعرف باسمه من غيره وهذا أصله ... وإن أفرد على أنّه واحد من جماعة لا يعرفه المخاطب فهو نكرة))^(٢) .

أوضح السيرافي أنّ التعريف والتّكثير لا يُحكمان دائماً بالعلامات الشكلية وحدها كالألف واللام أو التّنوين , وإنّما يرجعان بالأساس إلى قصد المتكلّم , فحتّى الأعلام -التي وجدت في أصل الوضع للتعريف والتّعيين- قد تستعمل في مقام ما على وجه التّكثير, إذا أراد المتكلّم أن يبرزها لا بوصفها معرفة , بل كأحد أفراد جماعة غير

(١) ينظر : بناء الجملة العربية , د. محمد حماسة عبد اللطيف : ٢٤٥-٢٤٦ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ٣٩٥/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

محددة في ذهن المخاطب ، فقولهم : جاءني زيد وزيد آخر ، وما كل إبراهيم أبا إسحاق ، ليبين أن العلم مع كونه أصلاً في التعريف ، إلا أنه قد يصير نكرة في سياق عدم تحديد شخص بعينه ، وهذا يعكس إدراك السيرافي أن المعنى لا يستمد من البنية اللفظية فقط بل من مقصد المتكلم والمقام الذي يحيط بالخطاب ، وكذا الأمر في ((قولهم للثريا : النجم ، لنجم قد عرفه المتكلم والمخاطب وعهداه ، أي نجم كان ، ثم غلب على الثريا اسم النجم حتى يقول القائل : طلع النجم فيعلم المخاطب أنه يعني به الثريا من غير عهد بينهما))^(١) .

يبين السيرافي أن التعريف قد ينشأ من عهد خاص بين المتكلم والمخاطب ، كأن يراد بلفظ (النجم) نجم بعينه اتفقا عليه سلفاً ، ثم يغلب هذا الاستعمال مع التكرار حتى يصبح عهداً عاماً يعرف به المسمى دون الحاجة إلى قرينة ، فيكفي أن يقول المتكلم : (طلع النجم) ليفهم المخاطب أنه يقصد الثريا من غير حاجة إلى قرينة أخرى ، ويكشف ذلك أن التعريف ليس مجرد أداة نحوية أو علامة لفظية ، إنما هو أثر من آثار التفاعل بين قصد المتكلم ومعرفة المخاطب وما يفرضه المقام من إحالة إلى مرجع معلوم^(٢) .

وامتد تأثير قصد المتكلم إلى إعمال أو إلغاء أثر الفعل ، كما الأمر مع أفعال الشك واليقين ، فنقل السيرافي عن سيبويه قوله : ((فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيته من الشك أعمل الفعل فُذِّمَ أو أُخِّرَ ، كما قال : " زيداً رأيتُ ورأيتُ زيداً " ، وكلما

(١) نفسه : ٤٣٠/٢ .

(٢) ينظر : شرح المفصل ، ابن يعيش : ١٢٧/١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

طال الكلام ضعُفَ تأخير الأعمال ، إذا قلتَ : "زيدًا منطلقًا اليوم أظن" ، كان أضعف من قولك : زيدًا أظن منطلقًا ... لأنَّ الوجه أن تقول : ضربتُ زيدًا قائمًا ... و لا يجوز في ضربتُ إلاَّ النصب))^(١) .

بيِّن السيرافي من خلال النص أنَّ إعمال أفعال الشك واليقين أو إلغائها لا يرتبط بصورة التركيب وحدها ، إنما يتأثر بما ينعقد في نفس المتكلم من قصد عند ابتداء الكلام ؛ فإذا شرع في خطابه على نيّة الشك أعمل الفعل ، سواءً تقدّم أم تأخر ، لأنَّ العبرة بما قصده المتكلم عند إنشاء الخطاب ، ويبين أنَّ طول الفصل بين العامل ومعموله يضعف أثر هذا الإعمال ، لما يقتضيه حسن النظم و وضوح المعنى ، ومن ثمَّ يكون قصد المتكلم عنصرًا أساسيًا في توجيه الحكم النحويّ ، إذ لا ينفصل بناء التركيب عند السيرافي عن الغرض الذي أنشئ الكلام من أجله .

وينسجم ما أشار إليه السيرافي فيما تقدّم مع ما ذهب إليه جاكسون في الوظيفة التعبيرية ، التي تبرز حضور المتكلم وتعكس مقاصده وانفعالاته وتُظهر كيف يوجّه كلامه تبعًا لما يريد أن يركّز عليه من معنى أو يلقيه من دلالة ، فتشير اللغة في وظيفتها التعبيرية إلى موقف المرسل من مختلف القضايا التي يتحدّث عنها^(٢) .

وتهدف هذه الوظيفة إلى ((أن تعبر بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدّث عنه ، وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معيّن صادق أو خادع))^(٣) ،

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٥٥/١-٤٥٦ .

(٢) ينظر : علم الدلالة أصول ومباحثه في التراث العربي ، عبد الجليل منقور : ٦٦ .

(٣) قضايا الشعرية ، رومان جاكسون : ٢٨ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

غير أنَّ فاعلية هذا القصد لا تتحقق إلا إذا وجد مخاطباً قادراً على إدراكه واستيعابه , لأنَّ نجاح الخطاب مرهونٌ بتفاعل طرفيه , الأمر الذي يقتضي الوقوف على دور المخاطب في العملية التواصلية .

إذا كان المتكلم يمثل الطرف الأول في العملية التواصلية بما يحمله من قصد وغرض , فإنَّ المخاطب يمثل الطرف المقابل الذي يكتمل به الخطاب وتتحقق غايته , إذ إنَّ ((الكلام صفة قائمة في نفس المتكلم يعبرُ للمخاطب عنه بلفظ أو لحظ أو (بخط) , ولولا المُخاطب ما أحتيج إلى التعبير عما في نفس المتكلم))^(١) فالمخاطب ليس متلقياً سلبياً , بل هو عنصر فاعل يشارك في بناء المعنى مستعيناً بما يملكه من معرفة سابقة , وما يدركه من قرائن تعينه على استنباط مراد المتكلم^(٢) .

ولم يغفل السيرافي أثر المخاطب في بناء الخطاب , فجعل حضوره وقربه من المتكلم من العوامل المؤثرة في اختيار الصيغة وترتيب الضمائر , بما يحقق وضوح الخطاب وانسجامه , فقال ((وإنَّما كان المخاطب أولى بأن يبدأ به من قبل أنَّ المخاطب أقرب إلى المتكلم من الغائب , فكما كان المتكلم أولى بأن يبدأ به بنفسه كان المخاطب الذي هو أقرب من الغائب أولى بأن يبدأ به))^(٣) .

(١) نتائج الفكر في النحو , عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي : ١٠٧ .

(٢) ينظر : نظرية التلقي أصول وتطبيقات , د. بشرى موسى صالح : ٢٩ .

(٣) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١٢٥/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يكشف النص عن مكانة المخاطب في بناء الخطاب , إذ جعل تقديم ضميره على ضمير الغائب مبنياً على قربه من المتكلم وحضوره في مقام التخاطب لا على الاعتبارات اللفظية فحسب , فالمخاطب هو الطرف المباشر الذي يتوجّه إليه الخطاب لذلك استحقّ أن يتقدّم على الغائب , كما أخذ المتكلم الصدارة في الكلام , ويظهر من ذلك أنّ ترتيب الضمائر عند السيرافي لم يكن ترتيباً شكلياً , وإنّما استند إلى طبيعة العلاقة التواصلية بين أطراف الخطاب , فجاءت البنية النحوية معبرة عن درجات القرب في عملية التخاطب , وعبر ابن السراج عن ذلك بأنه ترتيب يخضع لمبدأ القوة , فالمتكلم أقوى من المخاطب والمخاطب أقوى من الغائب^(١) .

ومن ثمّ لم يعد المخاطب عنصراً تابِعاً في الخطاب , بل أصبح حضوره مؤثراً في توجيه الاختيار النحويّ , بما يحقق وضوح التواصل بين طرفي الخطاب .

ويتجلّى أثر المخاطب في توجيه الخطاب عند السيرافي من خلال مراعاته مقدار العلم الذي يشترك فيه مع المتكلم , إذ جعل توجيه الكلام مرتبطاً بالحالة المعرفية للمخاطب , فقال : ((فإذا قلت : قد علمت "أزيذا ثم أم عمرو" فقد دريت واحداً منهما بعينه , ولم تخبر المخاطب به فعلم المخاطب به كعلمه بعمرو , وقد أحللت المخاطب محلّك حين كنت مستفهماً))^(٢) .

يبين السيرافي أنّ بناء الخطاب يتحدّد تبعاً لحال المخاطب , فالمتكلم قد يعلم الأمر في نفسه دون أن يفصح عنه للمخاطب , فيبقى هذا الأخير في منزلة المستفهم

(١) ينظر : الأصول في النحو : ١٢٠/٢ .

(٢) شرح كتاب سيويوه , السيرافي : ١٣٦/٢ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الذي يطلب تعيين أحد الأمرين ، ومن ثمّ لم يعد المخاطب متلقياً سلبياً ، بل غدا علمه وجهله عناصر مؤثرة في توجيه الصيغة النحوية واختيار الأسلوب ، ويكشف هذا عن وعي السيرافي بأنّ نجاح الخطاب يتوقّف على مراعاة الحال المعرفية للمخاطب ، بحيث يبنى الكلام على ما يشترك فيه طرفا الخطاب من علم وما يختص به أحدهما دون الآخر .

ويتجلّى أثر المخاطب بصورة واضحة في الاستفهام ، إذ يكشف السؤال عن مقدار ما تحقّق لديه من فهم ، ويبين مدى مطابقة خطاب المتكلّم لحاله ، قال السيرافي: ((فلما غلط المتكلّم في توهمه على المخاطب أنّه يعرفه ردّه المخاطب إلى الحق في حال نفسه أنّه غير عارف بمن ذكره ، وسأل عن ذلك ، وجعل المتكلّم كأنّه قد تكلم به، وربّما عدل المخاطب عمّا يوجبه لفظ المتكلّم ، وذلك قولك: كيف أصبحت ؟ فتقول صالح ، ومنّ ضربت ؟ فتقول زيد ، والذي يقتضيه لفظ السؤال صالحاً وزيداً))^(١) .

يكشف السيرافي في هذا النص عن وعيه العميق بدور المخاطب في إنجاح العملية التواصلية ؛ إذ يرى أنّ المتكلّم يبني خطابه على ما يظنّه من علم المخاطب، فإذا أخطأ في هذا التقدير ، ولم يكن المخاطب عالماً بالمرجع الذي أحال إليه الضمير، تعطلّ الفهم واضطرّ المخاطب إلى طلب البيان ، ومن ثمّ لا يتحقّق التواصل بمجرد صدور الخطاب ، بل يتوقّف على مراعاة المتكلّم للحالة المعرفية للمخاطب ، كما بيّن أنّ المخاطب ليس متلقياً سلبياً وإنّما يملك أن يعيد توجيه

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٧٧/٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

الخطاب ويصحّ مساره بما ينسجم مع حاله , وهو ما يظهر في عدوله عن ظاهر السؤال إلى الجواب الذي يحقق المقصود , مراعيًا ما جرى عليه الاستعمال العربي في التخاطب .

ويظهر أثر المخاطب كذلك في بناء الجملة الخبرية , إذ راعى السيرافي ما يكون معلومًا للمخاطب وما يكون مجهولًا لديه , وجعل ترتيب أجزاء الجملة تابعًا لهذا الاعتبار , فقال : (("فإذا قلت : كان زيد , فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك" . يعني ابتدأت بالاسم الذي يعرفه المخاطب , كما تعرفه أنت , فإنّما ينتظر الخبر الذي لا يعلمه وتستفيده , فإذا قلت : حليمًا , فقد أعلمته مثل ما علمت مما لم يكن يعلم , ولو قلت : كان حليمًا , فقد استفاد وقوع حلم لا يدري لمن هو , فإنّما ينتظر صاحبه , فإذا قلت زيد علم أنّ الحلم الذي قد استفاد وقوعه لزيد هذا المعروف, فهو جائز وإن كان مؤخرًا في اللفظ))^(١) .

يبين السيرافي أنّ بناء الجملة الخبرية يتوجّه إلى المخاطب قبل كلّ شيء , فالمتكلّم يبدأ بما هو معلوم لديه , ليجعل الخبر موضع الإفادة ؛ لأنّ المخاطب لا ينتظر إعادة ما يعلمه , وإنّما ينتظر ما يضيف إلى معرفته , ومن ثمّ غدت الحالة المعرفية للمخاطب موجّهًا لاختيار ترتيب عناصر الجملة , بحيث يتحقّق الغرض من الخطاب في نقل فائدة جديدة إليه .

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافي : ١ / ٣٠٣ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

يظهر ممّا تقدّم أنّ المخاطب يمثل ركنًا أساسيًا في العملية التواصلية ، إذ تتوقف فاعلية الخطاب على قدرته على تلقّي مقاصد المتكلّم وتأويلها في ضوء ما يحيط بها من قرائن ومقام ، ومن ثمّ لم يعد المخاطب عند السيرافي متلقّيًا سلبيًا للخطاب ، بل شريكًا في تحقّق معناه ؛ إذ يُسهّم فهمه واستجابته في إتمام عملية التواصل ، وبذلك تتكامل أركان الخطاب ، ويتحقّق الغرض الذي أنشأ من أجله^(١) .

ثالثًا: المقام التخاطبي :

يعدّ المقام التخاطبي الإطار الجامع لعناصر الكلام ، إذ يضم المتكلّم والمخاطب وما بينهما من علائق تواصلية ، وما يكتنف الخطاب من ظروف زمانية ومكانية ونفسية تولد المعنى وتمنحه دلالاته الخاصة ، فالخطاب سلوك يقع ((بين متكلّم و مخاطب ، ولا يكون إلا لدواعٍ ، ولا يكون إلا لمقاصد ، ولا يكون إلا في إطار زمني ومكاني وشروط تواصلية هي ما نعبر عنه بعناصر السياق والمقام))^(٢) .

فالمقام التخاطبي يقوم على مجموعة من العناصر المتكاملة التي تُسهّم في إنتاج الخطاب من جهة ، وفي فهمه وتأويله . من جهة أخرى ، وأوّل هذه العناصر وأهمها المتكلّم بما يحمله من قصد ودافع يُحرّك فعل الخطاب ويوجه بنيته ، يليه المخاطب الذي تُراعى حاله وموقعه بعده الطرف الموجّه إليه الخطاب ، أما العنصر الثالث : فهو العلاقة القبلية التي تربط بين المتكلّم والمخاطب ، وما تتطوّر عليه من

(١) ينظر : علم المخاطب بين التوجيه النحوي والتداولية ، د. عمر محمد أبو نواس ، بحث منشور : ١٠٣ ،

والتواصل اللسانيّ في شرح كتاب سيبويه للسيرافي (٣٦٨هـ) ، رسالة ماجستير : ٦٤ .

(٢) الأفق التداولي نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية ، إدريس مقبول : ١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

معارف وسياقات مشتركة تمثل الأرضية التي يتم من خلالها إنتاج الخطاب وتفسيره ، فضلاً عن زمان الخطاب ومكانه بوصفهما عاملين فاعلين في عملية التواصل ، يؤثران في طبيعة الاستعمال اللغوي وفي توجيه أغراض المتخاطبين^(١) .

وعليه فإنّ الخطاب لا يكتسب قيمته التواصلية إلا في إطار المقام الذي يُنتج فيه ومن ثمّ يكون مدار فهمه وتحليله والنظر في شروط إنتاجه في ضوء مؤشرات المقام التخاطبي الحافة بعناصره ، وتتمثل هذه المؤشرات في المقام الأول في شخصية المتكلم والمخاطب ، وتكوينهما الثقافي ، فضلاً عن الشخصيات المشاركة في الحدث الكلامي إن وجدوا ، وما ينشأ عن ذلك من أثر في توجيه الخطاب^(٢) .

ويتجلى ذلك في تفسير السيرافي لقول لبيد ، فقال : ((قال لبيد :

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضِهَا أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضُ النَفُوسِ حَمَامُهَا

... وأما بيت لبيد فإنّ الجزم فيه صحيح ؛ لأنّ المعنى : تَرَكَ أَمَكْنَةَ "إذا لم أرضها وإذا لم يَأْتِنِي مَوْتِي" . و أراد بالموت ها هنا أسباب الموت التي لا يمكن معها براح المكان ومفارقتها من العلل الحابسة له و الضرورات الدافعة إلى المقام ، وقد تسمى

(١) ينظر : نفسه . ١٢-١٣ .

(٢) ينظر : علم اللغة الاجتماعي ، د . هادي نهر : ١٨٨-١٨٩ ، و التفكير اللغوي بين القديم والحديث ، د .

كمال بشر : ١٣١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

أسباب الموت موتاً ، قال تعالى : ﴿ وَكَدَّ كُتْمُ تَمْتُونِ الْمَوْتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ((^(١)).

يتبين من تحليل السيرافي لقول لبيد ، أنه لم يقتصر في على بيان الجانب الإعرابي ، بل تجاوزه ذلك إلى استجلاء قصد المتكلم والكشف عن الدافع الذي وجه خطابه ؛ إذ يرى أن الشاعر أراد بالموت أسبابه التي لا يمكن معها براح المكان ومفارقته بسبب العلل أو المسببات المانعة ، ويكشف هذا عن وعي السيرافي بالعلاقة القائمة والمؤثرة بين شخصية المتكلم وحالته النفسية والاجتماعية في توجيه المعنى ، فلم ينظر إلى النص بوصفه بنية لغوية مستقلة ، وإنما بوصفه نتاجاً لمقام تخاطبي تتفاعل فيه نيات المتكلم مع تلقّي المخاطب في إطار من العوامل المحيطة بالقول .

وذكر السيرافي أن حكم الخطاب المفهوم هو ما تساوت فيه معرفة المخاطب بمعرفة المتكلم ((فإذا قال : " كان زيد عالماً " فقد كان المخاطب عالماً بزيد من قبل ، وقد عرف علمه الآن لإخبار المتكلم إيّاه ، فقد ساواه في الأمرين جميعاً ، وإذا قال : " كان عالمٌ زيداً " فعالم منكور لا يعرفه المخاطب ، ولم يجعله خبراً فيفيده ، وقد قدمنا أن الأسماء لا تُستفاد ، فمعرفة المخاطب بعالم غير واقعه ، فلم يساو

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٢١/١ - ٢٢٢ ، والبيت الشعري ، ديوان لبيد : ٤٧ ، و الآية آل عمران: ١٤٣

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

المخاطب المتكلم إذن ، لأن المنكور في الإخبار لا يعرفه المخاطب ، وإن كان المتكلم قد راه وعرفه^(١) .

يوضح السيرافي في هذا النص أن نجاح الخطاب يرتبط بوجود قدر من المعرفة المشتركة بين المتكلم والمخاطب فقول المتكلم : (كان زيد عالماً) يفترض أن المخاطب يعرف زيد مسبقاً ، ثم يكتسب من الخبر علماً جديداً ، وهو اتصافه بالعلم ، فتتحقق بذلك الإفادة المقصودة ، أمّا إذا قال : (كان عالمٌ زيداً) فإن لفظ (عالمٌ) نكرة لا تمثل مرجعاً معلوماً لدى المخاطب ، فلا يؤدي الإخبار وظيفته ؛ لأنّ المقام التخاطبي يقتضي أن ينطلق المتكلم من معلوم مشترك بينه وبين المخاطب ، ثم يبني عليه ما يراد إفادته ، ومن ثمّ جعل السيرافي اشتراك الطرفين في معرفة المرجع أساساً لسلامة الخطاب ، وتحقيق غايته التواصلية^(٢) .

ونقل السيرافي عن سيبويه قوله : ((" وأما المستقيم القبيح ، فإن تضع اللفظ غير موضعه ، نحو قولك : " قد زيداً رأيت " و " كي زيداً يأتيك " ... فإن قال قائل : كيف جاز أن يسميه مستقيماً قبيحاً ؟ وهل هذا إلا بمنزلة قوله حسن قبيح ؟ لأن المستقيم هو الحسن . فإنّ الجواب في ذلك أن الكلام ينقسم قسمين : كلام ملحون ، وكلام غير ملحون : فالملحون هو الذي لحن به عن القصد ، وكذلك معنى اللحن ، إنّما هو العدول عن قصد الكلام إلى غيره وما لم يكن ملحوناً فهو على القصد ،

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣٠٤/١ .

(٢) ينظر : النص والخطاب والاتصال : ٧٥ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

وعلى النحو ، ومن ذلك سمّي النحو نحوًا ، والمستقيم من طريق النحو هو ما كان على القصد سالما من اللحن ، فإذا قال : " قد زيدا رأيت " فهو سالم من اللحن ، فكان مستقيما من هذه الجهة ، وهو مع ذلك موضوع في غير موضعه فكان قبيحا من هذه الجهة^(١) .

وهذا مما يؤكد وعي النحاة الأوائل بعلاقة المتكلم بمقام التخاطب ، فتقسيم الكلام على مستقيم وقبيح وملحون وغير ملحون ، يُبين أن القبيح قد يكون مستقيما من جهة النحو ، أي صحيح البنية خاليا من اللحن ، لكنه يعد قبيحا من جهة المقام لأنه وضع في غير موضعه ، فقول القائل : قد زيدا رأيت لا يلحن فيه من جهة الصناعة، لكنّه عدول عن المقصد التخاطبي السليم^(٢) ، فيربط السيرافي بين سلامة اللغة وملائمتها المقام ، فيتبين أن معيار قبول الخطاب لا يتوقف على البنية وحدها، بل على مراعاة القصد التخاطبي والوظيفة التواصلية التي تنشئ المعنى في سياق المتكلم والمخاطب^(٣).

ومن عناصر المقام التخاطبي الأعراف اللغوية السائدة في المجتمع اللساني ، إذ تسهم في توجيه الاستعمال اللغوي والحكم على مقبوليته ، ويظهر ذلك في قول السيرافي بأنّ : ((كلّ بناء من اسم أو فعل عرف في كلام العرب يجوز لنا أن نبني مثلهم وإن كانت العرب تبنيه ، كقائل قال لنا : كيف تبني من ضرب مثال جعفر؟

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٨٧ .

(٢) ينظر : لحن العامة والتطور اللغوي ، رمضان عبد التّواب : ١٣ .

(٣) ينظر : استراتيجيات الخطاب : ٤١ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

فالجواب ضريب وليس في كلام العرب ضريب ولكن في كلامهم مثاله وهو جعفر... ولو ورد علينا شيء ليس في كلام العرب مثاله لرددناه وأنكرنا أن يكون من كلام العرب خروجها عن أمثلتهم لم يجز أن ننبي مثالا غير مثالها ، فيكون خارجا عن كلام العرب... ومعنى قول سيبويه : "وما قيس من المعنل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء في نظيره من غير باب يريد ما قاسه النحويون على الأمثلة التي تكلمت بها العرب مما لم تتكلم به" (١) .

يتضح من كلام السيرافي أن قبول الأبنية اللغوية أو ردّها لا يستند إلى الإمكان القياسي وحده ، وإنما يتأثر بما استقرّ عليه الاستعمال اللغويّ عند العرب فقد قرر أنّ كلّ بناء من اسم أو فعل عُرفَ في كلام العرب يجوز لنا أن ننبي مثله وإن كانت العرب لم تبنيه ، فالعرف اللغويّ بوصفه أحد مكونات المقام ، مثلّ عند السيرافيّ معياراً في الحكم على سلامة الخطاب وقبوله ، إذ لا يكتسبُ البناء اللغويّ قيمته التواصلية إلا إذا وافق ما تعارف عليه أفراد المجتمع اللسانيّ ، ومن ثمّ رفض السيرافي كل ما يخرج عن نسق الأمثلة المألوفة في الاستعمال العربي ، وعدّه خارجاً عن كلامهم إدراكاً منه لأثر الخروج عن الاستعمال في وقوع الإبهام و عدم نجاح التواصل (٢) .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٣٤-١٣٣ .

(٢) ينظر: تداولية المقام في الدرس البلاغي العربي القديم ، أ.أعمارة ربيعة ، بحث منشور : ٥٩ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

ومن خلال قول سيبويه : (قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به..) يتبين أنّ القاعدة عنده تستمد من الأمثلة التي تكلمت بها العرب فعلاً ، لا من تلك التي يتصوّر إمكانها ، لأن معيار الصّحة اللغوية عنده قائم على التحقق الاستعمالي لا على الاحتمال النظري فالسيرافي يرسخ بهذا الفهم المقام التخاطبي القائم على الأعراف اللسانية والاجتماعية المتعارف عليها في بيئة العرب ، ليجعلها مقياساً في قبول البنى وردها، وهو ما يؤكد أنّ الموضوع الخطابي عنده متصل بحدود ما تجيزه الجماعة اللسانية وتقرّه في عملية التواصل .

ولا تقتصر عناصر المقام التخاطبيّ على أطراف الخطاب وظروفه ، بل تمتد إلى الأعراف اللغوية التي تحكم طرائق التعبير ، ومنها مقدار البيان والإبهام الذي يقتضيه المقام ، قال السيرافي : ((الإبهام في الخبر قوله : ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ فإن قال قائل : كيف يقع هذا الإبهام الذي ذكرته من الله عزّ وجلّ على خلقه إذا كان إنّما قصد بمخاطبتهم البيان والإفهام ... قيل له إنّما خوطبوا على قدر ما يجري في كلامهم من إفهام بعضهم بعضا ... وقد يُبهم المتكلم لقلّة الفائدة من التفصيل))^(١) .

يبين السيرافي أنّ الخبر قد يردّ بشيء من الإبهام وضرب مثلاً الآية الكريمة، فيفترض سائلاً يسأل : كيف يقع الإبهام في كلام الله عزّ وجلّ وهو يقصد به البيان وإقامة الحجّة ؟ فيجيب السيرافي بأنّ هذا اللون من الخطاب إنّما جاء على ماجرت

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٧٧/٣ - ٢٨٨ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

عليه عادة المتكلمين ، فالإبهام هنا ليس لقصور في العلم ، بل هو من مقتضيات التخاطب البشري ، فقد يعرض المتكلم عن التفصيل - وهو عالم به - لقلّة الفائدة فيه، فيكتفي بالمقتصد من القول مادام المتكلم قد حقّق المقصود من الكلام^(١).

ومما يُظهر أثر القصد في توجيه المعنى ما ذكره السيرافي من اختلاف دلالات اللفظ الواحد بحسب نية المتكلم ، فيبين في شرحه لقول أبي عثمان المازني: ((" أما ترى أي برقٍ ها هنا" يُريد به رؤية العين ، ولم يرد به رؤية القلب ، لأنه إذا كان يقول : " انظر إليه ببصرك " ، وجاز هذا في هذا خاصة ، لأنها محكية ، ولا يُقاس. وذلك أن الحروف التي تقع على الاستفهام ، إنما تقع عليها الأفعال التي تتعدّى إلى مفعولين ، ورؤية العين لا تتعدّى إلا إلى مفعول واحد. و القول الصحيح إنه يريد الرؤية التي في معنى العلم ، وإليه يرجع الكلام ، لأنّ الإنسان إذا قال لمن يخاطبه : " أما ترى أي شيء في الدنيا ؟ " فليس يُريد به رؤية العين وإنما يريد به رؤية العلم ، وقد يقول القائل : " اذهب فانظر زيد أبو من هو " ، وليس يُريد اذهب فأبصره بعينك، وإنما يريد اعلم ذلك))^(٢) .

يتبيّن من هذا النصّ أنّ تعدّد الدلالات التي يحتملها التركيب اللغوي لا يحسم إلّا باستحضار قصد المتكلم والقرائن المقامية المصاحبة للخطاب ، ولذلك حمل السيرافي فعلي الرؤية والنظر على معنى العلم والإدراك ، لا مجرد الإبصار، لأنّ هذا

(١) ينظر: النص والخطاب والاتصال ، د. محمد العبد : ٢٩٠-٢٩١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢/١٣٥ .

الفصل الثاني : أثر الوظائف التواصلية في بناء القاعدة النحوية

.....

التأويل هو الذي ينسجم مع سياق الخطاب ويحقق غاية الإفهام ، ويكشف ذلك عن وعيه بأن نجاح العملية التواصلية يتوقف على مراعاة قصد المتكلم ، واستثمار عناصر المقام في توجيه المعنى إلى الوجه الذي يحقق الفائدة للمخاطب ، فكان استعمال فعل النظر هنا ملبساً لولا استعانة السامع بالمقام مما أعانه على معرفة المعنى الحرفي للعبارة^(١).

ويتبين مما تقدم أن قيمة الخطاب تتحد بما يشترك فيه المتخاطبون من معرفة فلم تعد سلامة الخطاب رهينة بصحة التركيب النحوي فحسب ، وإنما أصبحت مرتبطة بملائمته للمقام الذي يحقق الغاية من التواصل^(٢).

(١) ينظر: اللسانيات الوظيفية ، مدخل نظري ، د. أحمد المتوكل : ٢٦ .

(٢) ينظر : المقام أو السياق بين المفهوم العربي والغربي ، أ. موهوب أحمد : ١٠٨-١٠٩ .

الفصل الثالث

الحجاج والتواصل

توطئة

المبحث الأول : حجاجية السماع في توجيه الحكم
النحوي

المبحث الثاني : الخلاف النحوي في مسائل الخبر

المبحث الثالث : البنية الشرطية وأثرها في توجيه
المعنى التواصلية

توطئة :

يعدّ الحجاج آلية اقناعيّة تقوم على عرض الرأى وتدعيمه بالأدلة والبراهين بقصد حمل المخاطب على الاقتناع به والتسليم بمضمونه ^(١) , ولا ينفصل الحجاج عن العمليّة التواصليّة ؛ لأنّه لا يقوم على عرض الآراء فقط, بل على توجيهها إلى مخاطب بقصد التأثير فيه وحمله على قبولها أو ترجيحها, ومن ثمّ فإنّ الحجاج يمثّل وجهًا من وجوه التواصل , تتجلّى فيه وظيفة اللغة في الاقتناع وبناء التفاعل بين أطراف الخطاب ^(٢) , ولا سيّما في المواطن الخلافيّة , إذ يكون الحجاج بالأدلة وسيلة لترجيح رأى على آخر .

ولقد كان الدرس النحويّ من أبرز الميادين التي تجلّت فيها الممارسة الحجاجيّة, إذ لم يكتفِ النحاة بعرض آرائهم , وإنّما يسندونها بالأدلة والحجج التي تعزّزها وترجّحها على ما سواها , ومن أبرز القضايا التي ظهر فيها هذا اللون من الاحتجاج قضية السماع والقياس , ولا سيّما عند السيرافيّ الذي غلب السماع في ترجيحاته في أكثر المواضع فاستند إلى الشواهد المسموعة من كلام العرب , لتأييد آرائه والرد على مخالفيه , كما مثّلت مواطن الخلاف النحويّ مجالًا خصبًا للمحاجة ؛ إذ يسعى كلّ طرف إلى تدعيم رأيه بما يقيمه من أدلة على اعتبار أنّ كل خصم يُريد الغلبة لصالحه .

(١) ينظر: الحجاج في التواصل , فيليب بروطون : ٣٣ .

(٢) ينظر : التواصل والحجاج , عبد الرحمن طه : ٦ .

من هذا المنطلق تتّجه هذه الدراسة إلى تتبّع الآليّات الحجاجيّة التي اعتمدها السيرافيّ في بناء خطابه النحويّ ممثّلة بالسماع , والخلاف النحويّ , والبنية الشرطيّة.

المبحث الأول : حجاجيّة السّماع في توجيه الحكم النحوي :

يقوم التفكير النحويّ العربي على أصول استند إليها النحاة في بناء الأحكام وتقويمها , وكان السماع والقياس في مقدّمة هذه الأصول في مقدّمة هذه الأصول , إذ مثلاً الأساس الذي اعتمد عليه النحويّون في الاستدلال وإثبات الأحكام , ولم يكن الرجوع إليهما مقصوراً على استنباط القواعد , بل تجاوز ذلك إلى الاحتجاج بها وترجيح الآراء المختلفة , ولمّا كان السماع أوثق هذه الأصول وأقواها حجّة عند جمهور النحاة , فقد احتلّ منزلة بارزة في خطاب السيرافيّ , إذ اعتمد عليه في توجيه الأحكام النحويّة والرد على مخالفيه , فغدا السماع وسيلة حجاجيّة يستند إليها في ترجيح آرائه والرد على المعترضين^(١) , ولم يكن البحث في الأصول مقصوراً على بيان مصادر الأحكام , بل لإقامة الدليل عليها وترجيحها , ففائدة البحث في الأصول هي : ((التعويل في إثبات الحكم على الحجّة والتعليل والارتفاع عن

(١) ينظر : أصول التفكير النحويّ , علي أبو المكارم : ١٧ - ١٨ .

حضيض التقليد إلى بقاء الاطلاع على الدليل^(١) .

عُرف السماع بأنه : ((الأخذ المباشر للمادة اللغوية عن الناطقين بها))^(٢) ، فلا يخفى أن اللغة العربية هي لغة مشافهة ((نشأت في أحضان جزيرة العرب خالصة لأبنائها منذ ولدت ، نقية سليمة مما يشينها من أراذن اللغات الأخرى))^(٣)، وأول ما لجأ إليه النحاة لتوثيق الصحيح من الكلام هو السماع و روايات السماع عن الخليل (رحمه الله) وسيبويه كثيرة معروفة ، وكان المسموع أيضاً على مراتب، فكان الاحتجاج بالقرآن الكريم هو الأعلى حجةً من بين الشعر والروايات والأحاديث النبوية والمأثورة^(٤).

ولذلك اقتصر البحث على تتبع طائفة من المواضع المتفرقة في شرح السيرافي التي وظّف فيها السماع بوصفه حجة لإثبات رأيه ، مستنداً إلى آيات الذكر الحكيم ، أو أبيات الشعر ، أو الروايات المسموعة عن ثقافت العرب ، لتوجيه الحكم النحوي وترجيح ما يذهب إليه .

أولاً : التراكيب التنبيهية ودلالاتها في الكلام:

بيّن السيرافي أنّ العرب قد تلجأ إلى الضمائر المنفصلة في مواضع من الكلام لا يمكن فيها الإضمار مع الأفعال ، وذلك لعدم وجود التركيب الفعلي في الكلام ،

(١) لمع الأدلة ، ابن الأنباري : ٨٠ .

(٢) أصول التفكير النحوي : ٣٣ .

(٣) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، محمد الطنطاوي : ١٣ .

(٤) ينظر: أصول التفكير النحوي : ٣٣-٣٤ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

كما في قولك : (كيف أنت) و (نحن ذاهبون) فهذه التراكيب لا تقبل علامات الإضمار المتصلة بالفعل ، مما يُجيز العدول إلى الضمير المنفصل لأنّ العرب تختار الوسيلة التعبيرية بحسب مقتضى التركيب بحيث تُحقق الوضوح

وتتخدم غرض التواصل دون إلزام المتكلم بشكلٍ واحدٍ من أشكال الإضمار^(١)، ومثل السيرافي لذلك بـ ((أما الخبيث فأنت ، وأما العاقل فهو ، لأنك لا تقدّر هنا على شيء مما ذكرنا . وكذلك كنّا وأنت ذاهبين ، وكذلك : أهو هو . قال الله عزّ وجل : ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوْتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا ﴾ ، فوقع هو ههنا لأنك لا تقدر على الإضمار الذي في فعل ، وقال الشاعر :

فَكَأَنَّهَا هِيَ بَعْدَ غَبِّ كِلَالِهَا أَوْ أَسْفَعُ الْخَدَّيْنِ شَاةَ إِرَانِ^(٢) .

استند السيرافي في تقرير هذا الاستعمال إلى السّماع محتجاً بالقرآن الكريم ، وهو أعلى مراتب الاحتجاج عند النحاة وبالشعر العربي كذلك ليبين أن هذا الشكل من الاستعمال كان وارداً عند العرب ، وكذلك يضرب أمثلة نحو (أما الخبيث فأنت) عدم وجود نية فعلية في الكلام دفعت المتكلم إلى إظهار الضمير بدلا من إضماره حيث يؤدي الضمير ههنا دوراً في تثبيت المعنى وتوضيحه لأنّ السياق يوجب فصل الضمير لما يحدثه الإضمار المتصل من إيهام في دلالة النص ، ومن ثمّ لم يكن

(١) ينظر : شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠٧/٣ .

(٢) نفسه ، والآية الكريمة النمل : ٤٢ والبيت ينسب لـ (البيد بن ربيعة) : ١٤٣ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

العدول هنا وسيلة تواصلية فرضها السياق ، إذ أسهم في توضيح المعنى ومنع اللبس .

ولما كانت الضمائر تُستعمل لغرض الإحالة وتعيين المسند إليه في الكلام ، فقد التجأت اللغة إلى وسائل أخرى لغرض لفت انتباه المتلقي إلى عناصر معينة في الخطاب ومنها التراكيب التنبيهية والإثارية حيث تتطافر فيها وظيفتا التنبيه والإشارة لتحقيق المزيد من المعرفة ، قال السيرافي : ((و كذلك ها أنا ذا ، وها نحن أولاء ، وها هو ذاك ، وها أنت ذا ، وها أنتم أولاء ، وها أنتن أولاء . وإنما استعملت هذه الحروف ها هنا لأنك لا تقدر على شيء من الحروف التي تكون علامة في الفعل الذي في فعل))^(١) .

مثّل السيرافي لاستعمال التراكيب التنبيهية مع التراكيب الإشارية بنحو : (ها أنا ذا) ، و (ها نحن أولاء) و الملاحظ أنها مكوّنة من تنبيه وإشارة ولما تعذر الإضمار في هذا التركيب لعدم توفر البنية الفعلية عدل إلى استعمال الضمير المنفصل في هذا السياق لتثبيت حضور (معين) ما مشارا إليه ، فأدت هذه التراكيب مجتمعة وظيفة لفت انتباه المتلقي مع تعيين المشار إليه و تثبيت مما يضيفي وضوحاً دلاليا في المقام التخاطبي للكلام ، ((وزعم الخليل أنّ (ها) ههنا هي التي مع (ذا) إذا قلت :

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٠٧ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

(هذا) ، وإنّما أرادوا أن يقولوا : هذا أنت ، ولكنّهم جعلوا أنت بين ها وذا ، وأرادوا أن يقولوا: أنا هذا وهذا أنا ، فقدموا ها وصارت أنا بينهما))^(١) .

أراد الخليل أن يشبّه (ها) التنبيه في التركيب (ها أنا ذا) مع (ها) الداخلة على اسم الإشارة في التركيب (هذا) وأنّ أصل التركيب (هذا أنا) وأقحم الضمير المنفصل بين (ها) و(ذا) فأصبح التركيب على ما هو عليه ، وقد يكون القصد من هذا التغيير في التركيب تقوية دلالة التنبيه والتعيين والإشارة ، فيكون المتكلم مؤكّداً لحضوره بالتنبيه إشارة معنوية والتعيين إشارة حسية .

ويعزّز السيرافيّ زعم الخليل بالنقل عن أبي الخطاب(ت١٧٧هـ) عن بعض العرب الموثوق بعربيّتهم أنّهم ((يقولون : هذا أنا وأنا هذا . ومثّل ما قال الخليل في هذا قول الشاعر

وهو لبيد :

ونحنُ اقْتَسَمْنَا المالَ نصفينِ بيّنَا
فقلت لهم هذا لها ها وذا ليا

كأنّه أراد أن يقول : وهذا لي ، فصير الواو بين ها و ذا))^(٢) .

يوصل السيرافيّ إيراد الحجج السماعية بالذكر الحكيم مرة وبالنقل عن النحاة الثقات الخليل وأبي الخطاب الذي بدوره هو الآخر ينقل عن الثقات من العرب ثم

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠٧/٣ .

(٢) نفسه: ٣ / ١٠٨ ، والبيت : ديوان لبيد : ٣٦٠

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

بالشاهد الشعري ليثبت شرعية استعمال مثل هذه التراكيب التي تكشف بوضوح عن وظيفة اللغة التواصلية المتمثلة في توكيد المتكلم وتعيين المشار إليه بوضوح ، بما يعزّز حضور المعنى في ذهن المخاطب ، وكذلك يثبت إمكانية التغيير في مراتب الكلام مادام المعنى محفوظاً ، فقد ((تكون ها في ها أنت ذا غير مقدّمة ، ولكنها تكون بمنزلتها في هذا ، يدلك على ذلك قوله : ﴿ها أتم هؤلاء﴾ ، فلو كانت ها هاهنا هي التي تكون مع أولاء إذا قلت هؤلاء لم تعد ها هنا بعد أنتم))^(١) .

نقل السيرافي في موضع سابق زعم الخليل أنّ (أنا) قد وضعت بين (ها) و (ذا) فخرج لنا التركيب (ها أنا ذا) ، فيبين السيرافي أنّ هذا التعليل لا يؤخذ به بالمطلق مستشهداً على ذلك بالآية الكريمة ﴿ها أتم هؤلاء﴾ فلو كانت (ها) التي للتنبيه مأخوذة من (هاء) (هؤلاء) لما كان هناك حاجة للتكرار ، بل لكل تركيب منهما وظيفته المختلفة ، ما كشف عن أمرين ، الأوّل : تنوّع البنية اللغوية تبعاً لمقتضيات الحال ، والآخر : تحييز السيرافي إلى المسموع من القول على حساب التعليل القياسي للكلام .

وبعد أن بيّن السيرافي علّة استعمال هذه التراكيب من جهة البنية ، من حيث تعذّر الإضمار في الفعل ، ذهب إلى بيان مقصدها في الاستعمال فنقل عن يونس قوله : ((حدّثنا يونس أيضاً تصديقاً لقول أبي الخطّاب ، أن العرب تقول : هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله : هذا أنت أن يعرفه عن نفسه ، كأنك تريد أن تُعلّمه أنّه

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٠٨ ، والآية الكريمة : آل عمران : ٦٦ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

ليس غيره . هذا محال ولكنه أراد أن ينبهه ، كأنه قال : الحاضر عندنا أنت ، أو الحاضر القائل كذا وكذا))^(١) .

تتجلى حاجيّة السماع في اعتماد السيرافيّ على تعدّد الروايات إذ يصرّح بالاستشهاد عن يونس تأكيداً لقول أبي الخطاب ويبين أنّ الغرض من هذا التركيب هو التنبيه والتعيين لا الإشارة الحسيّة فحسب ، فليس المقصود به التعريف فقط ، بل بيان المقصود من المشار إليه في الاستعمال التخاطبي ، فيكون الوجه الآخر من الكلام رغبة المتكلّم في تخصيص المخاطب بالفعل والتركيز عليه والخروج عن الفكر التقليدي للقياس الذي يهتم بإسناد الخبر إلى المبتدأ على سبيل المثال ، بل توظيف الجانب الاستعمالي الذي يكشف عن الأبعاد التداولية لهذه التراكمات .

مما تقدّم يمكن القول : إنّ السيرافيّ لم يكتفِ بنقل النصوص أو الأقوال التراثية فحسب بل كان يعدّل عليها ويوظّفها بالشكل الذي يخدم المعنى الواضح ومن ثمّ يُعزز التواصل ، حيث بين إمكانية اللغة في استعمال حروف التنبيه والإشارة لتعريض مالم يذكر صراحة من الأفعال ، وهو ما جعل الحجج السماعيّة متقدّمة عنده على الحجج القياسية الجامدة ، وذكر النحاة أنّ ((ما خالف القياس وكثر استعماله فورد في القرآن ، فإنّه فصيح))^(٢) .

ثانياً : منع الإضمار مع حروف الجر:

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافيّ : ١٠٨/٣ .

(٢) المزهر ، السيوطي : ١٤٨ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

لم تقتصر وظيفة السماع في الخطاب النحوي على إثبات القواعد فحسب ، بل تجاوزت ذلك إلى لقياس غير المسموع على المسموع ، فقد تستعمل العرب ألفاظاً و تترك أخرى بناء على ما سمع ، وفي مثل هذا لا يكون الحكم مطلقاً للقياس ، بل يبقى مقيداً بما ورد به السماع ومن ذلك ما نقله السيرافي عن سيبويه في باب (ما لا يجوز فيه الإضمار من حروف الجر) قال : ((وذلك الكاف التي في أنت كزيد ، وحتّى ، ومذ. وذلك أنهم استغنوا بقولهم : مثلي وشبهي عنهم فأسقطوه . واستغنوا عن الإضمار في حتّى في قولهم : دعه حتى ذاك ، وبالإضمار في إلى إذا قالوا : دعه إليه ، لأن المعنى واحد ، كما استغنوا ب (مثلي) و(مثله) عن (كي) و(كه) . واستغنوا عن الإضمار في من بقولهم : من ذاك ، لأن ذاك اسم مبهم ، وإنما يذكر حين يظن أنك قد عرفت ما يعني))^(١) .

ذكر سيبويه المواضع التي لا يجوز فيها أن يلحق الضمير حرف الجر نحو : (كه ، أوكها) ، وذلك لوجود تراكيب لغوية أكثر وضوحاً واستعملت من قبل العرب تؤدّي الغرض المتحصل من (كه ، أوكها) ، نحو : (مثلي ، أو مثله) ، واستغنوا عن (دعه إليه) ب(إلى ذاك) لتجنب تكرار الإضمار أو استعمال تراكيب غير مستساغة في العربية .

قال أبو سعيد : ((منع هذه الحروف من الإضافة إلى مكني فيما ذكره سيبويه سماع من العرب ، لأنه ذكر أنهم استغنوا بقولهم: مثلي ، وشبهي ، عن إضافة

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٤٨ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

الكاف، واستغنوا بقولهم : حتى ذاك ، ومن ذاك ، وإثما يُريد أنّ العرب استغنوا بشيء عن شيء، وليس لأحد أن يُجيز ما استغنت العرب عن الكلام به ببديل جعلوه مكانه ، فيكون خارجا عن كلامها))^(١).

يصرّح السيرافي أنّ هذا المنع مصدره سماع من العرب فاستغنت بصيغٍ عن صيغٍ أخرى ، لأنّها أكثر وضوحاً وأقرب فهما ، ولا يمكن العمل بما استغنت عنه العرب واستعاضت بتراكيب أخرى بدلا عنه بغضّ النظر عما جاء به المقياس لأنّ اللغة ليست قياسا مطرداً بل هي ((متطوّرة حيّة يعتريها ما يعتري الأحياء من التغيير والتبديل ... فالقياس بالنسبة لها لا يتفق مع طبيعتها ولا يتلائم مع تكوينها ، ولذلك يقول النحويون : أنّ الاستعمال إذا ورد بشيء اخذ به ، وترك القياس ، لأنّ السماع يبطل القياس))^(٢).

فترتّب على ذلك أنّ ما استغنت عنه العرب لا يُرجع إليه وإن كان خاضعاً للقياس النحوي ، فإذا لم يضطر المتكلم لم يجز له ، وخرج عن هذا الحد الشعراء لأنهم ((إذا اضطرّوا أضمرّوا في الكاف فيجرونها على القياس.

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٤٨ .

(٢) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، عبد العال سالم مكرم : ٤٣٤ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

قال العجاج : وأمّ أوعالٍ كها أو أقرباً ... ولو اضطرّ شاعر وأضاف إلى نفسه
قال : كي ، بكسر الكاف ، وكي بفتح الكاف خطأ من قبل أنّه ليس من حرفٍ يُفتح
ما قبل ياء الإضافة ((^(١)).

إذن جاز للشاعر بسبب من الضرورة الشعرية ما لم يجز لعامة المتكلمين من
أهل اللغة ، أن ينضح شعره على ما جاء به القياس من إضمار مع حرف الجر أو
الإضافة إلى نفسه ويعد مقبولاً من وجهين ، الأول : أنّه تركيب موافق للقياس
والآخر أنه خاضع للضرورة الشعرية التي أبحاث للشاعر ما لم تبحه لعامة الناس.

وعلى عادة السيرافي في تثبيت الحجاج ما نقله عن أبي اسحاق الزجاج فقال :
(لم يجز الإضمار في حتى لأنه يقع ما بعدها على ضروب كثيرة ، ومذ يقع ما
بعدها على غير ضرب ومنذ صارت في الأيام حسب ((^(٢)).

إن لـ (حتى) استعمالات عدّة بحسب السياق الذي ترد فيه ، فتكون حرف جرّ
مرة أو حرف عطفٍ في سياق آخر ، وتدخل على الفعل المضارع فتتصبه ، ومنع
الزجاج الإضمار معها إذا عوملت معاملة حرف الجر وعلل ذلك بتعدد استعمالاتها
مما يوقع لبساً إذا أبدل الاسم الصريح بالمضمر مما يُصعب على المتلقي الوقوف
على المراد من الكلام ، أما (مذ، ومنذ) فكان المنع في (مذ) لما سبق حملاً على
المنع في (حتى) ، فَمَنع الزجّاج قائماً على طبيعة المعنى واتساع الاستعمال ، ويرد

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٤٨ ، و البيت : ديوان العجاج : ٧٤

(٢) نفسه : ٣ / ١٤٩

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

السيرافي فيقول : ((وأنا أقول إنا رأينا أسماء تُضاف إلى الظاهر ولا يجوز إضافتها إلى المكني كقولنا : ذو مالٍ ، وذو المال ولا يجوز : ذوه))^(١) يظهر أنّ أبي سعيد قيّد هذا التعليل ، مستعيناً بألفاظ تضاف إلى الظاهر ولا يجوز إضافتها إلى الضمير ، ممّا يبيّن أنّ المنع في أكثر صورته كان سماعياً .

ونقل أبا سعيد عن أبي العباس المبرد أنّه : ((يجيز إضافة ما منع سيبويه إضافته في هذا الباب ولا يمتنع منها ، ويقول : " إذا كان ما بعد حتى رفعاً : حتى هو ، وإذا كان نصباً : حتّى إيّاه ، وإذا كان جرّاً : حتّاه ، وحتّاك ، وفي مذ إذا كان ما بعدها رفعاً : مذهو ، وإذا كان جرّاً : مذه" . والصحيح ما قاله سيبويه ، لموافقه كلام العرب))^(٢).

إن ما يلفت الانتباه في هذا النص هو رد السيرافي الذي يجمع بين الحكم والتعليل المفيد المختصر والذي مؤداه رفض ما جاء به المبرد وصحة ما جاء به سيبويه لموافقه كلام العرب .

تكثيف هذه المسألة عن الصلاح القائم بين حجة السماع وحجة القياس وتداخل هذين المنهجين إلا أنّ كفة الاستعمال غالباً ما تكون هي الراجحة عند السيرافي ما

ثالثاً : منع تقديم الاستثناء في الكلام

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٤٨ .

(٢) نفسه : ٣ / ١٤٩ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

دام هذا المستعمل - المسموع - غير مغل بالمعنى ، فمثل السماع عندهم الدليل إلى القاعدة قبل استخراجها ، والشاهد على صحتها بعد ذكرها ^(١).

يعد تقديم أداة الاستثناء من المواضع التي ظهر فيها خلاف بين النحاة وذلك للتداخل الحاصل فيها بين ما جاء به السماع وما أثبتته القياس ، قال أبو سعيد : ((حكي عن الزجاج أنه كان يجيز في بعض الأحوال تقديم حرف الاستثناء في أول الكلام ، ويحتج بقول الشاعر :

خَلَا أَنَّ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا حَسِينَ بِهِ فَهَنْ إِلَيْهِ شَوْسُ

وهذا غلط ، لأن الشعر لأبي زيد الطائي ، وقبل هذا البيت في قصيدته :

إِلَى أَنْ عَرَّسُوا وَأَغَبَّ مِنْهُمْ قَرِيباً مَا يَحْسُ لَهُ حَسِيسُ

خَلَا أَنَّ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا حَسِينَ بِهِ فَهَنْ إِلَيْهِ شَوْسُ

فقد صار (خلا) بعد المستثنى منه ، وهو : ((ما يحسُّ له حسيْس)) ^(٢)

نقل أبو سعيد عن الزجاج أنه أجاز تقديم أداة الاستثناء (خلا) ، إلا أن هذا الحكم غير صحيح عند النحاة والسيرافي على وجه الخصوص ، لأن الزجاج استند على شاهد شعري مقتطع من سياقه ، وقد بين أبو سعيد أن إعادة الاستثناء جاءت

(١) ينظر: الأصول ، تمام حسان : ١١٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ١٠٠ ، والبيت منسوب لأبي زيد الطائي ، ديوانه : ٩٦ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

بحسب ترتيب جملة الاستثناء المتفق على صحتها مسبقاً بالمستثنى منه (ما يحسُّ له حسيّ) . فلا يقتصر السماع على نقل الشاهد فحسب بل وصله بسياقه النصي .

وذكر السيرافيّ شاهداً آخر على هذه المسألة وهو قول الحجاج :

و بَلَدٍ لَيْسَ بِهِ طُورِيٌّ وَلَا خَلَا الْجَنِّ بِهِ إِنْسِيٌّ

فتقديره : ولا به إنسيّ خلا الجن ، ف(به) مقدّرة بعد لا محذوفة ، لأنّه لو قال ليس به طوريّ ولا إنسيّ فمعناه : ولابه إنسيّ ، فاستثنى بعد تقدم شيء في التقدير ، ويدل عليه ما قبله ، فيفسر كأنه قال : ما به خلا الجنّ إنسيّ ((^(١)).

إنّ الاستثناء ليس مجرد تركيب نحويّ ، بل هو آليّة دلاليّة لتقييد الحكم وتحديدّه، فهو قائم على إثبات حكم عام ثم إخراج جزء منه .

فلما كان الترتيب المألوف عند أهل اللغة المستثنى منه ثم الأداة ثم المستثنى أثبت عندهم فكرة ثبات الأصل ثم اخراج الفرع منه ، فلما اختل هذا الترتيب اختل المعنى لأنّه ليس ترتيباً شكلياً فحسب ، بل هو ترتيب مرتبط بالإدراك التسلسلي للدلالة ، فمن البديهي أن يرفض السيرافي كل ما يحدث خلا في المعنى على اعتبار أنه يوليه العناية القصوى ، فلما اختل هذا الترتيب احتاج الكلام إلى تأويل أو تقدير وهذا ما فعله السيرافي مع الشاهد الشعري ، فقدر (لا) محذوفة ليتحصل له (تقديم للمستثنى منه تقديراً) ويُسوّغ للشاعر إمكانية التقديم حملاً على الضرورة الشعرية .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافيّ : ١٠١/٣ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

فيكشف هذا التأويل عن البعد الوظيفي للغة في حيّز الاستعمال ، حيث إنّ السيرافيّ لم ينظر إلى التراكيب بمنظورٍ شكلي فحسب ، بل حرص على انتظامها في نسقٍ يُحقّق وضوح المعنى واستقراره في ذهن المتلقي ، فجعل القياس وسيلةً ضابطة لما جاء به السماع أعاد بها رتبة الكلام إلى أصلها .

وأجاز الكوفيّون تقديم أداة الاستثناء ، قال السيرافي : ((والذي يُحكى عن الكوفيين : جواز تقديم الاستثناء في أول الكلام . قال الكسائي : "إلى طعامك ما أكل زيد" استثناءً ، وجاز أن تضعه مقدّمًا أو مؤخرًا))^(١) .

أجمع النحاة على منع تقدم الاستثناء في الكلام ، ومن يقدم الاستثناء يُلزم عمل ما بعد (إلا) فيما قبلها ، وهذا غير جائز في الكلام ومنع السيرافي هذا التقديم فقال ((إنّ تقديم الاستثناء في أول الكلام لم يقم عليه دليل من سماع أو قياس . ومنه أن (ما) لا يعمل ما بعدها فيما قبلها . لا تقول زيدا ما ضربت ، فإذا لم يجز ذلك كان جوازه بعد دخول إلا عليه أبعد))^(٢)

يعلّل السيرافيّ منعه تقديم الاستثناء أنّه لم يقم عليه دليل سماعي ولا قياسي وكذلك تقدم الأداة يمنع ما بعدها من العمل فيها لذا منع السيرافي الخروج عن القياس في هذا الموضع لندرة المسموع به فأوله ليتسق مع القياس مستعينا به لتحقيق غرض التواصل عن طريق الحفاظ على وضوح التركيب لجملة الاستثناء وخلوها من اللبس .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٠١/٣ .

(٢) نفسه .

رابعاً : علة عقد (باب اللفظ للمعاني) :

اعترض معترض عن سبب عقد سيبويه لهذا الباب ، وذلك لأنّ الكلام بطبيعة الحال مختلف الألفاظ مختلف المعاني ، وقد أشار سيبويه في هذا الباب إلى اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين ، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين و اختلاف المعنيين^(١) ، قال أبو سعيد : ((فإن قال قائل : لم أتى سيبويه بهذا الباب ، وما الفائدة فيه من طريق الإعراب ؟ فإن بعض النحويين أجاب عن هذا بأن قال : أراد سيبويه باختلاف اللفظين اختلاف الكلمتين ، وجعل هذا دليلاً على اختلاف الإعرابين ، لاختلاف المعنيين و دليلاً على اختلاف الإعرابين والمعنى واحد ، و اتفاق الإعرابين والمعنى واحد ، و اتفاق الإعرابين والمعنى مختلف ، و هذا يذكر عن أبي العباس المبرد ، وكان ينكر الوجه الآخر ، وهو أن يقول القائل : إنّ سيبويه أراد اختلاف الحركتين فقط ، ويقول : لم يذهب إلي سيبويه))^(٢)

تناول السيرافي في هذا النص مسألة تتصل بمقصد سيبويه في عقد (باب اختلاف اللفظ للمعاني) ، فيعرض اعتراض معترضٍ افتراضي قائم على التشكيك في جدوى هذا الباب ، من جهة الإعراب ، ويكشف هذا المنهج عن طبيعة الخطاب الحجاجي عند أبي سعيد ، حيث يتجلى الحجاج في أبهى صورهِ عبر استحضار المعارض الافتراضي ، فيكون تقديم النص بعبارة (فإن قيل قُلْتُ) إيذاناً ببدء محاوره حجاجية تواصلية ، فالسيرافي في هذه المواضع لا يشرح نصاً ساكناً ؟ بل يسعى إلى

(١) ينظر : كتاب سيبويه : ٢٤/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١٧٧-١٧٨ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

خلق مناظرة ذهنية يستبق فيها شكوك أو اعتراضات المخاطب ويُردّ عليها بالعلّة والحجّة الدافعة ، فيأخذ الاعتراض من خانة التشكيك والتردد إلى خانة الإقناع وتثبيت صحّة التوجيه .

ولم يكتفِ السيرافي بالحجاج العقلي فحسب بل لجأ إلى تعزيز ما ذهب إليه عن طريق الاستشهاد برأي أبي العباس المبرد وسيلة لتقوية الحجّة والذي يسعى إلى بيان أنّ سيبويه أراد باختلاف اللفظين اختلاف الكلمتين ، ليكون اختلاف اللفظ دليلاً على اختلاف المعنى والإعراب معاً ، أو اتفاق أحدهما واختلاف الآخر ، وبذلك يتحول الباب من محاولة للتصنيف التركيبي إلى وسيلة للكشف عن العلاقات القائمة بين اللفظ والمعنى والإعراب .

قال أبو سعيد : ((والذي عندي في ذلك أنّ الذي قصده سيبويه على ما يتوجه القول في صحته - والله أعلم - أنه أراد الإبانة عن هذا المعنى بعينه ، لا أنه جعله دليلاً على شيء سواء ، وذلك أنّ في الناس من يزعم أنّه لا يجيء لفظان مختلفان إلا ومعناهما مختلف ، علمناه أو جهلناه ، وهو قول جماعة من النحويين ، ويحكي هذا عن ثعلب (ت ٢٩١هـ) عن ابن الأعرابي (ت ٢٣هـ) ، و إليه كان يذهب ثعلب فيما حكى لي ، وعاب قوم من الناس اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين وقالوا : هذا يوقع اللبس ، فأراد سيبويه إبانة مذهب العرب ، وجعلهم اللفظين مختلفين لمعنى واحد ، واللفظين متفقين للمعنيين))^(١).

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٧٨ .

يتجسد هنا في هذا النص توظيف السماع وسيلة لدحض رأي، وإثبات آخر ، فيوظف السيرافي ما حكى عن ثعلب بن الإعرابي لغرض ردّه فيما بعد، فيعرض رأيين متقابلين الأول يؤيد وجود الظاهرة وهو مذهب سيبويه والآخر يعيبها وهو ثعلب ونحاة آخرين ، ويجعلون ذلك مما يوقع اللبس في الكلام ، فيكون مقصد سيبويه من هذا الباب (إبانة مذهب العرب) .

قال أبو سعيد : ((فإن قال قائل : لم قلت أن اللفظين قد يجوز أن يختلفا ، ويكون معناه واحد ؟ فإن الجواب في ذلك إنا رأينا العرب ، ربّما يتكلم القبيل منهم بلفظٍ ما لمعنى بعينه ، ويتكلم غيرهم بلفظٍ سواه ، لذلك المعنى بعينه، كقول بني تميم: "ثلاث عشرة" وقول أهل الحجاز " ثلاث عشرة " ، وكقول بعضهم للطلع "طلع" " وبعضهم يقول للطلع بعينه "إغريض" ، وأهل المدينة يقولون للزئبق " زاووق " ، وغيرهم لذلك يقول : "زئبق " لذلك المعنى بعينه ، فيما لا يحصى كثرة))^(١).

إنَّ إشكاليه تداخل الألفاظ والمعاني نالت حظاً وافراً من الدراسات اللغوية والأدبية ، واختلفوا في إعطاء الشأن الأكبر للألفاظ نفسها أم للمعاني التي تحدّ الألفاظ بناءً على ما ترغب فيه النفس فترجع المعاني على هيئة ألفاظ تحمل الصفة التي تؤهلها أن تؤدي المعنى اصح تأدية^(٢) ، وقد اشار السيرافي أنّ ما جاء به سيبويه لم يكن من عنده ، وإنّما لما رآه عند العرب من استعمالهم لفظين مختلفين والمعنى واحد وهو ما عرف لاحقاً بالمترادفات معللاً سبب هذه الظاهرة عند العرب

(١) نفسه .

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز : ٤٤ .

بسبب ((أن بعضهم يأخذ عن بعض ، على حسب المخالطة لهم ، والإلف لكلامهم ، كمثل ما نعرفه من أنفسنا أنا نتكلم بلغة من اللغات في وقت ، ثم ندعها ونألف غيرها ، حتى يكون أكثر كلامنا غيرها ، إما أن يكون غيرها أخف منها لفظاً ، وإما أن نسمع قوماً يتكلمون بها فنألفها على طول السماع لها))^(١).

إنّ التطور في اللغة هو سنة من سننها ، فهي عرضة للتغيير في مختلف أوجهها الصوتية والدلالية والتركيبية ، وذلك لأنّ اللغة كالكائن الحي الذي يكون التغيير والتطور من سماته الطبيعية ، وإن دلّ هذا على شيء فهو دليل على مرونتها وطواعيتها في النظام الصرفي والدلالي والتركيبية^(٢)، فلغة إذن جانب اجتماعي وهو ما شار إليه أبو سعيد (يأخذ بعضهم عن بعض، على حسب المخالطة) ، وجانب نفسي (كمثل ما نعرفه من أنفسنا أنا نتكلم بلغة من اللغات في وقت ، ثم ندعها ونألف غيرها) ، ولما كانت النفس تميل للسهولة والراحة فقد يُعدل عن اللفظ الصعب إلى ما هو أخف في اللفظ ، أو بفعل التأثير لطول وقت المخالطة ونرى السيرافي في هذا النص يُبرز الجانب الاجتماعي للغة القائم في أصل وضعه على التواصل بين أبناء البيئة اللغوية الواحدة .

قال أبو سعيد : ((وليس تُخرج اللغة الثانية اللغة الأولى أن تكون في معناها، فكذلك العربية ، ومثل ذلك أن أهل العراق يُسمون البر " بُرا " وأهل مكة يسمونها "حنطة " وأهل مصر يسمونها " القمح " ، فلو أن عراقياً أتى مكة فتكلّم " بحنطة ")

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٧٨

(٢) ينظر: فقه اللغة ، محمد المبارك : ٥-٦

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

ليفهموا عنه ، فألفها ، أو كلم أهل مصر على لغتهم " بقمح " ثم ألف ذلك واعتاده ، ما كان يتغير " البر " عنده كما كان ، ولو أنّ قمحاً حُمِلَ من مصر إلى مكة لسمّوه بعينه حنطةً ، وهذا أبين من أن يطال فيه الكلام))^(١)

ويختتم السيرافي مواضع الإقناع في هذه المسألة باستحضار أمثلة يُبين فيها أي تعد اللفظ لا يناقض وحدة المعنى ، فيفترض أن العراقي قد يبدل لفظة (البر) بلفظة (الحنطة) عند مجاورته لأهل مكة ، و بلفظ (القمح) عند مجاورته لأهل مصر ، وهو استدلال على مرونة اللغة وقدرتها على التطبع تبعاً للدائرة اللغوية المحيطة بها خدمة لمبدأ التواصل، فيُمارس بذلك حجاجاً سماعياً وعقلياً ليبين أن (هذا أبين من أن يطال فيه الكلام)

قال أبو سعيد : ((وأما الذي عاب العرب فيما جعل المتفقيين المعنيين مختلفين، فهو المعيب عليه في عيبه))^(٢) .

فبعد أن ألقى أبو سعيد بالأدلة والحجج التي تُثبت صحة ومنطقية ما جاء به سيبويه عاد ليبين أن العائب قد عاب نفسه وذلك لجعله بسنن العرب ولهجاتهم ((ألا ترى أنا إذا قلنا " العين " التي يبصر بها ، وقلنا " العين " السحابة التي تنشأ من

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٧٨

(٢) شرح كتاب سيبويه : ١ / ١٧٩ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

القبلة، فقد عبرنا عنها بلفظ آخر ... وكل ذلك فعلته العرب ، لما ذكرنا فاعرف ذلك
إن شاء الله))^(١) .

يشير السيرافي إلى ما عُرِف عند المحدثين بالمشترك اللفظي وهو اتفاق اللفظين
والمعنى مختلف وقد مثل السيرافي لذلك بلفظة العين واسعة الدلالة ولا شك أن المقام
هو الحاكم في مثل هذه الحال ، اشارة إلى أن على ما تقدم هو من سنن العرب
وطبائع لغتها^(٢).

المبحث الثاني : الخلاف النحوي في مسائل الخبر

اقتصر هذا المبحث على جملة من المسائل الخلافية الواردة في باب الخبر ؛ لما
أظهرته من ممارسات حجاجية في مناقشة قضايا العامل النحوي ، فقد عرض

(١) نفسه .

(٢) ينظر : علم الدلالة ، أحمد مختار عمر : ١٦٠ - ١٦٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

السيرافي آراء النحاة في هذه المسائل ثم ناقش حججهم ، ورجّح بينها وفق ما يراه الأقرب إلى الصواب ، الأمر الذي يجعل هذه المسائل نموذجًا واضحًا لبناء الحجاج في الخلاف النحوي .

يتحقّق الحجاج في سياقٍ يتفاعل فيه ما هو لفظي بما هو غير لفظي وسيلته اللغة وغايته الإقناع^(١) ، والمتأمل في نصوص السيرافي الخلافية يلحظ أنّها لا تقتصر على الخلاف الدائر بين المدرستين البصريّة والكوفيّة ، كما هو شائع في المصنفات النحويّة ؛ بل تمتدّ إلى الخلاف بين أصحاب المذهب الواحد ، وإلى اختلاف لهجات القبائل العربيّة وتعدّد ألفاظها ، وقد يفترض السيرافي معترضًا يحاوره في مسألة (ما) فيبني جوابه على الحجج والشواهد ، كما يعتمد إلى عرض آراء النحاة السابقين ومناقشتها ومن ثمّ الرد عليها لبيان موقفه منها ، ويكشف هذا المنهج عن حضورًا مقصودًا للبناء الحجاجي في خطابه ، فلا يقف عند حدّ الشرح والتفسير ، بل يمضي إلى الإقناع والترجيح والرد^(٢) .

أولًا : ناصب الظرف الواقع خبرًا :

تعد مسألة ناصب الظرف الواقع خبرًا من المسائل التي تجلّت فيها الممارسة الحجاجيّة بين النحاة ، إذ تعدّدت فيها الأقوال ، وأقام كلّ فريق حجّته لتأييد مذهب إليه وتقنيده حجة المخالف ، وقد نقل ابن الأنباريّ (ت ٣٢٨هـ) هذا الخلاف ، فقال :

(١) ينظر : الحجاج الجدلي ، عبد الله البهلول : ١٦-١٧ .

(٢) ينظر : بلاغة الإقناع في المناظرة ، د. عبد اللطيف عادل : ١٢٥-١٢٦ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

((وذهب أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب من الكوفيين إلى أنه ينتصب لأن الأصل في قولك : (أمامك زيد) حلّ أمامك , فحذف الفعل وهو غير مطلوب واكتفى بالظرف منه فبقي منصوباً على ما كان عليه الفعل))^(١) , ثم يعود ليبين أنه قولٌ مردود ((وذلك لأنه يؤدي إلى أن يكون منصوباً بفعل معدوم من كل وجه لفظاً و تقديرًا , والفعل لا يخلو , إما أن يكون مظهرًا موجودًا أو مقدّرًا في حكم الموجود , فأما إذا لم يكن مظهرًا موجودًا , ولا مقدّرًا في حكم الموجود كان معدومًا من كل وجه , والمعدوم لا يكون عاملاً , وكما يستحيل ... القطع بسيف معدوم ... يستحيل في هذه الصناعة النصب بعامل معدوم))^(٢) .

يتبين من هذه النصوص أن الأنباري لم يقتصر على ردّ رأي (ثعلب) , بل أقام حجّته على استدلال عقليّ يقوم على إبطال الأساس الذي قام عليه الرأي الآخر , إذ رأى أن العامل لابدّ أن يكون موجودًا لفظاً أو تقديرًا , ولم يكتفِ بالتعليل بل لجأ إلى التمثيل فشبه استحالة النصب باستحالة القطع بالسيف المعدوم وقد أرجع بعض الباحثين الخلاف بين البصريين والكوفيين إلى تأثر النحويين^(٣) بالأصوليين و أهل الكلام , فتأثر الكوفيون بالأشاعرة^(٤) الذين يعدّون المعدوم ليس بشيء , وبالتالي لا يمكن أن يكون عاملاً , والبصريون متأثرون برأي المعتزلة^(٥) الذين يرون أن المعدوم

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف , أبو البركات الأنباري : ١٩٧/١ .

(٢) نفسه : ١٩٨/١-١٩٩ .

(٣) ينظر : الأسس الابدستمولوجيّة والتداوليّة للنظر النحويّ , إدريس مقبول : ١٣٤-١٣٨ .

(٤) ينظر : التفسير الكبير , فخر الدين الرازي : ٣١٨/٢ , ١٠٣/٧ .

(٥) ينظر : المنيّة والأمل , القاضي عبد الجبار الهمداني , تحقيق : د. عصام الدين محمد علي : ١٣٦/٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

شيء ويمكن له أن يعمل ، والملاحظ أنَّ ثعلب مع كونه ينتمي إلى المذهب الكوفي إلا أنَّه وافق البصريين في هذا الموضوع^(١) .

قال السيرافي : ((قال الكوفيون : إذا قلت زيد خلفك ، فلم ينتصب "خلفك" بإضمار فعل ، ولا بتقديره وإنما ينتصب بالخلاف الأول ، ولأننا نقول : زيد أخوك ، فيكون الأخ هو زيد ، وكل واحد منهما يرفع الآخر ، وإذا قلت زيد خلفك ، كان خلفك مخالفاً ، لزيد لأنه ليس هو فنصبناه بالخلاف ، وهذا فاسد من وجوه^(٢))).

يبين هذا النص الخلاف النحوي في توجيه نصب الظرف الواقع خبراً في نحو قولهم : (زيد خلفك) ، إذ يرى البصريون أنَّ النصب ناشئ عن فعل مقدر نحو (استقر ، أو كان ، أو وقع) ، وهو ظاهر قول سيبويه^(٣) ، في حين ذهب الكوفيون إلى أن النصب واقع بسبب المخالفة بين المبتدأ والخبر ، لكون الخبر غير المبتدأ ، فجعلوا المخالفة وحدها علّة للعمل ، وشرع السيرافي في ردّ هذا الرأي لأنه فاسدٌ عنده من وجوه ، ((أحدها : أنَّه لو كان الخلاف يوجب النصب لوجب أن ينتصب الأوّل لأنّه مخالفٌ للثاني كما خالفه الثاني ، وعلى أنَّهم يزعمون أنَّ الأوّل رفع بعائد يعود إليه من خلفك ، وذلك العائد في موضع رفع ، فإذا ارتفع العائد فلا بدّ من رافع ، فإذا كان في خلفك ما يرفع العائد وجب أن يكون ذلك الرافع هو الذي نصب خلفك ،

(١) ينظر : اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء العكبري ، تحقيق : د. عبد الإله النبهان : ١٢٦/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٩٣/٢ .

(٣) ينظر : كتاب سيبويه : ٨٧/٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

ومذهب البصريين : أنا إذا قلنا : زيد استقرّ خلفك أنّ في استقرّ ضميرا مرفوعاً باستقرّ هو فاعله , وخلفك منصوب به))^(١) .

يصرّح السيرافيّ بفساد مذهب إليه أصحاب المذهب الكوفيّ , ويستدلّ على ذلك بحجّة منطقيّة , وهي أنّ الثاني إذا كان مخالفاً للأوّل فلا بدّ أن يكون الأوّل مخالفاً للثاني , وعليه ينطبق الحكم على كليهما وهو وجوب النصب على المخالفة هذا من جهة , ومن جهة أخرى أنّ الضمير العائد لا بدّ له من رافع , فإذا ثبت وجود الرافع , كان ذلك الرافع أولى بأن يكون هو العامل في نصب الظرف .

وبيّن السيرافيّ مراد سيبويه في تعليل النصب فقال : ((وفي كلام سيبويه ما ظاهره ملبس ... ومراد سيبويه على ماينتظم من مذهبه أنّ الذي ظهر دلّ على المحذوف , فتاب عنه ... وإنّما مثله بقوله : أنت الرجل علماً , وعشرون درهماً لأنّ الرجل إنّما ينصب علماً إذا كان بتقدير كامل ... وكذلك زيد خلفك بمعنى استقرّ فكان اشتراكهما في نصب مابعدهما لاشتراك جميعهما في تقدير ناصب لما بعدها من طريق المعنى والتشبيه))^(٢) .

يبين السيرافيّ أن ظاهر كلام سيبويه قد يوقع في اللبس لأنّه يجعل ماقبل الظرف هو العامل , والحق أنّ المقصود ليس أنّ الاسم المتقدّم هو العامل حقيقة , وإنّما دلّ اللفظ الظاهر على محذوف ناب عنه في الدلالة فصار بمنزلة العامل لقيامه

(١) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ : ٢٩٣/٢ .

(٢) شرح كتاب سيبويه , السيرافيّ : ٢٩٤/٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

مقام الفعل المقدّر^(١) ، ويعزز هذا التفسير بالتمثيل (أنت الرجل علماً ، وعشرون درهماً) إذ يكون النصب حادثاً بفعل مقدّر يدلّ عليه السياق .

تكشف هذه المسألة عن حضور الفكر الحجاجي في معالجة السيرافي للخلاف النحويّ ؛ إذ لم يكتفِ بنقل الآراء ، وإنّما ناقش أدلّتها ، وفنّد حجج مخالفيه ، ثمّ أقام البرهان على الرأي الذي يتبناه ، بما يعكس توظيف الحجاج وسيلة لترجيح الأحكام النحويّة وإقناع المتلقّي بها .

ثانياً : رافع الخبر :

اتفق النحاة على أنّ المرفوعات في العربية نوعان : مرفوع أصالة ، ومرفوع تبعاً ، أما المرفوع أصالة فهما : الفاعل والمبتدأ ، وأما المرفوعات تبعاً فهي خبر المبتدأ ، وخبر إنّ الذي هو في الحقيقة خبر المبتدأ ، واسم كان والنعته وعطف البيان إذا كان متبعهما مرفوعاً^(٢) ، لكنّهم اختلفوا في رافع المبتدأ والخبر ، فبعضهم أعزاه هذا الرفع للابتداء والآخر للابتداء والمبتدأ معاً وكان من عادة النحاة أن يبحثوا عن علة الحكم النحوي ((فاللمرفوع سبب، وللمنصوب علة وللمجرور غاية، وللمجزوم هدف))^(٣) ، لذا دأب النحاة على تعليل الظواهر الإعرابية تحت ظل نظرية العامل والمعمول.

(١) ينظر : المقتضب : ١٠٢/٣ ، والأصول في النحو : ٦٣/١ .

(٢) ينظر : في النحو العربي نقد وتوجيه : ٧١

(٣) دراسات في كتاب سيبويه ، خديجة الحديثي : ١٥٥ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

فالإعراب عند سيبويه هو : ((ما يُحدثه العامل من نصب ، وجد ، ورفع ، وجزم وفتح وكسر ، وضم ، وهذه المجاري الثمانية يجمعن وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه))^(١) ، يريد أن كل ما سبق من حالات إعرابية هي من أثر العامل في الكلام .

والابتداء كما ذكر أبو سعيد : ((هو تعرية الاسم من العوامل اللفظية ، ليُخبر عنه . وهذه التعرية عاملة فيه ، لأن العوامل في الإعراب بمنزلة العلامات الدالة على ما يجب من الإعراب ، والتعرية قد تكون عاملة في بعض الأماكن))^(٢).

يعد السيرافي الابتداء بأنه تعرية الاسم من العوامل اللفظية ، ليُخبر عنه ، ثم يجعل هذه التعرية نفسها عاملة فيه ، فيكون رفع المبتدأ ناشئاً عن عامل معنوي لا

عن مؤثر لفظي ، وهو ما رفضه الكوفيون ((قالوا : لا يجوز أن يُقال إنا نعني بالابتداء التعري من العوامل اللفظية ، لأننا نقول : إذا كان معنى الابتداء هو التعري من العوامل اللفظية فهو إذا عبارة عن عدم العوامل ، وعدم العوامل لا يكون عاملاً . والذي يدل على أن الابتداء لا يوجب الرفع أننا نجدهم يبتدئون بالمنصوبات والمسكنات و الحروف ، ولو كان ذلك موجبا للرفع لوجب أن تكون مرفوعة ، فلما لم

(١) الكتاب لسيبويه : ٣/١ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٥٦/٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

يجب ذلك دلّ على أن الابتداء لا يكون موجباً للرفع^(١) وسار على ما قالوه عدد من النحاة^(٢).

فكان التعري من العوامل اللفظية يعني عدم العامل ، و المعدوم لا يمكن أن يكون عاملاً ، لأن العمل يقتضي شيئاً موجوداً وللعامل أثر فيه وكان هذا محور الخلاف بين المدرستين ، فقال أبو سعيد : ((التعرية قد تكون علامة في بعض الأماكن ، كثوبين أبيضين متشابهين لرجلين إذا يعلم أحدهما على ثوبه وترك الآخر العلامة ، كان تعريته من العلامة علامة له . فأما المبتدأ فالابتداء يرفعه ، وأما خبر المبتدأ فمن أصحابنا من يقول : إنّ الابتداء يرفع الاسم والخبر جميعاً ، وقال أبو العباس محمد بن يزيد : إنّ الابتداء يرفع المبتدأ ، والمبتدأ والابتداء يرفعان الخبر^(٣))).

من مهارات السيرافي الحجاجية أن يقدم للكلام بما يوافق الخصم عليه فيذكر المسلمات المتفق عليها فبعد أن بين أن معنى الابتداء هو تعرية الاسم من العوامل اللفظية ، أخذ يُمثّل كيف أن عدم بنفسه قد يكون علامة على شيء كما هو الأمر مع الثوبين الأبيضين وقد يكون هذا ما عرف لاحقاً بالحجاج بالنتشبيه فيُصبح الكلام به ((ألزم للخصم بالحجة وأبعث على الإقناع))^(٤) ، فهذا النوع من الحجج يتطلب

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف : ٣٩ / ١ .

(٢) ينظر : اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء العكبري : ١/١٢٦ ، و شرح ابن يعيش : ١/٢٢٣ ، والأشباه والنظائر ، السيوطي : ٢/٢٤١ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢/٢٥٦ - ٢٥٧ .

(٤) الحجاج الجدلي : ١٥٢ .

طول تفكير وإغراق في الخيال للبحث عن المعنى المقصود لكي يظفر بقبول المتلقي ويكسب إقناعه .

فمذهب البصريين وهو مذهب سيبويه أن المبتدأ مرفوع بالابتداء وأعزى السيرافي هذا الخلاف في رافع الخبر إلى عبارات سيبويه المشتبهة التي أوقفت الخلاف في رافع الخبر بين نحاة المدرسة البصريّة نفسها فقال : ((ولسيبويه فيه عبارات مختلفة مشتبهة يوهم بعضها أن الخبر يرفع المبتدأ ، وذلك قوله: "فإنّ المبنى عليه يرتفع به كما ارتفع هو بالابتداء ، يعني يرتفع بالمبتدأ" ويوهم بعضهم أن الابتداء يرفع المبتدأ والخبر لقوله : "وارتفع المنطلق" وهو يعني خبر الابتداء ، لان المبنى على المبتدأ بمنزلته))^(١).

مما تقدم يظهر أنّ الخلاف لم يكن بين المذهبين فحسب في توجيه رافع الخبر ، بل بين مؤسسي المذهب البصري أنفسهم فيعرض السيرافي لرأي المبرد ،

القائل بأنّ الخبر مرتفع بالابتداء والمبتدأ معاً و وقف السيرافي عند بعض عبارات سيبويه التي تحتمل أكثر من وجه ، فأراد أن يوجهها توجيهها يرفع الإبهام ويمنع التعدد في التأويل من قبل الشارحين ، سعياً منه إلى إعمال وظيفة اللغة التفسيرية متمثل في تقويم التأويل وتوجيه المتلقي نحو المعنى المقصود كاشفاً بذلك عن الأبعاد التواصلية للنص .

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي: ٢ / ٢٥٧ .

ولا يقف السيرافي عند حدود النقل والشرح أو الترجيح بين الأقوال ، بل يطرح رأياً مغايراً في تعليل رفع الخبر يمكن عدّه إسهاماً أو تحليلاً خاصاً به ، فلا يسند الرفع إلى المبتدأ وحده ، بل يشير إلى أن عامل التعرية - الابتداء - قد شمل جزأي الكلام ، قال : ((وفيه وجه حسن آخر ليس في شيء مما ذكرته في غير هذا الموضع ولا رأيته لأحد ، وهو أن التعرية الموجبة للرفع قد وقعت على المبتدأ والخبر ، لأن الخبر - أيضاً - لم يدخل عليه عامل لفظي ، لأن الاسم المبتدأ ليس بعامل ، فكان في كل واحد منهما تعرية))^(١).

قدم السيرافي في هذا الموضع توجيهها مغايراً لما قال به النحاة سابقاً ، فلم يقتصر على تعليل رفع الخبر بالمبتدأ أو بالابتداء والمبتدأ معاً كما هو حال من مثل المدرسة البصرية ، بل ذهب إلى أن التعرية من العوامل - الابتداء - وقع عمله على المبتدأ وعلى الخبر ، لأن كلاهما متجرد من العامل اللفظي فلا يمكن عد المبتدأ عاملاً لأن الأسماء لا تعمل فيما بعدها ، فلا يكون المبتدأ هنا هو الرافع للخبر في الكلام ، مما يقتضي توسيع مجال عمل العامل المعنوي ليشمل المبتدأ والخبر ، ((ويدلك على ذلك أنّ أصحابنا لا خلاف بينهم أن خبر المبتدأ قد يتقدّم عليه ويرتفع بما كان يرتفع به ، وقد علمنا أن العامل الضعيف لا يعمل فيما قبله ، والابتداء والمبتدأ ليس بأقوى من إن وأخواتها ، وأخبارها لا تتقدم عليها وإنما جاز تقديم خبر المبتدأ

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٥٧/٢ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

لأن فيه من التعرية مثل ما في المبتدأ ، ويقوي هذا قول سيبويه : "لأن المبني على المبتدأ بمنزلته" ((^(١)).

يُعزّزُ السيرافي ما جاء به من استدلال بجملة من الأدلة الحجاجية ، منها الخلاف بين النحاة على جواز تقدم الخبر وبقاء حركته على الرفع كما في قولك (منطلق عبد الله) ، وهو أمر لا ينسجم مع القول بأنّ الخبر يرتفع بالمبتدأ ، لأن العامل الضعيف الابتداء - لا يقوى على العمل فيما قبله ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن الابتداء ليس بأقوى من (إن وأخواتها) والتي منع المنحاة تقدم خبرها عليها ، لعدم جواز تقدم المعمول على العامل القوي ، فكيف يجوز تقدم الخبر على المبتدأ وهو أضعف مع بقاء حركته هي هي؟ إذن ثبت أن التعرية هي العامل في كليهما لدلالة قول سيبويه (المبني على المبتدأ بمنزلته) أي بمنزلته من حين الحكم لا من حيث الماهية لأن قولك : (عبد الله منطلق) ، عبد الله ليس من جنس الانطلاق لكنه مساو له في الحكم ، ويؤيد ما جاء به السيرافي أبو البركات الأنباري فقال : ((والتحقق فيه عندي أن يقال : إنّ الابتداء هو العامل في الخبر

بواسطة المبتدأ ، لأنه لا ينفك عنه ، ورتبته أن لا يقع إلا بعده ، فالابتداء يعمل في الخبر عند وجود المبتدأ، لا به ، كما أن النار تسخن الماء بواسطة القدر و الحطب ، فالتسخين إنما حصل عند وجودهما ، لا بهما ، لأن التسخين إنما حصل

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢ / ٤٥٧

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

بالنار وحدها ، فكذاك ههنا ، الابتداء وحده هو العامل في الخبر عند وجود المبتدأ ، إلا أنه عامل معه ، لأنه اسم ، والأصل في الأسماء ألا تفعل^(١) .

فنلاحظ تقارباً واضحاً بين طرح السيرافي وطرح الأنباري فكلاهما يشترك في الحكم والمنهجية حيث وافق السيرافي أبو البركات بأن العامل المشترك في رفع جزأي الكلام هو (الابتداء) ، لكنّ أبو البركات يجعل المبتدأ واسطة لهذا المرفوع ، في حين وسع السيرافي دائرة العمل لتشمل طرفي الإسناد ، وبناء على قول سيبويه بأن الخبر بمنزلة المبتدأ ((ساوى الكوفيون بين الابتداء والخبر ، فجعلوا كل واحد منهما رافعا للآخر ، أيهما تقدم رفع الذي بعده ، وأيها تأخر رفع الذي قبله))^(٢).

فسيراً على مبدأ أنّ المبتدأ محتاج إلى الخبر ، والخبر لا بد له من مبتدأ ، فلا ينفك أحدهما عن صاحبه أجاز الكوفيون قولك : زيد قائم ، وقائم زيد فأبي اللفظين تقدم رفع الآخر ، والتلازم بين اللفظين لا يوجب التبادل في العمل فأقر بعض النحاة بفساد هذا الرأي^(٣) ، وذهب بعض المحدثين إلى أن العامل سبيله أن يُقدّم قبل المعمول ، وإذا قيل تترافعان وجب أن يكون كلّ منهما قبل الآخر وذلك محال وما يؤدي إلى المحال محال^(٤))) ، ((والحق أن المدرسة البصرية كانت أدق حساً من

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف : ١ / ٣٩-٤٠

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤٥٧/٢ .

(٣) ينظر : إنتلاف النصره ، عبد اللطيف الزبيدي : ٣٠-٣١ .

(٤) الإنصاف (حاشية المحقق) : ١ / ٤٤-٤٥

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

المدرسة الكوفية في الفقه بدقائق العربية وأسرارها ... عن طريق التأويل والتخريج والتحليل الدقيق البصير ، لا على أسس عقلية فحسب ، بل على أسس سليقة^(١).

ويمكن القول إنّ ما كان أصلاً لا يُسأل عن علّته كما هو الحال في رفع المبتدأ، ولما كان الخبر يتوسع فهي حركته الإعرابية بين الرفع والنصب ، ظهرت فكرة البحث عن علة حركته ، والخلاف وإن كان منصبا على تعيين العامل في رفع الخبر ، إلا إنه في حقيقته يعكس الخلاف في بناء الإسناد ، هل هو قائم على محور واحد أم على التفاعل بين محاور الكلام .

ومما تقدّم يمكن القول إنّ السيرافي تناول علة رفع الخبر عن طريق بناء حاجي متسلسل يقدم له بتأصيل للمسألة المختلف فيها ، ثم يطرح ما بحوزته من آراء مختلفة ليختم الكلام بترجيح الأصح منها وفق ما يرى أو يطرح رأياً جديداً يتبناه لنفسه ، وقد أدى هذا الحجاج وظيفة تواصلية واضحة حيث تدرج في تفعيل وظيفة اللغة المرجعية ثم استعان بوظيفتها الإفهامية ، ومن ثم تفعيل الوظيفة التأثيرية على هيئة تمثّلات حاجية يُريد بها تحقيق التوازن في الإسناد ، ومنع اختزال الخبر في التبعية ، مما يُعزز توازن البنية ويحقق وضوحاً تواصلياً في توجيه المعنى.

ثالثاً : رافع الاسم الواقع بعد شبه الجملة :

عرض السيرافي المسألة الخلافية في رافع الاسم الواقع بعد شبه الجملة (الجار والمجرور) ، قال : ((مذهب سيبويه أن الاسم يرتفع بالابتداء أخرت الظرف أو قدّمته

(١) المدارس النحوية ، شوقي ضيف : ١٦٣ .

. وقال الكوفيون : إذا تقدم الظرف ارتفع الاسم بضمير له مرفوع في الظرف المتأخر ، فكان من حُجّة سيبويه في ذلك أنا إذا أدخلنا إن ، نصبنا الاسم وإن كان قبله ظرف كقولنا : " في الدار زيداً " ^(١)

يبين السيرافي أن رافع المبتدأ عند سيبويه هو عامل الابتداء ، سواء تأخر هذا المبتدأ أم تقدم ، ولما كان الكوفيون يرون أن المبتدأ والخبر كلاهما يترافعان والأول يرفع الثاني ، فكان مذهبهم تقدير مضمّر في شبه الجملة يرفع المبتدأ المتأخر .

ولا خلاف بين المذهبين أن الاسم المتأخر هو المبتدأ، المتقدم وشبه الجملة هو الخبر المتقدم ، لكن الخلاف كان في رافع المبتدأ في هذا الموضع ، وكانت حُجّة سيبويه في ردّ المذهب الكوفي هي تغير العلامة الإعرابية للاسم بعد دخول (إن) على الكلام فيصبح الاسم منصوباً وإن تقدمت (شبه الجملة) عليه ((فلو كان في

الدار يرفع زيداً قبل دخول إن لما غيرتها (إن) عن العمل. كما أننا لو قلنا : إن يقوم زيداً ، لم يجز أن تُبطل عمل (يقوم) ، بل يُقال : إن يقوم زيدٌ ، على معنى إنّه يقوم زيدٌ ، كذلك : إن في الدار زيدٌ ، على معنى إنه في الدار زيدٌ ^(٢).

استند السيرافي في هذا النص إلى حجة تطبيقية استدلالية قائمة على إدخال "إن" على الكلام ، فيبين أن اعراب الاسم الواقع بعد الظرف تتغير من الرفع إلى النصب لوقوع تأثير العامل عليها - إن . ، ولو كان الظرف كاملاً لما أُلغيت (إن)

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢ / ٤١٤ - ٤١٥ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢ / ٤١٥ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

عمله ، كما لا يلغى دخولها عمل الفعل في قولك : (إن يقوم زيد) على تقدير (إنه يقوم) لأن الفعل أقوى عملا منها ، ((فلما كانت العرب تنصب ذلك مع تقديم الظروف ، علمنا أن ارتفاعه بالابتداء ، و هذا في القرآن وسائر الكلام أكثر من أن يحصى ، قال الله تعالى : ﴿إِن لَّدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ و ﴿إِن لَّنَا أَجْرًا﴾ ، وما أشبهه))^(١).

يواصل السيرافي استحضر الحجاج فانتقل من الحجج القياسية التمثيلية إلى نقل حجج سماعية متمثلة بآيات من الذكر الحكيم وكلام العرب في سياق إثبات أن الظرف لا يرفع الاسم الواقع بعده ، محققاً وظيفة الكلام التواصلية المتمثلة في ربط القاعدة بالاستعمال اللغوي بما يُحقق ثباتاً في توجيه المعنى .

فلما كان الحجاج فعل إنساني غايته الإقناع اعتماداً على أسس عقلية موزونة فلا بد من اتحاده مع النظام التواصلية الذي تلتنقي فيه معطيات اللغة مع المعطيات الخارجية للسياق ((فنقل المعلومة على طول الوسيلة ليس له الطبيعة نفسها مع تشكيل رأي ونقله نحو المخاطب ، لذلك لابد أن نفكر في مخطط التواصل حالة (المحاجة)))^(٢) .

أي أن الوسائل التواصلية لا تتفك عن الوسائل الحجاجية . وذكّر عن أبي الحسن الأخفش والكوفيين قولهم : إن الاسم يرتفع بالجار والمجرور كما يرتفع بالفعل

(١) نفسه : ٢ / ٤١٥ ، والآية : المزمّل : ١٢ ، و الأعراف : ٢٨ .

(٢) التواصل والحجاج ، عبد العزيز السراح ، بحث منشور : ٢٧٣ ، (نقلا عن مصدر أجنبي) .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

ويخلوان عن ضمير لعملهما في الظاهر^(١) ((ومما يدل على بطلان ما قالوه، إجماعهم على جواز : في داره زيد ، فإن كان زيد مرفوعاً بالظرف فلا يجوز إضماره قبل الذكر، وليس النية التأخير وإنما يجوز سيبويه وأصحابه: في داره زيد ، لأن النية : زيد في داره))^(٢) .

بين السيرافي بطلان حجة الكوفيين بأن المذاهب أجمع متفقة على قولك : (في داره زيد) فلو كان المضمر هو الرافع في المبتدأ لم يجز أن يعود عمله على متأخر، لأن القصد من قولك : (في داره زيد) (زيد في داره) على نية تقديم المبتدأ وتأخير الظرف وهذا هو القياس الجاري .

وقد اتَّفَقَ النُّحَاةُ على أن المبتدأ إذا كان نكرة وجب الابتداء بالخبر سواء أكان (ظرف، أوجار ومجرور) فيجوز لك أن تقول : (في الدار رجل) ، ولا يسأل عن سبب تقديم الظرف ، أما إذا كان المبتدأ معرفة وقدم الخبر فوجب أن يُسأل عن علة تقدمه ، وذكر النحاة أن ذلك جائز في الكلام لغرض الاختصاص أو الحصر، فإذا كان المخاطب منكراً لوجود (زيد) في الدار وجب تقديم (الجار والمجرور) لإثبات ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾^(٣) على تقدير إخصاص : (الحمد له ، والملك له) دون سواه^(٤) .

(١) ينظر: التبين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين : ٢٣٣ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٤١٥/٢ .

(٣) التغابن : ١

(٤) ينظر: معاني النحو : ١/١٥٣ - ١٥٤

إذن لم يقتصر تقدم الجار والمجرور في هذا الموضع على كونه ظاهرة تركيبية، بل تجاوز ذلك إلى غرض دلالي متمثلاً بالتخصيص ، ويظهر أن إصرار الجانب البصري على إثبات رفع المبتدأ للابتداء تقدم أو تأخر ، مع عدم إجازة أعمال الجار والمجرور المتقدم، ناتجة عن سعيه إلى تثبيت جهة الإسناد داخل الجملة، وإبعادها عن الاضطراب في الفهم إذا ما تم توسيع دائرة أعمال العامل ، فلو أجاز أبو سعيد ما جاء به الكوفيون لاضطرب تحديد المسند إليه ، وتداخلت جهات الإسناد، مما يؤدي إلى غموض في توجيه المعنى ، فكان المنع عنده وسيلة لضبط المعنى ، موظفا النحو لتعزيز الجانب التواصل للكلام ، بما يضمن استقرار العلاقة بين طرفي الاسناد ، ويسهم في إيصال المعنى على أدق وجه .

المبحث الثالث: البنية الشرطية وأثرها
في توجيه المعنى التواصل

لم يستعمل سيبويه مصطلح (الشرط) ، ولم يتحدث عن الجملة الشرطية حديثاً مباشراً ، ولعل أول استعمال لمصطلح الجملة الشرطية كان عند (الزمخشري) إذ

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

يعود إليه الفضل في إبتكار هذا المصطلح ، وإقرار لنوعها مقابل أنواع الجمل العربية الأخرى^(١).

ولا يعني هذا عدم إدراك النحاة السابقين لها ، فأنت تجد في ثنايا كتبهم أحكامها وشروطها وأدواتها التي مهدت لاحقا لما عرف بالجملة الشرطية ، فعقد سيبويه باباً أسماه (باب الجزاء) بدء الحديث فيه عن أدواتها لتعليقها لاحقا مجموعة من الأبواب تبين تفصيلاتها التي تنبئ عن وضوح الرؤية النحوية عند سيبويه لهذا النوع من الكلام ، قال : ((فما يُجازى من الأسماء غير الظروف : من ، وما ، وأيهم . وما يُجازى به من الظروف : أي حين ، ومتى ، وأين ، وأنى ، وحيثما . ومن غيرهما : إن ، وإدما . ولا يكون الجزاء في حيث ولا في إذ حتى يضح إلى كل واحد منهما ما))^(٢).

حيث يتضح من الوهلة الأولى أنّ سيبويه حرص على ذكر أدوات الجزاء وأقسامها وأوصافها دون الحديث عن ماهية الجملة ، وذلك لفرض التأسيس للمفهوم ، من هذا المنطلق كان توجه الشراح من بعده ، قال السيرافي : ((والشرط والجواب هما في الأصل جملتان متباينتان ربطهما حرف المجازاة فصارتا كشيء واحد))^(٣) ، فتبين هنا جوهر البنية الشرطية من ضرورة تكامل أركانها بتأثير من الأداة التي لا سبيل للاستغناء عنها ، هذا الترابط الذي سيبين لاحقا ما له من أثر في توجيه قصد

(١) ينظر: التراكيب الإسنادية ، الدكتور علي أبو المكارم : ١٤٣ .

(٢) كتاب سيبويه : ٥٦/٣ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٨٤/٣ .

المتكلم وفهم المخاطب^(١)، ((فأدرك ، النحاة وجود أشكال نمطية للجملة العربية لا تتكون من كلمات و إنما تتألف من تراكيب يدور كل تركيب منها حول محور الإسناد، بحيث يمكن اعتبار هذه الأشكال ذات طابع خاص ومن بينها: الشرط))^(٢) ثم توسّع الشراح في تفصيل جملة الشرط ، فهي مكونة من أداة الشرط والتي تكون بدورها على ثلاثة أنواع : أسماء ، وظروف ، وحروف ، ومن ثم فعل الشرط و جوابه ، ولا تكتمل الجملة الشرطية بدون هذه الأجزاء وَعَرَّفَ بأنه : ((تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد الأول وجدَ الثاني))^(٣) ، وأوّل من استعمل مصطلح الشرط بمعناه المخصوص هو الفراء عند حديثه عن (لام التعليل)^(٤) ، و (فاء السببية)^(٥) .

ويُعدُّ أسلوب الشرط واحدا من الأساليب المؤثرة حجاجياً بفعل أداة الشرط

التي تنصدر الكلام ، والوظيفة التي تؤديها بنية الشرط على العموم ، فالأداة مبنية تقسمي له صور خاصة تتّضح جميعها حين تؤدي وظيفتها النحوية العامة ، والأداة التي تؤدي ((وظيفة خاصة تسمى الأدوات باسمها ، فالنفي والاستفهام والشرط مثلا وظائف خاصة تقوم بها أدوات النفي والاستفهام والشرط ، فيكون معنى الأداة هو معنى الجملة ، ومن هنا يبرز تشابك العلاقة بين الأداة وبين جملتها))^(٦) .

(١) ينظر : التراكيب الإسنادية : ١٤٣ .

(٢) مقومات الجملة العربية ، الدكتور علي أبو المكارم : ٨١-٨٢ .

(٣) التعريفات الجرجاني : ١٢٥ - ١٢٦ .

(٤) ينظر : معاني القرآن ، الفراء : ١ / ١١٣ .

(٥) ينظر : نفسه : ٢ / ٢٩٩ .

(٦) أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة : ٣٢٨ .

وتعمل أداة الشرط كأداة احيائية تربط اللاحق بالسابق ، ومنها ما تكون أصيلة في هذا الباب فتعمل بدون قيد أو شرط ، والبعض الآخر لا يعمل إلا إذا اقترن بلواحقٍ مخصصة كما في (حيث) ، و (إذا) .

أولاً : أثر لحاق ما بأدوات الشرط :

قال سيبويه : ((ولا يكون الجزاء في (حيث) و (لا) في (إذا) حتى يضع إلى كل واحدة منهما (ما) فتصير إذ مع (ما) بمنزلة (إنما) وكأثما ، وليست (ما) فيهما بلغو ، ولكن كل واحد منهما مع (ما) بمنزلة حرف واحد))^(١).

بعد أن استعرض سيبويه أدوات الجزاء أخذ يبين أحكامها فمنع المجازاة ب (حيث) ، و (إذا) إلا إذا لحقتها (ما) فتكون (حيثما) ، و (إنما) ، بمنزلة (إنما) إشارة منه إلى الأثر الذي تحدثه (ما) عند اقترانها بالأدوات (حين) و (إذ) ؛

وذلك لأن (إن) في أصل وضعها كانت للتوكيد ، وعند اقترانها ب (ما) أصبح هذا التركيب (إنما) يُفيد الحصر والتخصيص^(٢)، فقد ((يركب الشئان فيخرجان عن حكم كل واحد منهما إلى حكم مفرد))^(٣) ، فكما أن أقران (أن) ب (ما) غيرها عن عملها الأول ، كذلك اقتران ما ب (حيث) نقلها من حيز الظرفية إلى حيز الشرط، وقد علل السيرافي إضافة (ما) ، فقال : ((و أما دخول (ما) على (حيث) للمجازاة،

(١) كتاب سيبويه : ٥٦-٥٧.

(٢) ينظر : معاني النحو : ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ٢٥٨ - ٢٥٩.

فلان (حيث) اسم للمكان ، فكان يلزمها الإيضاح قبل المجازاة بها ((^(١)) وكلامه هذا جاء تعقيباً على منع سيبويه الذي ذكر ((منع (حيث) أن يجازي بها أنك تقول : حيث تكون أكون، ف (تكون) وصل لها ، كأنك قلت : المكان الذي تكون فيه أكون ((^(٢)).

إنّ مسألة المنع قائمة على شقين ، الأول : أنّ (حيث) مجردة من اللواحق تعامل معاملة الظرف وقد بين سيبويه معنى الكلام بعد دخولها وهذا لا يكون جزاء، والشق الآخر: أنّ سيبويه أوجب على أداة الشرط أن يكون ما بعدها صلة لها ، والفعل (تكون) في قولك : (حيث تكون) صلة للأداة ولما أصبح ما بعدها صلة لها خرجت من دائرة الإبهام إلى دائرة اليقين ((فلما أرادوا المجازاة لزمهم إبهامها وإسقاط ما يوضحها ، والزموها (ما) كما ألزموا (ما) إنما ، وكأئماً وربّما ، وجعلوا لزوم (ما) دلالة على إبطال مذهبها الأول ((^(٣)

يُبيّن أبو سعيد أن باب الشرط لما كان قائماً على الإبهام وجب أن تكون أدواته متوغلة في الإبهام كذلك لذا استعمل العرب (ما) لتكفّ حيث عن أن يكون ما بعدها صلة لها ، لأن باب الشرط قائم على الإبهام ، وباب الإضافة قائم على المعرفة^(٤)، فلا تجوز المجازاة إلا بهذا التركيب الجديد المتحصل بعد دخول (ما)^(٥)، ((وإذا

(١) نفسه : ٢٥٩/٣ .

(٢) كتاب سيبويه : ٥٨/٣ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٥٩/٣ .

(٤) ينظر: الأشباه والنظائر ، السيوطي : ٩٧/١ .

(٥) ينظر : المقتضب : ٨/ ٢

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

كانت هذه الأسماء محمولة على إن في المجازاة ، وجب أن يكون الفعل بعدها بمنزلته بعد إن . فكما لا يكون الفعل بعد إن في قولك : **إِنْ تَخْرُجْ أَخْرُجْ** ، مضافا إليه شيء ، كذلك يجب أن تكفّ حيث عن الإضافة ليكون الفعل المجزوم بأنه شرط غير مُضاف إلى الفعل))^(١) .

ولم تختص (ما) بأدوات الشرط فحسب، بل تضيف صفة الإبهام على أي موضع تدخل عليه كما في قولك : (**قَرَأْتُ كِتَابًا مَا**) ^(٢) ، فإضافتها صفة العمومية هو ما جعل لها معنى مؤثرا في الكلام ومعنى قول سيبويه (وليست ما فيهما بلغو) يُريد لحاقها (حيث) و (إذ) ، فكانت بمثابة الأداة التي غيّرت وجه الدلالة للكلام فلحقها بـ (إذا) ((لأنها كانت من قبل دخول (ما) عليها لما مضى من الزمان))^(٣) .

يمكن أن يلمس الجانب التواصلي عند السيرافي في المنع والإجازة ، إذ كان المنع متصلاً بالجانب الدلالي للكلام ف الشرط بوصفه " كلام قد عمل بعضه في بعض))^(٤)، فالأداة التي تعمل الشرط فيما بعدها وجب أن تكون متسقة في المعنى مع بنية الشرط بالكامل حتى لا ينتشتت مقصد الكلام بين الشرطية والكلام المراد به معرفة الظرف والمقام ، كما يظهر البعد الحجاجي عند السيرافي في طرح الفكرة عن طريق المقابلة بين الأصل والبنية المتحوّل إليها ، فلم يكتفِ بإطلاق الحكم فحسب،

(١) المقتصد، الجرجاني : ١٠٥٩

(٢) ينظر : معاني النحو : ٤٧٢-٤٧٤ / ٢

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٥٨ / ٣

(٤) كتاب سيبويه : ٥٨/٣

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

بل علل لذلك من خلال إظهار التحول في المعنى الناتج عن التحول في المبنى ، فأراد بإلقاء الحجج أن ((يؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من إطروحات ، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم))^(١)، حرصًا منه على إيصال مقصد الكلام على أدق وجه .

ثانيا : الاستفهام والجزاء بين الأصل والاستعمال :

تعد العلاقة بين الجزاء والاستفهام من القضايا التي وقف عندها النحاة ، لما فيها من تداخل في الأدوات بين البنية التركيبية والبنية الدلالية الوظيفية ، فظهر في بعض التوجيهات أنى أدوات الجزاء كانت أدوات استفهام في أصل الوضع ، واتسع في استعمالها فخرجت لأغراض الجزاء وقد يكون هذا الفكر منطلقا من أن كلا منهم بحاجة إلى جواب ويتم بأدوات مخصوصة قد تستعمل في كلا البابين .

رفض سيبويه هذا الاشتراك وهو ما نقله عن قومه فقال: ((وأما قول النحويين : يجازي بكل شيء يستفهم به ، فلا يستقيم ، من قبل أنك تجازي بـ (إن) و بـ (حيثما) و (إذما) ، ولا يستقيم بهن الاستفهام^(٢) .

أراد النحاة أن أدوات الجزاء نفسها يمكن استعمالها للاستفهام حملا على (من، وما ، وأيهم) وهي من الأسماء التي يُجازى بها ، فيبين سيبويه أن الحديث في المطلق مرفوض لأن هناك أدوات من مثل (حيثما) و (إذما) أدوات للمجازاة ولا

(١) الحجاج في البلاغة المعاصرة ، محمد السالم محمد الأمين الطلبة : ١٠٧

(٢) ينظر : كتاب سيبويه : ٥٩ / ٣ .

يمكن الاستفهام بها فيكون هذا حكما غير مطرد ، لكن سيبويه وجد وجهها للمشابهة بينهما ، فقال : ((ولكن القول فيه كالقول في الاستفهام ، ألا ترى أنك إذا استفهمت لم تجعل ما بعده صلة ؟ والوجه أن تقول : الفعل ليس في الجزاء بصلة لما قبله ، كما أنه في حروف الاستفهام ليس صلة لما قبله))^(١).

يتضح من هذا النص تأكيد السيرافي على عدم وجود صلة بين فعل الشرط والأداة ، والمستفهم عنه وأداة الاستفهام لأن كلا البابين قائمين على الإبهام فلو تحقق العلم المطلق بالشرط لما وجب الجزاء عليه ولو تحققت المعرفة مع الاستفهام لبطل الجواب كذلك ، لذا يُحمل الجزاء على الاستفهام في هذا الموضع .

قال أبو سعيد : ((وقد عاب قوم سيبويه على النحويين حين حكى عنهم أنهم قالوا : يُجازى بكل في يستفهم به ، فقال سيبويه : لا يستقيم هذا ، من قبل أنك تجازي بأن وبحيثما وإذا ، فقال العائب وهو أبو عمرو الجرمي ومن وافقه : لا يكون ما قال سيبويه ردًّا عليهم))^(٢) تمثل ردُّ سيبويه بالاستشهاد بأدوات تعمل الجزاء ولا تعمل الاستفهام فعاب عليه أبي عمرو الجرمي هذا الرد بأنه غير ملائم لما قالوه ، وكعادة الشارح يقف مدافعا عن سيبويه (إذا كل من اعترض عليه بالتماس الأوجه الممكنة لقول (سيبويه) فينقل عن السيرافي عن المعترض قوله : ((لا يكون ما قال سيبويه ردا عليهم لأنهم لم يقولوا : لا تكون المجازاة إلى بما يستفهم به ، ولا يمنع هذا المجازاة بغيره ، كما لو قال قائل : يكون الرفع بأنه الفاعل والنصب بأنه مفعول به ،

(١) نفسه .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٦٠/٣

لم يمنع الرفع والنصب بغيرهما . وعابوا أيضاً ما حكى عنهم : يجازى بكل شيء يستفهم به ، وليس بينهم خلاف أنه لا يجازى بألف الاستفهام وبهـ^(١)

ينقل أبو سعيد اعتراض معترض وهو أبو عمرو الجرمي حيث يعيب على النحاة ما جاؤوا به وهو جعل أدوات الجزاء أدوات للاستفهام ، ومن وجهة أخرى يعقب أن ردّ سيبويه ليس ملائماً كونه لا يتطابق مع طرحهم ، على دعوى أنهم يحصرّون المجازاة بأدوات الاستفهام وإنّما يشيرون إلى إمكانية المجازاة بها، كما أن نسبك الدفع إلى الفاعل لا تنفي الدفع عما سواه ، وقد ردّ أبو سعيد على كلا الاعتراضين ، قال : ((أمّا الأول : فإنّ الذي حكى عنهم أنهم قالوه هو أن أصل الجزاء الاستفهام ، فكل شيء جوزي به إنّما هو منقول من الاستفهام فأراهم أنهم يُجازون بحيثما و أن ، وهما لا يكونان استفهاماً ، فهذا مخرج هذا ، وأمّا الثاني : فقد فهم عن سيبويه أنه أراد الأسماء التي يستفهم بها ، لأنهم لا يختلفون في الحروف أنّها لا يجازى بها ، فكان فسر قولهم على ظاهر ما حكى عنهم أن يقال : انتم تستفهمون بـ(كم) ولا يُجازى بها ، و كذلك (كيف) يستفهم بها ولا يجازى بها^(٢) .

يبين السيرافي أنّ احتجاج سيبويه بـ (إن ، وحيثما) لأنّ القوم يرجعون جميع أدوات الجزاء إلى الاستفهام و (إنّ ، وحيثما) أدوات للجزاء ولا يستفهم بهما فبطل كلامهم.

(١) نفسه .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٦٠/٣ .

والأمر الآخر: أنَّ القوم يريدون تداخل أسماء الاستفهام لا حروفه ، إذا فسر كلامهم على ظاهره يؤيد ذلك قول سيبويه: ((وسألتُ الخليل عن قوله : كيف تصنع أصنع ، فقال : هي متكرّهة ، وليست من حروف الجزاء، ومخرجها على الجزاء ؛ لأن معناها على أي حال تكن أكن))^(١) .

أي إن حملها على أدوات الجزاء بسبب الوظيفة الدلالية التي تؤدّيها في الكلام، وكذا الأمر مع (كيف) التي يستفهم بها ولا يجازي بها ، لأنها لم يسأل عن الحال وليست بظرف .

مما تقدم يتّضح لنا أنَّ سيبويه ومن بعده السيرافي أرادوا تمييز الجملة الشرطيّة وهي جملة مركبة ولا تعد من الجمل البسيطة^(٢) ، لأنّ الأداة فيها لا تكون ذات صلة بالفعل الذي يليها كما هو الحال في الجمل الموصولة والجملة الظرفية ، وذلك لما تتميز به الأداة من الاستقلال الذي يعطيها هذه القوة في بابها ، وهذا ما سار عليه النحاة من بعد سيبويه^(٣) ، والأمر الآخر : أراد أن يبين أنّ لكلّ باب أدوات مخصوصة متى ما تداخلت مع الأدوات في الأبواب الأخرى ألبس ذلك على المتلقي وأصبح محتاجا إلى قرائن سياقية أو مقامية ليتبين حقيقة الأمر.

(١) نفسه .

(٢) قال ابن يعيش : ((الشرطية في التحقيق مركبة من جملتين فعليّتين : الشرط فعل وفاعل ، والجزاء فعل وفاعل

((، شرح المفصل : ١ / ٨٨ .

(٣) ينظر : شرح المفصل ، ابن يعيش : ٨٨/١ .

وقد استعمل سيبويه ، ومن بعده السيرافيّ بالأدلة والحجج الغاية منها تحصيل الإقناع والإذعان من قبل المتلقي والمعترض فنراه في ردوده على المعترضين يحاول سبر أوجه الخلاف ، فإن وجد معترض واقعي كما هو الحال مع أبي عمرو الجرمي فهو يدرأ الإشكال من كل الوجوه على طريق الحجاج العقلي باستعمال الأدلة والبراهين الاستدلالية أو عن طريق الحجاج النقلي عن طريق الاستعانة بكلام العرب أو الاستعمال اللغوي ، وهو من أبرز الأساليب الحجاجيّة التي لجأ إليها في معظم المواضع ، وذلك لأنّ الحجاج هو ((الآلية الأبرز التي يستعمل المتكلم اللغة فيها، وتتجسد عبرها إستراتيجية الإقناع))^(١) ، وهذا جلّ ما عمله السيرافيّ في تثبيت الحكم أو نفيه .

ثالثاً : (إنّ) أمّ حروف الجزاء :

شاع عند النحاة في معالجتهم الأبواب النحوية التي تقوم على الأدوات ، أن يميزوا واحدة منها على أخواتها وتتعت بأوصاف من مثل (أمّ الباب) أو (أمّ الحروف) كنايةً على هيمنتها في هذا الموضع ، وقد عدّ النحاة (إنّ) (أمّ حروف الجزاء) ، قال سيبويه ((وزعم الخليل أنّ إن هي أم حروف الجزاء ، فسألته لم قلت ذلك ؟ فقال : من قبل أنني أرى حروف الجزاء قد يتصرفن فيكّن استفهاماً ومنها ما يفارقه ما فلا يكون فيه الجزاء ، وهذه على حالٍ واحدة أبداً لاتفارق المجازة))^(٢) .

(١) استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية : ٤٥٦ .

(٢) كتاب سيبويه : ٦٣/٣

إن المطلّع على كتاب سيبويه يجده في أغلب الأبواب قد اعتمد منهاجا واحدة وهو ذكر الحكم النحوي تع التعليل له، وتقوية ذلك الحكم بالأدلة والحجج العقلية أو النقلية أو كلاهما معاً ، وغالبا ما كان يعزز قوله بالنقل . عن الخليل (رحمه الله) ، وقد أضفى هذا المنهج طابعاً تفاعلياً قائماً على الإقناع عن طريق إقامة الحجة ، فتلاحظ أن الخليل نظر إلى (إن) من حيث الوظيفة المناطة بها في (باب الجزاء) فثباتها على معنى المجازاة جعلها في منزلة متميزة بين نظائرها التي لا تعمل في المطلق ، أو تخرج لأغراض أخرى فلا تكون أصيلة في باب الجزاء ، فاعتمد الخليل أسلوب المقابلة آلية حجاجية في تفسير الحكم النحوي وربطه بناء المعنى وفهم المخاطب.

قال أبو سعيد : ((وأما قول الخليل : (إن) هي أم حروف الجزاء ، فلأنها تدخل على الجزاء . في جميع وجوهه ، وليست كذا سائر ما يُجازى به ، لأن (من) يجازى بها فيما يعقل ، و (ما) فيما لا يعقل ، و (أي) فيما يبعض ، و (متى) للزمان ، و (أين) و (حيثما) للمكان ، و (أنى) نحو من ذلك ، و (إنما) يتكلم بها القليل منهم ، وكل العرب تعرفها))^(١)

تعد (إن) من الأدوات واسعة الدلالة ، فاستعملت في المعاني المحتملة الوقوع، كما في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾^(٢) ، والمعاني المشكوك فيها ، كما في

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٦٣/٣

(٢) البقرة : ١٩ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾^(١) والمعاني المستحيلة ،

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكَدُفًا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾^(٢) ، وكذلك تستعمل حين يكون

الزمن مطلقا غير محدد^(٣) ، وهذا ما أشار إليه السيرافي في كونها تدخل على الجزاء في جميع وجوهه ، وكذلك يسرد حُجَّة أخرى تعتمد على شمول الوظيفة واتساع مجال الاستعمال ، فيظهر أنها أداة متمكنة في بابها ، ويبيِّن تصنيف أبي سعيد لـ (إن) وسائل الأدوات الأخرى عن بعد تواصلية يكشف عن تصميم (إن) الدلالي الذي يمكنها من العمل في أي مجالي تواصلية بحسب قصد المتكلم وغايته ومن ثم تحديد مجال التلقي فهي أصل في الجزاء وجميع الأدوات محمولة عليها^(٤).

والذي مكن أداة الشرط في تحديد مسار الكلام هو تأصل هذه الأدوات في الرتبة فمجيئها في أول الكلام جعلها الموجه الأول لمسار اللغة ، فقولك : (متى) تهیی ذهن المتلقي إلى الوقت ، وقولك : (مَنْ) تهیی ذهنه للسؤال أو معرفة (شخص ما) ، أما قولك : (إن) فهي تفتح مجال التفكير عند المتلقي ولا تقيد به معنى واحد ، لذا كانت أصلح الأدوات لاستيعاب جميع أوجه الجزاء.

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) الزخرف : ٨ .

(٣) ينظر : معاني النحو : ٢ / ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٤) قال ابن الانباري : ((ان قال قائل لم عملت "إن" الجزم في الفعل المضارع ؟ قيل : إنما عملت لاختصاصها .. فأما ما عدا " إن " من الألفاظ التي يجازى بها نحو " من ، ما ، ... " فإنما عملت لأنها قامت مقام " إن " فعملت

عملها)) . (اسرار العربية ، ابن الانباري ، (باب الشرط والجزاء) : ٣٣٦

ويذهب السيرافي إلى حجة ثالثة وهي (الاستعمال) ، فيحتج بضعف (إنما) دلالة على قوّة (إن) ، فيضعفها قلة شيوعها وعدم معرفة أغلب العرب لها ، فيلاحظ أنّ أبا سعيد يستعمل ما عرف لاحقاً بـ (اللّمع) في الدراسات الحجاجية حيث ((يتمكن المتكلم من تلميع موضوعه بما يسميه "غرايز" اللّمع وهذا اللّمع يساهم في تغيير أحكام المخاطب وتقويماته للموضوعات التي يجري التواصل بصددّها))^(١) تحت أثر أسلوب المقابلة بين النماذج اللغوية موضوع الدراسة ، وكذلك منطقية العلاقة بين التوقع والإدراك ، والبيان والتثبت من صحة المعلومة، وذلك لأنّ المُحاجج ((لا يكتفي بوصف أوضاع معينة فهو يشير في الوقت نفسه إلى معرفة بكاملها عند المستمع ستقوم بتلميع ما يريد بيانه سواء بصورة إيجابية أو سلبية وتتحرك المشاعر وردود الأفعال عند المخاطبين))^(٢) .

ويواصل السيرافي سرد الحجج فقال : ((ومما يدل على أنّ (إن) أم حروف الجزاء ، أنها قد يسكت عليها ويحذف الشرط بعدها والجواب ، ولا يفعل ذلك بغيرها، يقول القائل : لا أتى الأمير لأنه جائر ، فيقال : أئته وإن : و كذلك : لا أصلي خلف فلان لأنه أعمى ، فيقال : حلّ خلفه وإن ، يُراد بذلك : وإن كان جائزاً وإن كان أعمى فصل خلفه))^(٣)

(١) نظرية التأويل التقابلي ، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب ، محمد بازي : ٧٢

(٢) نفسه .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣ / ٢٦٤

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

إنَّ حذف الشرط مع (إنَّ) على وجهين، الأول : وجوبًا ، والآخر : جوازًا، ولا يكون الحذف إلَّا لأغراض منها : الحذف لعلم المخاطب ، أو لغرض الاقتصاد اللغوي ، ولا يكون الحذف جائزًا إلى حين يكون المحذوف معلوما بما يدل عليه^(١).

وتظهر عناية السيرافي بالجانب التواصل للغة من خلال الربط بين خصوصية (إن) وقدرتها على الاستغناء عن التصريح بالشرط مع بقاء المعنى مفهومًا عند المخاطب ، فتكشف إمكانية الحذف معها دون سواها عن قوة حضورها الدلالي في ذهن المخاطب ، فيمكن أن يكتفى بالأداة وحدها لاستحضار المحذوف بناءً على المعطى السياقي للكلام ، فنقوم العملية التواصلية على مبدأ الاقتصاد اللغوي ، فقولهم : (إنَّه وإن) ، و(صلَّ خلفه وإن) فيتوقع المخاطب الجواب بناءً على قدرته على الاستنتاج واستنباط المراد من خلال السياق المتقدّم ، ويقترّب هذا الفكر الاستباقي من فكرة الافتراض المسبق ففي ((كل تواصل لساني ينطلق الشركاء من معطيات وافتراضات معترف بها ومتفق عليها بينهم ، وتشكل هذه الافتراضات الخلفية التواصلية الضرورية لتحقيق النجاح في عملية التواصل ، وهي محتواة ضمن السياقات والبنى التركيبية العامة))^(٢).

فتظهر أهمية الافتراض المسبق أو التوقع الاستباقي في كل العمليات التحوارية التواصلية وبالذات إذا كانت متضمنة للحذف أو الاختصار ، ومع أداة الشرط (إن) كان بها من الاتساع الدلالي ما يؤهلها لتحمل الحذف مع إمكانية الحفاظ على وضوح

(١) ينظر: المقتضب : ٨١/٢ .

(٢) التداولية عند العلماء العرب ، مسعود صحرأوى : ٣٠-٣١

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

المقصد من الكلام ، وهذه كانت حجة السيرافي للاستدلال على تميز (إن) في بابها ، فكان غرضه إجماع المتلقي بالحجة عن طريق ((تقرير

الدليل لإثبات المدلول))^(١).

ولم يكتفِ السيرافي بهذا ، فاحتج بالشاهد الشعري ، قال : ((وأنشد بعض النحويين في ذلك - يُريد حذف الجواب -

قالت سليمي ليت لي بعلاً يمن يغسل عن جلدي وينسيني الحزن

وحاجة ليس لها عندي ثمن مستورة قضاؤها منه ومن

قالت بنات العمِّ يا سلمى وإنَّ كان عَيِّاً مُعْدَمًا قالت وإنَّ))^(٢)

على تقدير وإن كان عاجزاً معدماً فاقبل به .

فيظهر هنا أنَّ الوظيفة اللغويّة للأداة قد تجاوزت فكرة بناء الجملة الشرطية وامتدت إلى التأثير على فهم المخاطب وتحديد مجرى الكلام .

رابعاً : علّة اقتران جواب الشرط بالفاء :

لم يقف البعد التواصلّي في البنية الشرطية عند حدود وظيفة أدوات الجزاء وتحولاتها الدلالية ، ودائرة استعمالاتها ، بل امتد إلى الكيفيّة التي تنتظم بها العلاقة

(١) التعريفات : ١٨

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣/٢٦٤ ، والأبيات لرؤبة بن الحجاج ، ديوانه : ١٨٦

بين الشرط وجوابه داخل الخطاب الشرطي ، اتَّفق النحاة على أنَّ الجملة الشرطية من الجمل التي يجب أن تكون أجزاؤها مترابطة حتى أنَّهم شبهوا الشرط وجزأؤه بجملة المبتدأ والخبر ، والربط بين الجملتين يكون إمَّا بالجزم أو بأحد حروف العطف ، وذلك لأنَّ الجواب ((إذا وُجدَ مجزوماً عَلِمَ أنَّه تابع للشرط ، وغير منقطع عنه فلم يفتقر إلى الفاء))^(١) ، و ((لو قيل ربط الجملة الشرطية بالمضارع له طريقان أحدهما ... بجزمه ، والآخر بالفاء ورفعها لكان قولاً))^(٢) .

وضع النحاة مجموعة من الضوابط الواجب توفرها في الجزاء حتى يصح أن يجازى به دون الحاجة إلى رابط يربط الشرط بجزائه^(٣) ، وإلا اضطرَّ منشئ الكلام إلى الاستعانة بأحد أدوات العطف على سبيل المثال - وقد بين السيرافي علّة الحاجة إلى حرف رابط وعلة استعمال المتكلم لهذا الحرف من دون غيره ، فقال : ((والذي أخرج إلى إدخال (الفاء) في جواب الجزاء ، أن أصل الجواب أن يكون مستقبلاً ، لأنه شيء مضمون فله إذا فعل الشرط، أو وجد مجزوماً ملتبساً بما قبله من الشرط ، ف (إن) هي التي تربط أحدهما بالآخر ، ثُمَّ عَرَضَ في الكلام أن يجازا بالابتداء والخبر لنيابتهما عن الجواب ، و (إن) لا تعمل فيهما ، ولا يقعان موقع فعل مجزوم ،

(١) المقتصد : ٢ / ١١٠١ .

(٢) إرشاف الضرب ، أبو حيان : ٤ / ١٨٧٧ .

(٣) ينظر : معاني النحو : ٤٨٢ - ٤٨٣ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

فأتوا بحرف يقع بعده الابتداء والخبر ، وجعلوه مع ما بعده في موضع الجواب ، وذلك قولك: إن تزرني فعندي سعة ((^(١)) .

يبين السيرافي أنّ الأصل في جواب الشرط أن يكون على نية الاستقبال ، لأنه شأن غير محقق في الزمن الماضي ولا في الزمن الحاضر والا لبطل الشرط، فهو أمر مضمون الحصول على نية ضمان حصول الشرط ، أو أن يكون متعلقا بالشرط أي يكون نتيجة عنه ، فكانت اداة الشرط (إن) هي الرابطة بين جزأي الكلام ، فتجزم فعل الشرط وجوابه ، أما إذا كان الجواب مما لا ينجزن كأن يعرض عارض فيجازى بالابتداء وهو مما لا يقع عليه عمل (إن) الجازمة وجب دخول حرف عطف يكون هو وما بعده في موضع الجزاء ولم يكن اختيار حرف العطف (الفاء) دون غيره مسألة تركيبية فحسب ، بل كان أمراً مقصوداً راجعاً إلى قصد المتكلم فاختراروا (الفاء) دون (الواو) ودون (ثم) لأن حق الجواب أن يكون عقيب الشرط متصلاً ؛ لأنه بالشرط يُستوجب ، ومن أجل وقوعه يقع ، و (الفاء) توجب ذلك لأنها في العطف بعد الذي قبله ، متصل به ، وتركوا (الواو) لأنها لا تدل على الترتيب ، وعدلوا عن (ثم) لأنّ بينها وبين ما قبلها أكثر من مهلة (الفاء) ((^(٢)

يكشف هذا النص عن عناية السيرافي بقصد المتكلم ، فيوجه الاستعمال بناء على المعاني المتحصلة من كل حرف من حروف العطف فلا تقتصر وظيفة (الفاء) وهنا على الربط التركيبي للجملة فحسب ، وإنما توجيه بنية الشرط نحو فكرة السببية

(١) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٦٤ / ٣ .

(٢) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٢٦٤ / ٣ .

الفصل الثالث : الحجاج والتواصل

والنتابع الزمني القريب ((فلما أريد أن تُجَعَلَ هذه الجملة جزاءأتي بالفاء ... ليدل الفاء على تعلق هذه الجملة بالشرط من حيث أن الفاء تأتي لا تباع الشيء الشيء ((^(١) من دون فاصلة زمنية تذكر على عكس (ثم) أو (الواو) لأنها لا تدل على الترتيب وكما هو معلوم ان ترتيب المراتب في الجملة الشرطية من المسلمات القارة في بنية الشرط ، فلما كانت الفاء ((تُفِيدُ الاتباع وتؤذن بأن ما بعدها مسبب عما قبلها))^(٢) كانت هي الأولى بالاستعمال دون سواها ، وكانت هذه من أبرز الحجج التي استعان بها السيرافي لتثبيت استعمال الفاء دون غيرها في هذه المواضع ، فانتسعت حدود وظيفة (الفاء) من كونها أداة للربط إلى أداة تؤدي وظيفة تنظيمية تواصلية داخل البنية الشرطية.

قال السيرافي : ((وقد حذفت العرب (الفاء) في الجواب في ضرورة الشعر ... ويكثر في المجازاة حذف المبتدأ بعد (الفاء) لأنه يجري ذكره في الشرط كقولك: إن تأتني فمحبوب ؛ لأن المخاطب قد جرى ذكره في الشرط .. تقديره : فأنت محبوب ، لأن المخاطب قد جرى ذكره في (تأتني)))^(٣) .

(١) المقتصد في شرح الإيضاح : ١٠٩٩/٢ .

(٢) شرح المفصل ، ابن يعيش : ٥ / ١١١ .

(٣) شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ٣/٢٦٤ .

كما هو معلوم أنّ العرب تبيح للشاعر ما لا تبيحه لغيره ، وذلك لغرض إقامة الوزن^(١)، تحت مسمى الضرورة الشعرية فأجاز النّحاة معها حذف الفاء من جواب الشرط وإن كان مستحقا لها ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى شاع في كلامهم حذف جواب الشرط بعد الفاء إذا كان مبتدأ قد ورد ذكره سابقاً في فعل الشرط ، فيحذف من الجواب تجنباً للتكرار والإطالة في الكلام ، فقولك : (إن تأتني محبوب) على تقدير : (إن تأتني فأنت محبوب) فقد سبق وإن ذكر المبتدأ (أنت) مع فعل الشرط ، فليس من داعٍ لتكرار ذكر المخاطب .

وكما هو معلوم لا يجوز الحذف إلا بوجود دليل عليه ، حيث يعتمد المخاطب وهنا على أثر الوظيفة المرجعية للغة التي تصدر احكاماً على اساس السياق الذي يريد فيه الكلام وما يوفّر من معطيات تسهم في اقرار قصد المتكلم وتثبيت الصورة عند المتلقي ، وتركز على موضوع الخطاب باعتباره مرجعاً وواقعاً وسياق أساسياً تحليل عليه تلك الرسالة^(٢) ، فيقدر العنصر المحذوف من السياق دون الحاجة إلى التصريح به ، اعتماداً على المواضع اللغوية المشتركة بين أفراد الجماعة اللسانية^(٣).

(١) ((اعلم أن الشعر لما كان كلاماً موزوناً ، تكون الزيادة فيه والنقص منه ، يُخرجه عن صحة الوزن حتّى يُحيله عن طريق الشعر المقصود مع صحة معناه ، استجيز فيه لتقويم وزنه من زيادة ونقصان وغير ذلك ما لا يستجاز في الكلام مثله)) (شرح كتاب سيبويه ، السيرافي : ١ / ١٨٩) .

(٢) ينظر: النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن ، الدكتور جميل حمداوي : ٥٦

(٣) ينظر: اللسانيات ونظرية التواصل رومان جاكسون انموذجاً : ٤٧ - ٤٨ .

فالبنية الشرطية لا تعمل بمعزل عن المتلقي به بل هي عملية تعاونية تتضمن صدور الشرط من المتكلم مسبقاً بالأداة ، ثم يأتي دور المتلقي ليحقق الشرط فيتحقق له الجزاء ، فكأنها : ((تبادل الأخذ والعطاء بين ممثلي الخطاب في سياقٍ حوارى يحكمه التعاون وينبني على الملاءمة))^(١)

وظاهرة الحذف هنا كانت مما اقتضته الصناعة النحويّة وذلك بأن تجد مبتدأ دون خبر أو شرطاً دون جزاء ، فيكون حذفاً لطول الكلام جملة الصلة وغيرها مما يمكن الاستغناء عنه بمذكور سابق له^(٢)، وهذا ما شار إليه أبي سعيد معللاً إجازة الحذف بالأصل التركيبي للجواب من جهة ، وتوظيف السياق لدفع الإيهام من جهة أخرى ، وكذلك بيان قدرة الخطاب النحوي على التماهي مع مقتضيات الفهم والتلقي .

(١) الحوار وخصائص التفاعل التواصلى ، محمد نظيف : ١٥ .

(٢) ينظر : مغني اللبيب ، ابن هشام : ٨٥٣

الخاتمة

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى الكشف عن تجليات الوظائف اللغوية والتواصلية في شرح كتاب سيبويه للسيرافي ، وقد أثمرت هذه الدراسة عن مجموعة من النتائج ، أهمها :

١. خلُصت الدراسة إلى أنَّ شرح السيرافي على كتاب سيبويه يشتمل على مقاربات تواصلية أصيلة ، تجلّت في تعليقه للأحكام النحوية وربطها بالسياق وقصد المتكلّم ، واستجابة المخاطب ، و وظائف التركيب ، الأمر الذي أظهر وجود نقاط التقاء مع اللسانيات الوظيفية الحديثة ، مع احتفاظ كلٍّ منهما بخصوصيته المعرفية ومنطلقاته النظرية .
٢. بينت الدراسة أنَّ الوظائف اللغوية لا تمثّل إطاراً لسانياً حديثاً فحسب ، وإنّما تعدّ مدخلاً فاعلاً لفهم الظواهر النحوية وتفسيرها ، إذ تبين أنَّ كثيراً من الأحكام النحوية وُضعت في ضوء الوظيفة التي يؤديها التركيب في الاستعمال ، لا في ضوء بنيته الشكلية فحسب .
٣. نظر السيرافي إلى اللغة بوصفها أداة للإفهام والتواصل، وهو ما انعكس في توجيهاته النحوية التي قامت على مراعاة وظيفة

- التركيب داخل الكلام ، والمعنى والسياق ، الأمر الذي يبرز البعد الوظيفي والتواصل في الفكر النحوي العربي .
٤. للوظيفية أصول شائعة في الدرس النحوي القديم، ولا سيما في شرح السيرافي ، مع اختلاف المصطلحات بين القديم والحديث ، فقد كانت منهج بحث وآلية من آليات التوجيه.
٥. إن الوظائف اللغوية في شرح السيرافي لم تكن عناصر تابعة للبنية النحوية فحسب ؛ بل مثلت أساساً في توجيه القاعدة وبناء الخطاب النحوي ، إذ ارتبطت الظواهر التركيبية والسياقية والإنشائية بمقاصد تواصلية أسهمت في إنتاج المعنى ، وتحقيق غرض الإبلاغ ، مما يدل على وعي النحاة المبكر بطبيعة اللغة ، ودورها في تحقيق التواصل .
٦. أظهرت الدراسة أن كثيراً من القضايا التي تناولتها السيرافي تلتقي مع مبادئ النظرية التواصلية الحديثة ، الأمر الذي يؤكد حيوية التراث النحوي العربي وقدرته على استيعاب المقاربات اللسانية المعاصرة .
٧. يبدو أن سيبويه قدّم تصوّراً منهجياً لبنية الكلام يقوم على تدرّج تحليلي يبدأ بالمستوى المعجمي ، ثمّ ينتقل إلى المستوى الإسنادي ، فالدلالي وصولاً إلى البعد التواصلية ، بما يكشف عن رؤية متكاملة لوظيفة الخطاب وآلية اشتغاله .

٨. أَكَّدَت معالجة السيرافي لظواهر العدول النحويّ أَنَّ سلامة التواصل ووضوح المقصد كانا معيارين حاكمين في توجيه البنى اللغويّة ، إذ يُلجأ إليه متى قصُرت البنية الأصليّة عن أداء المعنى المراد أو الإبانة عن مقصد المتكلّم على الوجه الأكمل .
٩. أثبتت الإشاريّات أَنَّ العلاقة بين البنية النحويّة والوظيفة التواصلية علاقة وثيقة ، وأنّ كثيرًا من توجيهات السيرافي النحويّة كانت تتطلق من مراعاة آليّات الإحالة والتعيين داخل الخطاب ، وهو مايكشف عن وعي مبكّر بالدور الذي تؤدّيه العناصر اللغويّة في إنجاز التواصل وتحقيق مقاصد المتخاطبين .
١٠. إنّ اسم الإشارة أداة لتوجيه انتباه المخاطب نحو مرجع معيّن وتمييزه من بين بدائل متعدّدة .
١١. أظهرت الأساليب الإنشائية في شرح السيرافي ارتباط القاعدة النحوية بالوظيفة التواصلية ، إذ نظر إليها بوصفها أدوات تحدد دلالتها من خلال السياق ، و قصد المتكلم ، لا من خلال بنيّتها الشكلية وحدها ، فلأساليب الإنشائية القدرة على تغيير معنى الكلام دون تغيير بنيّته التركيبية .
١٢. بينت الدراسة أَنَّ الوظائف التواصلية تتطلق من المتكلّم بوصفه مصدر الخطاب وصاحب القصد ، ومن ثمّ تتحدّد آليّات التواصل تبعًا لما يرمي إلى تحقيقه من مقاصد .

١٣. يظهر أثر مراعاة العلاقة المشتركة بين المتكلم والمُخاطب عند السيرافي في تفسيره لعوارض التركيب النحوية كالقديم والتأخير والحذف والذكر، وتغير التوجيه الإعرابي بحسب سياقات الكلام المختلفة .

١٤. حرص السيرافي على الاحاطة بالظروف الملازمة للكلام ، فينبه على قصد المتكلم ، وسياق الحدث ومناسبته إضافة إلى اعتماده على مسألة النبر واستعداد المخاطب للتلقي ، فيراعي هذه العناصر مجتمعة للوقوف على غرض الكلام.

١٥. وظف السيرافي الحجاج كآلية تخاطبية يلجأ إليها المتكلم لكي يضمن نجاحا تو اصلا تأثيريا ، يعنى من خلاله المحاجج إلى إثبات فرضية ما يراه ويعتقده .

١٦. أسهمت الشواهد القرآنية والشعرية والسماعية التي اعتمدها السيرافي في ترسيخ البعد التداولي للقاعدة النحوية وإبراز ارتباطها بسياقات الاستعمال .

١٧. إنّ للخلاف النحوي أسباب عدة دعت إليه منها طبيعة اللغة ، والاختلاف المنهجي بين المدارس النحوية ، وكان له جانب إيجابي عند السيرافي ، فإضافة إلى اعتباره وسيلة من وسائل الحجاج ، فهو آلية للتوسع في القاعدة وفي مجال القبول

والرفض ، إضافة إلى تعدد أوجه الإعراب المفضي إلى تعدد أوجه الدلالة .

١٨ . إن الأصل في الجمل الإسمية أن يقدم المبتدأ ويتأخر الخبر ، فلما خرجت هذه العناصر عن رتبها الأصلية ، اختلف النّحاة في تسوية هذه المسائل .

١٩ . عالج السيرافي الأساليب الشرطية التي يستعملها المتكلم بوصفها آليات حجاجيّة ، هدفها إقناع المخاطب ، وإنّها تختلف في قوتها الإقناعية بحسب قوة عملها واتساعها الدلالي في الشرط.

المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

الكتب المطبوعة :

﴿ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، الأستاذ الدكتور محمود أحمد نحلة ،

مكتبة الآداب القاهرة ، ط ١ ، ١٤٣٢هـ _ ٢٠١٤م .

﴿ أثر النحاة في البحث البلاغي ، دكتور عبد القادر حسين دار غريب للطباعة

والنشر والتوزيع ، القاهرة - مصر ، ١٩٩٨ .

﴿ اجتهادات لغوية ، تَمَام حَسَّان ، ط ١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٤٢هـ ٢٠٠٧م .

﴿ أدب الكاتب ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، شرحه وكتب

هوامشه : الأستاذ علي فاعور ، تحقيق : محمد الدالي ، دار الكتب العلمية ،

بيروت - لبنان ، ط ١ ، ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م .

﴿ إرتشاف الضرب ، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان

أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ) ، تحقيق وشرح : رجب عثمان محمد ،

مراجعة رمضان عبد التّوّاب ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ط ١ ، ١٤١٨هـ _

١٩٩٨م .

﴿ أساليب بلاغية ، أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي ، ط ١ ،

١٩٨٠م .

﴿ استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر الشهري ،

دار الكتب المتحدة ، ط ١ ، ٢٠٠٤م .

- 📖 أسرار البلاغة ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني بن محمد
الفرسيّ (ت ٤٧١هـ) ، تح : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ،
دار المدني بجدّة .
- 📖 أسرار العربية ، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري
(ت ٥٧٧هـ) ، تح : محمد بهجت البيطار ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق
د.ط ، د.ت .
- 📖 الأسس الإستمولوجيّة والتداوليّة للنظر النحوي عند سيبيويه ، د. إدريس مقبول ،
ط ١ ، عالم الكتب الحديث ، إريد-الأردن ، ٢٠٠٦ م .
- 📖 أسس السيميائية ، دانيال تشاندلر ، ترجمة : د. طلال وهبة ، مراجعة : د.
ميشال زكريّا ، بدعم مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ، ط ١ ، بيروت- لبنان
٢٠٠٨ م .
- 📖 الأشباه والنظائر ، السيوطي الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعيّة
، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ) ، دار الكتب العلميّة ، ط ١ ،
١٤٠٣هـ-١٩٨٣ م .
- 📖 الأصول ، دراسة استمولوجيّة للفكر اللغويّ عند العرب النحو-فقه اللغة-
البلاغة ، الدكتور تمام حسان ، عالم الكتب - القاهرة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م .
- 📖 أصول التفكير النحوي ، د. علي أبو المكارم ، ط ١ ، القاهرة ، دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٦ م .

- 📖 أصول الفقه الذي لا يسعه الفقيه ، أ.د. عيَّاض بن نامي السلمي ، ط ١ ، دار التدمرية ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
- 📖 أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية " تأسيس "نحو النص" ، محمد الشاوش ، كلية الآداب مَنوبة - تونس ، المؤسسة العربية للتوزيع بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠١م .
- 📖 الأصول في النحو ، أبو بكر محمد بن السريّ النحويّ المعروف بابن السراج (ت ٣١٦هـ) ، تح : عبد الحسن الفتليّ ، مؤسسة الرسالة ، لبنان _ بيروت ، ط ٣ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٠م .
- 📖 الإغراب في جدل الإعراب ولُمعُ الأدلة ، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد الأنباري (٥٥٧هـ) ، تح: سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .
- 📖 الأفق التداولي نظرية المعنى والسياق في الممارسة التراثية العربية ، الدكتور إدريس مقبول ، عالم الكتب الحديث ، المغرب ، ٢٠١١م .
- 📖 أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفة ، د. فاضل مصطفى الساقى ، تقديم : الأستاذ الدكتور تمام حسان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- 📖 الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية دلالية ، الدكتور خالد ميلاد ، ط ١ ، المؤسسة العربية للتوزيع ، تونس ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .

- 📖 الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ، كمال الدين أبو البركات ، عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي (٥٧٧هـ) ، وحاشية الانتصاف ، لمحمد محي الدين عبد الحميد (ت ١٣٩٢هـ) ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- 📖 أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، جمال الدين ، عبد الله بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) ، تح: بركات يوسف هبود ، راجعه : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، دار الفكر لطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- 📖 إئتلاف النصر في اختلاف النحاة بين الكوفة والبصرة ، عبد اللطيف بن أبي بكر الشرجي الزبيدي ، تح : الدكتور طارق الجنابي ، عالم الكتب ،
- 📖 الإيضاح ، أبو علي الفارسي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي ، تح : الدكتور كاظم بحر المرجان ، عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٤٤٦هـ / ١٩٩٦م .
- 📖 الإيضاح في علل النحو ، أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) ، تحقيق : مازن المبارك ، دار النفائس ، بيروت ، ط ٧ ، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م .
- 📖 بحوث ودراسات في اللسانيات العربية ، عبد الرحمن الحاج صالح ، موفق للنشر ، الجزائر ٢٠١٢ .
- 📖 البراغماتية اللسانية (التداولية) ، محمود عكاشة ، ط ١ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ، ٢٠١٣م .
- 📖 بلاغة الإقناع في المناظرة ، د. عبد اللطيف عادل ، منشورات ضفاف بيروت _ لبنان ، دار الأمان ، الرباط ، منشورات الاختلاف ، ط ١ ، ١٤٣٤هـ / ٢٠١٣م

📖 بناء الجملة العربيّة ، الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف ، دار غريب للطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣ م .

📖 البيان والتبيين ، عمرو بن بحر بن محبوب الكنانيّ أبو عثمان الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) ، تقديم : الدكتور علي بوملحم ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، ١٤٢٣ هـ .

📖 تحليل الخطاب الأدبيّ (دراسة تطبيقية) ، إبراهيم صحراويّ ، دار الآفاق ، الجزائر ، ط ١ ، ١٩٩٩ م .

📖 التداوليّات علم استعمال اللغة ، تقديم : حافظ إسماعيل علوي ، عالم الكتب الحديث ، إربد_الأردن ، ط ٢ ، ٢٠١٤ م .

📖 التداوليّات وتحليل الخطاب ، جميل حمداوي ، الألوكة ، د.ط ، د.ت .
📖 التداوليّة ، جورج يول ، ترجمة د. قصي العتابي ، ط ١ ، دار الأمان ، الرباط، ١٤٣١هـ/٢٠١١ م .

📖 التداولية اليوم ، آن روبول ، وياك موشلر ، ترجمة : سيف الدين دغفوس ، ومحمد الشيباني ، ومراجعة : لطيف زيتوني ، المنظمة العربيّة للترجمة ، بيروت_لبنان ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط ١ ، ٢٠٠٣ م .

📖 التداوليّة عند العلماء العرب ، د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٥ م .

📖 التراكيب الإسناديّة ، الدكتور علي أبو المكارم ، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع _القاهرة ، ط ١ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧ م .

- 📖 تصحيح الفصيح وشرحه ، أبو محمد عبد الله بن جعفر بن محمد بن درستويه
ابن المرزبان (ت ٣٤٧هـ) ، تح : د. محمد بدوي المختون ، المجلس الأعلى
للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- 📖 التطبيق النحوي ، د. عبده الراجحي ، دار المعرفة الجامعية ، ط ٢ ،
١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م .
- 📖 التعريفات ، للفاضل العلامة علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني ،
ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، مكتبة لبنان ، طبعة
جديدة ، ١٩٨٥م . دار الكتب العلمية ، بيروت-لبنان ، ط ١ ،
١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- 📖 التعليقة على كتاب سيبويه ، أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي
(ت ٣٧١هـ) تح : الدكتور عوض بن حمد القوزي ، مكتبة الاسكندرية ،
١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- 📖 التفكير اللغوي بين القديم والجديد ، د. كمال بشر ، دار الغريب للطباعة
والنشر ، ٢٠٢٢م .
- 📖 التواصل والحجاج ، عبد الرحمن طه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط ،
مطبعة المعارف الجديدة ، د. ط ، د. ت .
- 📖 التواصل والحجاج ، عبد العزيز السراح ، مقال ضمن كتاب الحجاج مفهومه
ومجالاته ، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة ؛ حافظ إسماعيلي
علوي ، ط ١ ، عالم الكتب الحديث ، اربد-الأردن ، ٢٠١٠م .

📖 توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك ، الحسن بن قاسم المرادي

(ت ٧٤٩هـ) ، تح : عبد الرحمن علي سليمان ، ط ١ ، دار الفكر العربي

، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

📖 الجمل في النحو ، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي (ت ٣٤٠هـ)

تح: الدكتور علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ، دار الأمل ، ط ١ ،

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

📖 الجملة العربية تأليفها وأقسامها ، الدكتور فاضل صالح السامرائي ، دار الفكر

ناشرون وموزعون ، ط ٢ ، ٢٠٠٧م / ١٤٢٧هـ .

📖 الجنى الداني ، الحسن بن قاسم المرادي (ت ٧٤٩هـ) ، تح : الدكتور فخر

الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية بيروت_لبنان ،

١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

📖 الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث

اليوناني والعربي ، عبد الله البهلول ، ط ، مطبعة دار نهى للطباعة ،

صفاقس_تونس ، ٢٠١٣م .

📖 الحجاج في البلاغة المعاصرة ، محمد السالم محمد الأمين الطلبة ، دار الكتب

الجديد المتحدة ، ط ١ ، بيروت ، ٢٠٠٨م .

📖 الحجاج في التواصل ، فيليب بروطون ، ترجمة : محمد مشبال و عبد الواحد

التهامي العلمي ، ط ١ ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١٣م .

- 📖 الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ، عبد العال سالم مكرم ، ط ٢ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت_شارع سوريا ، ١٤٣هـ/١٩٩٣م .
- 📖 الحوار وخصائص التفاعل التواصلية دراسة تطبيقية في اللسانيات التواصلية ، د. محمد نظيف ، أفريقيا الشرق ، د.ط ، ٢٠١٠م .
- 📖 الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن جني(ت٣٩٢هـ) ، تح : محمد علي النجار (ت٣٨٥هـ) ، ط ٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- 📖 خصائص الأسلوب في الشوقيات ، محمد الهادي الطرابلسي ، منشورات الجامعة التونسية ، المطبعة الرسمية للجمهورية الأردنية ، ١٩٨١م .
- 📖 خلاصة المنطق ، العلامة الشيخ عبد الهادي الفضلي ، شرح الشيخ رمزي القرعاوي ، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ، ط ٣ ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .
- 📖 دراسات في اللسانيات العربية - بنية الجملة العربية - التراكيب النحوية والتداولية - علم النحو وعلم المعنى ، د. عبد الحميد مصطفى السيد ، ط ١ ، دار الحامد ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م .
- 📖 دراسات في علم الأصول ، آية الله السيد علي الهاشمي الشاهرودي ، ط ١ ، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .
- 📖 دراسات في كتاب سيبويه ، الدكتورة خديجة الحديثي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، د.ط ، د.ت .
- 📖 الدلالة والنحو ، د. صلاح الدين صالح حسن ، ط ١ ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٥م .

📖 دلائل الإعجاز ، عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) ، تح : محمود محمد شاكر أبو فهر ، مطبعة المدني القاهرة - دار المدني بجدة ، ط ٣ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

📖 ديوان أبي زيد الطائي ، حرمة بن المنذر (ت ٤٠هـ) ، تح : الدكتور نوري حمودي القيسي ، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره ، مطبعة المعارف ١٩٦٧م .

📖 ديوان الاعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح وتعليق : الدكتور محمد حسين ، المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ، بيروت_لبنان .

📖 ديوان الهذليين ، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

📖 ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، دار صادر بيروت ، د.ط ، د.ت .

📖 الزمن في اللغة العربية بنياته التركيبية والدلالية ، أحمد الملاح ، ط ١ ، منشورات الاختلاف ، الجزائر العاصمة_الجزائر ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .

📖 سياق الحال في كتاب سيبويه دراسة في النحو والدلالة ، د أسعد خلف العوادي ، الحامد للنشر والتوزيع ، المملكة الأردنية ، ط ١ ، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م .

📖 شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري ، تح : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٢٠ ، دار التراث_القاهرة ، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاؤه ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

شرح التسهيل , تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد , جمال الدين محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائفي الجياني الأندلسي (ت ٦٧٢هـ) , تح : محمد عبد القادر عطا , وطارق فتحي السيد , ط ١ , دار الكتب العلمية , بيروت_لبنان , ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

شرح الرضي على الكافية , رضي الدين الاسترأبادي (ت ٦٨٨هـ) , تصحيح وتعليق : يوسف حسن عمر , (د.ط) , منشورات جامعة قاريونس_بنغازي , ١٣٩٨هـ/١٩٨٧م .

شرح ألفية ابن مالك للعثيمين , محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢هـ) , مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية , ط ١ , مكتبة الرشد / ناشرون , ١٤٣٤هـ .

شرح المفصل , موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش , الموصلي (ت ٦٤٣هـ) , قدّم له : الدكتور إميل بديع يعقوب , دار الكتب العلمية , بيروت_لبنان , ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

شرح كتاب سيبويه , أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان (ت ٣٦٨هـ) , تح : أحمد حسن مهدي وعلي السيد علي , ط ١ , دار الكتب العلمية , بيروت_لبنان ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م .

الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها , ابن فارس (ت ٣٩٥هـ) , تح : مصطفى الشويمي , مؤسسة بدران للطباعة والنشر , بيروت_لبنان , ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

- 📖 علم الدلالة ، أحمد مختار عمر ، عالم الكتب ، ط ٥ ، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- 📖 علم الدلالة أصول ومباحثه في التراث العربي ، منقور عبد الجليل ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠١م .
- 📖 علم الدلالة العربي النظرية والتطبيق ، دراسة تاريخية ، تأصيلية ، نقدية ، د . فايز الداية ، ط ٢ ، دار الفكر المعاصر ، دمشق ، ١٩٩٦م .
- 📖 علم اللغة الاجتماعي عند العرب ، د . هادي نهر لعيبي ، ط ١ ، ساعدت جامعة المستنصرية على طبعه ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- 📖 علم اللغة العام فرديناند دي سيوسير ، ترجمة : يوثيل يوسف عزيز ، ومراجعة : مالك يوسف المطلبي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ١٩٨٨م .
- 📖 فقه اللغة وخصائص العربية ، دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد ، محمد المبارك ، دار الفكر ، ط ٢ ، ١٩٦٤م .
- 📖 في التذوق الجمالي لمناظرة أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى بن يونس القنائي في مجلس الوزير أبي الفضل بن جعفر بن فرات سنة ٣٢٦هـ ، محمد علي أبو حمرة ، دار الجيل بيروت ، مكتبة المحتسب عمان ، ط ١ ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- 📖 في النحو العربي نقد وتوجيه ، د . مهدي المخزومي ، ط ٢ ، دار الرائد العربي ، بيروت - لبنان ، ٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

- 📖 القصة القصيرة النظرية والتطبيق ، انريكي اندرسون ، ترجمة : علي إبراهيم
منوفي ، مراجعة : صلاح فضل ، المشروع القومي للترجمة ، ٢٠٠٠ م .
- 📖 قضايا الشعرية ، رومان جاكبسون ، ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون ، دار
توبقال للنشر ، ١٩٨٨ م .
- 📖 كتاب سيبويه ، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ) ، تح : د. عبد
السلام هارون ، ط ٣ ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- 📖 كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد
بن محمد صابر الفاروقي التهانوي (ت بعد ١١٥٨هـ) ، تقديم : د. رفيق
العجم ، تح : د. علي دحروج ، نقل النص إلى العربية : د. عبد الله الخالدي
، ط ١ ، مكتبة لبنان ناشرون _ بيروت ، ١٩٩٦ م .
- 📖 اللباب في علل البناء والإعراب ، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله
العكبري البغدادي محب الدين (ت ٦١٦هـ) ، تح : د. عبد الأله النبهان ، ط ١ ،
دار الفكر _ دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .
- 📖 لحن العامة والتطور اللغوي ، رمضان عبد التّوّاب ، مكتبة زهراء الشرق ،
القاهرة ، ط ٢ ، ٢٠٠٠ م .
- 📖 لسان العرب ، ابن منظور ، (ت ٧١١هـ) ، تح : علي عبد الله الكبير و أحمد
حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، القاهرة .
- 📖 اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د. طه عبد الرحمان ، المركز الثقافي
العربي ، ط ١ ، بيروت - ١٩٩٨

- 📖 اللسانيات المعاصرة في ضوء نظرية التواصل ، الدكتور نور الدين رايس : .
ط ١ ، ٢٠١٤ .
- 📖 اللسانيات النشأة والتطور ، الأستاذ أحمد مؤمن ، ط ٢ ، ديوان المطبوعات
الجامعية ، ٢٠٠٥ م .
- 📖 اللسانيات الوظيفية ، مدخل نظري ، د. أحمد المتوكل ، ط ٢ ، دار الكتاب
الجديد المتحدة ، ٢٠١٠ م .
- 📖 اللسانيات الوظيفية المقارنة دراسة في التتميط والتطور ، أحمد المتوكل الدار
العربية للعلوم ناشرون ، ، ط ١ ، منشورات الاختلاف ، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢ م .
- 📖 اللسانيات ونظرية التواصل رومان جاكسون نموذجاً ، د. عبد القادر الغزالي ،
دار الحوار ، ط ١ ، ٢٠٠٣ .
- 📖 اللغة العربية معناها ومبناها ، أ.د. تمام حسان ، ط ٣ ، عالم الكتب ، القاهرة ،
١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م .
- 📖 اللغة بين المعيارية والوصفية ، أ.د. تمام حسّان ، ط ٥ ، عالم الكتب ، القاهرة ،
٢٠٠٦ م .
- 📖 لمع الأدلة في أصول النحو ، ابي البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد
الأنباري (ت ٥٧٧هـ) تح : سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ،
١٣٧٧هـ / ١٩٥٧ م .
- 📖 اللّمع في العربية ، أبو الفتح عثمان ابن جنيّ الموصلي (ت ٣٩٢هـ) ، تح :
فائز فارس ، دار الكتب الثقافية ، الكويت ، د.ط ، د.ت .

- 📖 المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ضياء الدين بن الأثير نصر الله بن محمد (ت ٦٣٧هـ) ، تح : دكتور أحمد الحوفي و دكتور بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، الفجالة_القاهرة .
- 📖 مجموع أشعار العرب ، وهو مشتمل على ديوان ديوان رؤية بن العجاج ، تصحيح : وليم بن الورد ، دار بن قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع ، الكويت.
- 📖 المدارس النحوية ، شوقي ضيف (ت ١٤٢٦هـ) ، ط ٧ ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت .
- 📖 مدخل إلى اللسانيات ، الدكتور محمد محمد يونس علي ، ط ١ ، دار الكتب الجديد المتحدة ، بنغازي_ليبيا ، ٢٠١٤م
- 📖 المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، عبد الرحمن بن أبي بكر ، جلال الدين السيوطي ، تح : فؤاد علي منصور ، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- 📖 مسائل النحو العربي في قضايا نحو الخطاب الوظيفي ، أحمد المتوكل ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، ٢٠٠٩م
- 📖 معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد بن منظور الدليمي الفراء (ت ٢٠٧هـ) ، تح : أحمد يوسف النجاتي ، محمد علي النجار ، ط ١ ، دار المصرية للتأليف والترجمة ، مصر ، د.ت .
- 📖 معاني النحو ، فاضل صالح السامرائي ، ساعدت جامعة بغداد على نشره ، ١٩٩٠م .

- 📖 معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، شهاب الدين أبو عبد الله
ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ) ، تح : إحسان عباس ، دار
الغرب - بيروت ، ط ١ ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- 📖 معجم السيميائيات، فيصل الأحمر ، الدار العربية للعلوم ناشرون ، ط ١ ،
منشورات الاختلاف ، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م .
- 📖 معجم اللغة العربية المعاصرة ، أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤هـ) ،
عالم الكتب ، ط ١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .
- 📖 معجم المصطلحات النحوية والصرفية ، الدكتور محمد سمير نجيب اللبدي ،
مؤسسة الرسالة ، دار الفرقان ، ط ١ ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- 📖 معجم المصطلحات علم اللغة الحديث ، د. محمد حسن باكلا وآخرون: مكتبة
لبنان ، ط ١ ، ١٩٨٣ ،
- 📖 المعنى خارج النص - أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب ، فاطمة
الشيدي ، دار نينوى ، دمشق ، ط ١ ، ٢٠٠٧ .
- 📖 المعنى وبناء القاعدة النحوية ، د. محمد حسن جاسم ، مجلة جامعة دمشق ،
مجلد (٢٥) ، عدد (١) ، ٢٠٠٩م .
- 📖 مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله
ابن يوسف ، أبو محمد ، جمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦هـ) ، تح : د.
مازن المبارك / محمد علي حمد الله ، دار الفكر - دمشق ، ١٩٨٥م .

📖 مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي (٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ط ٣ ، ١٤٢٠هـ .

📖 المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) ، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي (ت ٧٩٠هـ) ، تحقيق ج ١ : د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين (ت ٤٣٦هـ) ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى - مكة المكرمة ، ط ١ ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .

📖 المقتصد في شرح الإيضاح ، عبد القاهر الجرجاني ، تح : الدكتور كاظم بحر المرجان ، الجمهورية العراقية وزارة الثقافة والإعلام ، دار الرشيد للنشر ، ١٩٨٢م .

📖 المقتضب ، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي أبو العباس المبرّد (ت ٢٨٥هـ) ، تح : محمد عبد الخالق عزيمة ، عالم الكتب ، بيروت - لبنان .

📖 مقومات الجملة العربية ، الدكتور علي أبو المكارم ، ط ١ ، القاهرة ، دار غريب ، ٢٠٠٦م .

📖 المنطق ، الشيخ محمد رضا المظفر ، ط ٣ ، دار التعارف ، المنشية - الأردن ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٥م .

📖 المنية والأمل ، القاضي عبد الجبار الهمذاني هـ ، جمعه أحمد بن يحيى المرتضى ، تح : الدكتور عصام الدين محمد علي ، دار المعرفة الهاشمية ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .

- 📖 نتائج الفكر في النحو ، أبو قاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي
(ت ٥٨١هـ) ، ط ١ ، دار الكتب العلميّة _ بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- 📖 النحو الوافي، عباس حسن (٣٩٨هـ) ، ط ٣ ، دار المعارف ، مصر ، د.ت .
- 📖 النحو الوظيفي والدرس اللغويّ ، دراسة في نحو الجملة ، الزايد بو درامة ،
أطروحة دكتوراه ، إشراف الأستاذ الدكتور لخضر بالخير ، جامعة الحاج
الخضر _ باتنة _ كلية الآداب واللغات ، الجزائر ، ٢٠١٣/٢٠١٤م .
- 📖 نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، الشيخ محمد الطنطاوي ، تح : أبو محمد بن
عبد الرحمن بن محمد بن إسماعيل ، مكتبة إحياء التراث الإسلاميّ ، ط ١ ،
١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م
- 📖 النص والخطاب والاتصال ، د. محمد العبد ، الأكاديميّة الحديثة للكتاب
الجامعي ، القاهرة ، مصر ، ٢٠١٤م .
- 📖 النظرية الألسنية عند رومان جاكسون ، فاطمة الطبال ، ط ١ ، المؤسسة
الجامعيّة للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- 📖 نظرية التأويل التقابلي ، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب ، محمد بازي،
ضفاف/بيروت ، منشورات الاختلاف/ الجزائر ، ودار الأمان/الرباط ، ط ١ ،
٢٠١٣ .
- 📖 نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين ، حسن خميس سعيد
الملخ : ٢٩ . دار الشروق للتوزيع والنشر ، عمان - الأردن ، ط ١ ، ٢٠٠٠م

📖 نظرية التلقي أصول وتطبيقات ، د. بشرى موسى صالح ، ط ١ ، دار الشؤون

الثقافية ، بغداد ١٩٩٩ م .

📖 النظرية الشكلانية في الأدب والنقد والفن ، الدكتور جميل حمداوي ، د. ط ،

د. ت .

📖 نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ، د. نهاد الموسى

، كلية الآداب - الجامعة الأردنية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ ،

١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .

📖 نموذج الاتصال عند رومان جاكسون ، د. خنضالي سعيدة ، جامعة سطيف

، ٢٠٢٤ م .

📖 همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، جلال الدين السيوطي ، تحقيق : عبد

الحميد هندواوي ، المكتبة التوفيقية ، د. ط ، د. ت .

📖 الوظائف التداولية في اللغة العربية ، د. أحمد المتوكل ، ط ١ ، الدار الثقافية ،

المغرب ، ١٩٨٥ م .

📖 الوظيفة في كتاب سيوييه ، أ. د. رجاء عجيل الحناوي ، ط ١ ، مكتبة العلامة

ابن فهد الحلبي ، ١٤٣٧هـ / ٢٠١٥ م .

📖 الوظيفية بين الكلية و النمطية ، د. أحمد المتوكل ، دار الأمان ، الرباط ،

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م .

الرسائل والأطاريح الجامعية :

📖 التواصل اللسانيّ في شرح كتاب سيبويه للسيرافيّ (٣٦٨هـ) ، علي جواد كاظم ،
أطروحة دكتوراه ،كلية التربية- جامعة المستنصرية ، إشراف أ.د. بشري
محمد طه البشير ، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م .

📖 دراسات لسانية صورية للوحدات اللسانية الدالة ، بابا أحمد رضا ،رسالة
ماجستير، إشراف : الدكتور غثيري سيدي محمد ، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان-الجزائر ، ١٤٢٦-١٤٢٧هـ/
٢٠٠٥-٢٠٠٦م .

📖 دلالة السياق ، ردّة الله بن ردّة بن ضيف الطليحيّ ، أطروحة دكتوراه ، إشراف
الأستاذ الدكتور عبد الفتاح عبد العليم البركاويّ ، جامعة أم القرى ، كلية اللغة
العربية ، قسم الدراسات العليا ، ١٤١٨هـ .

📖 العدول في الأسماء والأفعال ، خليل ابراهيم علاوي ، رسالة ماجستير ، إشراف
الدكتور هشام إبراهيم الحدّاد ، جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية ،
١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

📖 المنحى الوظيفي في تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور "سورة القرة إنموذجاً"
، الطاهر شارف ، رسالة ماجستير ، إشراف الأستاذ أحمد شاميّة ، جامعة
الجزائر ، كلية اللغات و الآداب ، ٢٠٠٥م/٢٠٠٦م .

📖 نهج السيرافيّ في شرحه لكتاب سيبويه ، عبد الحميد علي الفلاح السالم ،
إشراف : الأستاذ الدكتور إبراهيم السامرائيّ ، أطروحة دكتوراه ، كلية الدراسات
العليا / الجامعة الأردنية ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

الدوريات :

- 📖 الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي ، إبراهيم أبو يعقوب ، و محمد عارض عثمان ، دار المنظومة ، مصر ، العدد : ٧٤ ، مارس ١٩٩٤ .
- 📖 الأفعال الكلامية عند الأصوليين ، مسعود صحرابي ، مجلة اللغة العربية ، العدد (١٠) ، جامعة الأغواط ، ٢٠٠٤ م .
- 📖 التأشير والتباعد بين القدماء والمحدثين ، دلخوش جار الله حسين دزه يي ، مجلة جامعة زاخو ، مجلد (٣) ، عدد (٢) ، ٢٠١٥ .
- 📖 تداولية المقام في الدرس البلاغي العربي القديم ، أ.أعمار ربيعة ، مجلة المقرري للدراسات النظرية والتطبيقية ، المجلد (١) ، العدد (٢) ، ٢٠١٨ م .
- 📖 تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب ، محمد العبد ، منشور ضمن كتاب التداوليات علم استعمال اللغة ، مجلة فصول ، العدد ٦٥ ٢٠٠٤م/٢٠٠٥ م .
- 📖 التواصل اللساني مفهومه و نماذجه ، بوزري فاتح ، مجلة ألف اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية ، القاهرة_مصر ، مجلد (٩) ، العدد (١) ، ٢٠٢٢ م .
- 📖 الحدود الوظيفية في شروح التسهيل لابن مالك - وظيفة الاسناد إنموذجاً - ، أد لمى عبد القادر الابراهيمي ، و فاضل هادي شناوة ، مجلة مركز دراسات الكوفة ، مجلد (١) ، عدد (٦٢) ، ٢٠٢١ م .

علم المخاطب بين التوجيه النحوي والتداولية ، الدكتور عمر محمد أبو نواس ،
المجأة الأردنية في اللغة العربية وآدابها ، (المجلد ٧) ، (العدد ٢) ،
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م .

القدرة التواصلية من منظور اللسانيات الحديثة النظرية (البنيوية ، التوليدية
التحويلية ، الوظيفية) ، د. نصيرة بونوه زيتوني ، مجلة جامعة الأزهر كلية
اللغة العربية ، العدد ٢٦ ، الإصدار ١ ، ١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م .

كفاءة معلم اللغة العربية بين التواصل اللغوي والسياق الثقافي ، الدكتورة
فاطيمة داوود ، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ، العدد (١٢) ،
٢٠١٦م .

المقام أو السياق بين المفهوم العربي أو الغربي ودوره في فهم مقاصد الخطاب
القرآني ، أ. موهوب أحمد ، جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل ، مجلة
الآداب و العلوم الانسانية ، المجلد (١٦) ، العدد (٣) ، ٢٠١٧م .

المنحى الوظيفي في رسالة سيبويه ، د. دليلة مزور ، مجلة كلية الآداب
والعلوم الانسانية ، جامعة محمد خضير ، سكرة - الجزائر ، العدد (٨٤) ،
٢٠١٠م .

النص والتواصل ملامح من تداولية الخطاب ، د. جبار سويس الذهبي ، مجلة
الأقلام ، العدد (٥) ، بغداد ، ٢٠٠٨م .

📖 نظرية الفائدة في الفكر النحوي العربي , د. سعد عبد الحسين فرج الله , كلية

الآداب - جامعة البصرة / العراق , مجلة جيل الدراسات الأدبية والفكرية ,

العدد (٧٢) ٢٠٢١ م .

📖 نموذج الاتصال عند رومان جاكسون . د. خنصالي سعيدة , مجلة وحدة

البحث في تنمية الموارد البشرية , جامعة سطيف , مجلد (١٩) , عدد (١) ,

٢٠٢٤ م .

📖 الوظائف النحوية المتعددة لعناصر التركيب في ضوء تنوع الاستعمال اللغوي ,

د. شيماء رشيد محمد زنكنة , مجلة كلية دار العلوم / جامعة القاهرة , مجلد (

٣٨) , العدد (١٣٨) , ٢٠٢١ م .

Abstract

The research is a communicative approach to linguistic functions in explaining Sibawayh's book on Al-Sirafi, and it was motivated by three things. The first: that language is considered one of the necessities of life, because it is a tool for communication and interaction. Language is one of the subjects whose novelty never fades, and generations have succeeded one another since ancient times in studying it, trying to encompass this amazing phenomenon with which God has honored human beings above all other creatures; it is the tool for communication and interaction and the first way to exchange ideas, feelings, and experiences among its people.

The second matter relates to what was known about Al-Sirafi in terms of investigation and good commentary. Ibn Al-Anbari said: "No one has explained Sibawayh's book better than him; and if he had no other work, that would have been enough for him as a virtue." It is not hidden how important Al-Sirafi's explanation is, in which he was distinguished by a precise follow-up of Sibawayh's chapters, clarifying what was obscure in his expressions and responding to his opponents with arguments and proofs. Books have been organized to study his approach in explaining the book, as well as the emergence of communicative features in the directions of grammatical judgment, including his attention to the meaning and the

intended benefit and the keenness to take into account the intentions of the interlocutors, so it was a rich material for the subject of research. The third matter: The attempt to uncover the communicative thought in Al-Sirafi's explanation in particular is a study that may be new to the Arabic Language Department in our college. I have not, to the extent that I have seen, had a comparable study that preceded this study. The novelty of the topic was a motivation to try to combine authenticity and modernity, and to confirm the idea that grammar is not rigid templates; rather, it is a means to control understanding and then control speech, and thus achieve communication in its optimal form. This research did not attempt to literally impose modern concepts on the ancient text or to insert them arbitrarily; This is due to the temporal and contextual differences between them, which make this type of study seem oblivious to the temporal and epistemological distance between the two perspectives. Therefore, this research sought to explore the common epistemological points and similar ideas without claiming complete correspondence or fusion between them, despite modern scholars acknowledging their influence by the research of the ancients. Chomsky stated in one of his television interviews: "I was working on some research related to Semitic linguistics, and I still remember studying the Ajrumiyya several years ago, I think more than thirty

years ago... I was interested in the Arabic and Hebrew grammatical heritage... but I do not feel qualified to talk about the linguistic research that the Arabs contributed to building modern linguistics.” I was presented with some studies that dealt with communication and functionality, on different texts, each of which dealt with the text from a perspective that may be different, and the closest to the title of the research is the doctoral dissertation entitled: (Linguistic communication in the explanation of Sibawayh’s book by Al-Sirafi (368 AH) had the merit of paving the way, with the difference in approach and treatment. Likewise, the book entitled (Functionality in Sibawayh’s book) was the gateway through which I learned about the manifestations of functional ideas in Sibawayh and consequently in Al-Sirafi.

The nature and content of the research necessitated its division into three chapters, each interspersed with sections, preceded by an introduction, and followed by a conclusion summarizing the most important findings. In the introduction, I presented the theoretical concepts of linguistic and communicative functions and their early manifestations in modern thought, as well as some of the manifestations of functionalist thought in the work of al-Sirafi in particular. The first chapter explored linguistic functions and their structural foundations to understand the components of speech and their functional relationships. The second section established that deviations from the original form were for the purposes of



communication and conveying meaning. The second chapter, titled "Communicative Functions and the Construction of Grammatical Rules," revealed the function of indicative devices and stylistic devices, as well as everything related to the intentions of the interlocutors, the communicative context of speech, and its impact on the direction of grammatical judgment. The third chapter, titled "Argumentation and Communication," examined them as the means and the end, where al-Sirafi employs argumentation with all its mechanisms, utilizing... He used it as a means to establish the validity of the ruling and refute the opponent's objection. The first section addressed the authority of hearsay in guiding grammatical rulings, since hearsay has prevailed over analogical reasoning in most instances, except where the heard wording distorts the meaning. This underscores al-Sirafi's concern for meaning. The second section dealt with controversial issues, focusing specifically on matters related to the statement of fact, as a tool for constructing shared knowledge. It is not merely a grammatical construction that can be true or false, but rather it becomes the axis of cognitive interaction between speaker and listener. To culminate this interconnected path between argumentation and communication, it was necessary to examine the most effective syntactic devices in grammatical discourse. Thus, the third section focused on "The Conditional Structure and its Impact on Guiding Communicative Meaning," because the conditional structure represents the



procedural pinnacle of argumentation. Al-Sirafi employs these devices and their related elements to guide the listener's mind to a single conclusion, the most important goal of which is achieving communication. The study concluded with a summary in which I included the most important findings of the research.

This study was based on an attempt to adhere to a single approach in presenting grammatical issues by assigning each issue a title appropriate to its content, preceded by an introduction that illuminates the path to the problem to be presented. At times, I relied solely on my understanding of al-Sirafi's issues without resorting to other sources, as I lacked the necessary resources to grasp the functional aspect of the issue. Any correctness in this research is due to God's grace and favor, and any shortcomings are my own. Our final supplication is that all praise belongs to God, Lord of the Worlds.





Ministry of Higher Education and Scientific Research

Al-Qadisiyah University – College of Arts

Department of Arabic Language

**Linguistic Functions in Al-Sirafi's Commentary on
Sibawayh's Book (An Approach in Light of
Communication Theory)**

A thesis submitted by the student

Lina Jawad Hamza to the Council of Colleges of
Arts – Al-Qadisiyah University

This thesis is a requirement for the PhD in
Philosophy in Arabic Language and Literature

Supervisor: Professor Dr. Haider Habib Hamza

1447 AH

2026CE